

الدافعية والانفعال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مكتبة أصول علم النفس الحديث
بإشراف الدكتور محمد عثمان نجاتي

الدافعية والانفعال

تأليف
إدوارد ج. موراي

مراجعة

الدكتور محمد عثمان نجاتي

أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة
وجامعة الكويت وجامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية سابقاً

ترجمة

الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة

أستاذ علم النفس بجامعة الأزهر
وجامعة الملك سعود وجامعة الكويت

دار الشروق

هذا الكتاب ترجمة لكتاب

Edward J. Murray : **Motivation and Emotion**
Englewood Cliffs, New Jersey : Prentice-Hall,
Inc., 1964

مَكْتَبَةُ أَصُولِ عِلْمِ النَّفْسِ الْحَدِيثِ

إن النمو الهائل لعلم النفس والتحامه المتزايد مع العلوم الإجتماعية والبيولوجية قد جعل من الضروري البحث عن أساليب جديدة لتعليمه في المستويات الأولى من التعليم الجامعي . ولم نعد نشعر بالرضا عن المقرر الأساسي التقليدي الذي يُكَيَّف عادة لكتاب واحد يحاول أن يعرض كل شيء عرضاً خفيفاً يضحى بالعمق في سبيل الشمول . إن علم النفس قد أصبح متعدد النواحي بحيث لم يعد من المتيسر لأي شخص واحد ، أو عدد قليل من الأشخاص ، أن يكتبوا فيه عن تمكّن تام . والبديل الآخر لذلك وهو الكتاب الذي يهمل ميادين كثيرة رئيسية في سبيل عرض ناحية أو وجهة نظر معينة في علم النفس عرضاً أكثر شمولاً وفعالية هو أيضاً غير كاف ، لأن في هذا الحل لا يُعرض كثير من الميادين الرئيسية على الطالب إطلاقاً .

إن مكتبة أصول علم النفس الحديث كانت المحاولة الأولى في إصدار مجموعة من الكتب الصغيرة الحجم التي تتناول موضوعات أساسية مختلفة ، يكتب كلا منها عالم متخصص كفء . ثم أخذ هذا الاتجاه في التأليف في علم النفس يتزايد بعد ذلك . ولقد كنا متأثرين في إصدار هذه السلسلة من الكتب بفكرة تزويد القائمين بتدريس المقررات العامة في علم النفس بمادة تكون أكثر مرونة من المادة الموجودة في الكتب الحالية الكبيرة ذات الطابع الموسوعي ، وعرض موضوع واحد في كل كتاب عرضاً أكثر عمقاً مما لا يتوفر في كتب المداخل التي لا تفرد لهذه الموضوعات عادةً حيزاً كبيراً .

إن أول كتاب في هذه المكتبة ظهر عام ١٩٦٣ ، وآخرها ظهر في عام ١٩٦٧ .

ولقد بيع من هذه الكتب أكثر من ربع مليون نسخة مما يشهد على استخدام هذه الكتب استخداماً واسع النطاق في تدريس علم النفس . وقد استخدم بعض كتب هذه المكتبة ككتب إضافية ، واستخدم بعضها كالكتاب المقرر في كثير من مقررات المرحلة الأولى الجامعية في علم النفس ، والتربية ، والصحة العامة ، وعلم الاجتماع ، كما استخدمت مجموعة من كتب هذه المكتبة ككتب مقررة في المقررات التمهيدية في علم النفس العام في المرحلة الأولى الجامعية . وقد ترجم كثير من هذه الكتب إلى ثمانى لغات هي الهولندية ، والعبرية ، والإيطالية ، واليابانية ، والبولندية ، والبرتغالية ، والأسبانية ، والسويدية .

ولوجود اختلاف كبير في زمن نشر هذه الكتب ، ونوع محتوياتها فإن بعضها يحتاج إلى مراجعة ، بينما بعضها الآخر لا يحتاج إلى ذلك . ولقد تركنا اتخاذ هذا القرار إلى مؤلف كل كتاب ، فهو الذى يعرف جيداً كتابه من حيث علاقته بالوضع الحالى للميدان الذى يتناوله الكتاب . وسيظل بعض هذه الكتب بدون تغيير ، وبعضها سيعدل تعديلاً طفيفاً ، وبعضها سيعاد كتابته كلية . ولقد رأينا أيضاً في الطبعة الجديدة لهذه المكتبة أن يحدث بعض التغيير في حجم بعض الكتب وفي أسلوبها لتعكس بذلك الطرق المختلفة التى استخدمت فيها هذه الكتب كمراجع .

لم يكن هناك من قبل على الإطلاق اهتمام شديد بالتدريس الجيد في كليتنا وجامعاتنا كما هو موجود الآن . ولذلك ، فإن توفير الكتب القيمة والمكتوبة جيداً والمثيرة للتفكير والتى تلقى ضوءاً على البحث المتواصل المثير عن المعرفة يصبح متطلباً أساسياً . ويصبح ذلك ضرورياً على وجه خاص في مقررات المرحلة الأولى الجامعية حيث يجب أن تكون في متناول يد عدد كبير من الطلبة كتب تمدهم بقراءات مناسبة . إن مكتبة أصول علم النفس الحديث تمثل محاولتنا المستمرة لتزويد مدرسي الكليات بالكتب المقررة التى يمكننا تأليفها .

ريتشارد س . لازاروس

(المشرف على إصدار المكتبة باللغة الإنجليزية)

المحتويات

الصفحة

١٣	تصدير الطبعة العربية
١٥	تصدير المؤلف
١٧	الفصل الأول : تصورات مختلفة للدافعية
٢٠	النظريات المعرفية
٢٢	النظريات القائمة على مبدأ اللذة
٢٣	نظريات الغرائز
٢٦	نظريات الباعث
٢٨	تعريف للدافعية
٣١	الفصل الثاني : الدافعية والسلوك
٣٤	التعلم والأداء
٣٩	الإدراك الحسي والانتباه
٤١	التذكر والنسيان
٤٣	التفكير والخيال
٤٧	السلوك الاجتماعي والانفعالي
٤٨	الدوافع المتصارعة
٥١	الدافعية بوصفها محددة للسلوك
٥٣	الفصل الثالث : دوافع الاتزان الحيوي
٥٧	طبيعة الدافع
٥٧	الجوع
٦٣	الحاجة الفسيولوجية مقابل الدافع الجنسي
٦٥	المثيرات الدافعية مقابل تنشيط الدافع

الصفحة

٦٧	طبيعة الإثابة
٦٧	الجوع
٧٠	الإثابات المستغلة عن خفض الحاجة
٧٤	أفكار جديدة عن دوافع الاتزان الحيوى
٧٧	الفصل الرابع : الدافعية الجنسية
٧٨	الأساس الفسيولوجى للسلوك الجنسى
٧٨	المهرمونات الجنسية
٨١	الميكانيزمات العصبية
٨٣	المنبهات البيئية
٨٤	العلاقات فيما بين العوامل
٨٦	الجنس بوصفه إثابة للتعلم
٨٨	الحرمان الجنسى والشبع الجنسى
٩٠	النمو الجنسى
٩١	النضج الجنسى
٩٣	المراحل الجنسية النفسية عند فرويد
٩٧	عوامل حضارية فى النمو الجنسى النفسى
١٠١	الفصل الخامس : الدوافع الانفعالية
١٠٦	استثارة الانفعال
١٠٦	الاستثارة الفطرية للانفعال
١٠٩	الاستثارة الانفعالية المتعلمة
١١١	التهديد الشخصى
١١٥	الاستجابة الانفعالية
١١٥	تصنيف الانفعالات
١٢٠	الأنماط الجسمية الظاهرة
١٢٢	التغيرات الفسيولوجية الداخلية

الصفحة

١٢٨	تأثير الانفعال في السلوك
١٢٥	ميكانيزمات الدماغ في الانفعال
١٢٨	الانفعالات - وهل هي تؤدي إلى التنظيم أم إلى الاضطراب ؟
١٣١	الخوف بوصفه دافعاً
١٣٥	الغضب بوصفه دافعاً
١٣٩	الفصل السادس : السلوك المدفوع ذاتياً
١٤٠	مفاهيم الدوافع المشتقة
١٤١	الإعلاء
١٤٣	الاستقلال الوظيفي
١٤٥	الدوافع المكتسبة والإثابات المكتسبة
١٤٨	الدليل على السلوك المدفوع ذاتياً
١٤٩	الدوافع الحسية
١٥١	دوافع الفضول
١٥٥	دوافع النشاط والتناول
١٥٧	الدوافع المعرفية
١٦٠	مفاهيم جديدة في الدافعية
١٦٥	الفصل السابع : مصادر الدافعية الاجتماعية
١٦٨	مفاهيم الدافعية الاجتماعية المشتقة
١٧٢	الدليل على الدوافع الاجتماعية الفطرية
١٨١	نشأة الدوافع الاجتماعية
١٨٤	الدافعية الاجتماعية والذات
١٨٩	الفصل الثامن : الدوافع الاجتماعية وهي تؤدي عملها
١٩٣	الدافع إلى الإنجاز
١٩٨	الدافع إلى الانتماء
٢٠٣	الدوافع الاجتماعية والمجتمع
٢١١	خاتمة

تصدير الطبعة العربية

إن الدافعية والانفعال مجالان هامين من مجالات علم النفس التي حظيت باهتمام كثير من علماء النفس ، فأجروا حولها كثيراً من البحوث ، ووضعوا فيها كثيراً من النظريات . فدوافعنا وانفعالاتنا تؤثر في جميع نواحي سلوكنا : إدراكنا الحسى ، وتعلمنا ، وتفكيرنا ، وخيالنا ، وإبداعنا ، وتذكرنا ونسياننا ، وأدائنا لأعمالنا . وتؤثر دوافعنا وانفعالاتنا أيضاً في سلوكنا الاجتماعى وعلاقاتنا الاجتماعية : حبنا للناس أو كرهنا لهم ، ميلنا إلى الاجتماع بهم أو تجنبهم والابتعاد عنهم ، تعاوننا معهم أو تنافسنا ، تسامحنا معهم أو عدواننا عليهم ، الخ .. وقد تتعارض دوافعنا وتتصارع ، فيؤدى بنا ذلك إلى القلق والاضطراب النفسى . وقد يدرك الإنسان دوافعه التي تجعله يتصرف في بعض المواقف على نحو ما ، غير أنه كثيراً ما تؤثر في سلوك الإنسان دوافعه اللاشعورية التي لا يكون على وعى بها . لذلك ، كانت معرفة الدوافع التي تؤثر على سلوك الإنسان في موقف معين من العوامل الهامة التي تساعد على فهم السلوك الذى يصدر منه في ذلك الموقف .

وبالرغم من الأهمية الكبيرة التي يحتلها مجال الدوافع والانفعالات في علم النفس ، وبالرغم من كثرة البحوث التي أجريت فيه ، إلا أنه مع ذلك مجال اختلفت فيه الآراء ، وتعددت فيه النظريات ، ولم نصل فيه بعد إلى آراء يتفق عليها جميع الباحثين .

وقد تناول الكتاب المفاهيم المختلفة للدافعية ، والنظريات المختلفة التي وضعت لتفسيرها . فذكر النظريات المعرفية ، والنظريات القائمة على مبدأ اللذة ،

ونظريات الغرائز ، ونظريات البواعث التي تفسر الدافعية على أساس مفهوم الاتزان الحيوى . وذكر أهم العلماء البارزين من رواد هذه النظريات المختلفة .

وتناول الكتاب أيضاً الانفعال ، وبيّن الدور الهام الذى يقوم به الانفعال كدافع ، وذكر النظريات المختلفة التي وضعت لتفسير الانفعال .

وقدم الكتاب عرضاً شاملاً وجيداً للبحوث المختلفة في مجال الدافعية والانفعال . مع توضيح الخلفية النظرية التي تولدت منها هذه البحوث ، وبيّن نموها وتطورها ، والوضع الحالى التي وصلت إليه ، ومحصلة معرفتنا الحالية التي أدت إليها نتائج هذه البحوث .

وقد وفق مؤلف هذا الكتاب الدكتور ادوارد ج . موراي في عرض مجال الدافعية والانفعال عرضاً شاملاً دقيقاً واضحاً ، في شيء من الإيجاز ، لكي يكون في متناول فهم طلاب علم النفس والعلوم الأخرى ذات العلاقة بعلم النفس . ووفق الزميل الأستاذ الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة كل التوفيق في ترجمة هذا الكتاب ترجمة دقيقة ، وفي أسلوب يتميز بالوضوح وبالقدرة على توصيل المعنى بدقة وبعبارات بليغة سلسلة . فله جزيل الشكر على ما بذله من جهد في ترجمة هذا الكتاب الذى سيسد فراغاً في مكتبتنا العربية التي تفتقر بالفعل إلى كتاب جيد في هذا الموضوع .

محمد عثمان نجاني

١٩٨٧/٥/٥

تصدير المؤلف

إن مجال الدافعية والانفعال مجال مثير للخلافات الكثيرة . فهناك تساؤل عما إذا كان هذا مجالاً واحداً أم مجالين . وهناك بعض علماء النفس الذين يلغون الدافعية والانفعال كلية من موضوعات علم النفس العام . فهم ينظرون إلى الموضوع باعتباره الملاذ الأخير للقائلين بالمذهب الإنساني ، والمذهب الحيوي ، والغائية . وربما كانوا على صواب ، على نحو ما ، وذلك لأننا عندما ننظر إلى الدوافع فإن المائلة بين الإنسان والآلة تنهار . ولكن العلم ليس محصوراً في مماثلات بسيطة ، فمجال الدافعية والانفعال يضطرنا إلى النظر في تعقيد الإنسان من حيث هو كائن عضوي اجتماعي حيوي .

إن ميدان الدافعية والانفعال ميدان مضطرب إلى درجة كبيرة بحيث أنه من المحتمل جداً أن يتخذ أحد مسارات مبسطة كثيرة . فأولاً ، قد يعتقد كاتب ما إحدى النظريات الكبيرة المتنافسة - نظرية التعلم ، أو نظرية التحليل النفسي ، أو نظرية المجال ، أو نظرية اللذة . وثانياً ، قد يحصر الكاتب نظره في مصدر واحد للمعلومات - التجارب على الحيوان ، أو التجارب على الإنسان ، أو الملاحظة الإكلينيكية ، أو الدراسات الميدانية الأنثروبولوجية . وأخيراً ، قد يكون التبسيط في توجيه الاهتمام فقط إلى الدوافع الفسيولوجية فقط ، أو إلى المتغيرات السيكوندينامية ، أو إلى القوى الاجتماعية . وقد وجدت أن جميع هذه الخطط الاستراتيجية المبسطة تؤدي إلى تشوهات خطيرة .

إن المنهج المتبع في هذا الكتاب هو منهج تعددي وتكاملي . فلم أعرض المادة من

وجهة نظر نظرية واحدة لأنى أحب تصارع الأفكار ، ولأنى أرى أنه لم يظهر بعد حتى الآن إطار نظرى ملائم حقاً للسلوك الإنسانى . وإنى أفضل أن يبقى الطالب مضطرب التفكير قليلاً ، بدلاً من أن يقيد تفكيره بنظرية واحدة . وقد حاولت أن أوصل الإثارة التى يحدثها علم السلوك ، وذلك بالتأكيد على ميلاد المفاهيم ، وأفولها ، وتجديدها . وكذلك على الأهمية النظرية للاكتشافات الحديثة ، والكفاح الذى لا ينتهى من أجل الفهم . وحاولت فى نفس الوقت ، أن أنسق بين الدراسات المختبرية والميدانية والإكلينيكية ، كما حاولت أن أبين كيف أنها جميعاً مصادر صحيحة ومتكاملة للمعرفة . وأخيراً ، بالرغم من أنه ليس من الممكن عرض مسح شامل فى كتاب فى مثل هذا الحجم ، فقد حاولت أن أعطى أمثلة من جميع مجال الدافعية والانفعال - مثل الجوع ، والجنس ، والخوف ، والتطلع ، والحب ، والإنجاز .

أدوارد ج . موراي

الفصل الأول

تصورات مختلفة للدافعية

الإنسان كائن حي عجيب يستطيع أن يدرك الأحداث ، وأن يصدر الأحكام المعقدة ، وأن يتذكر ما مر به من المعلومات ، وأن يحل المشكلات ، وأن يضع الخطط موضع التنفيذ . لكن هذا الجهاز الدقيق المعقد يمكنه أن يُستخدَم من أجل أغراض شتى - من أجل التخطيط للحرب ، أو من أجل ارتياد الفضاء ، أو من أجل إذلال شخص آخر ، أو من أجل توفير الراحة للمريض ، أو من أجل الحصول على التقدير ، أو السيطرة ، أو المودة . والأغراض التي يسخر المرء من أجلها قدراته البشرية إنما تتوقف على الدافعية عنده - على رغباته ، ومطالبه ، وأمانيه ، وحاجاته ، واشتهاءاته ، وجوعه ، وحبه ، وكراهيته ، وخوفه . ولعل المثال التالي يزيد الأمر وضوحاً ، لنفرض أننا بصدد ثلاثة من الشبان طلاب الجامعة . ولنفرض أنهم جميعاً على درجة واحدة من الذكاء والاستعداد الدراسي . ولكن أولهم يحصل دائماً على تقديراته (ممتاز) ، والثاني على تقديرات (جيد) ، والثالث يرسب باستمرار . هنا قد يكون التفاوت في الدافعية سبباً لهذه الاختلافات بينهم في الأداء .

إن الشاب الأول من أسرة مهاجرة فقيرة ، أبواه يعقدان الآمال عليه ويرجوان له أن يصبح رجلاً ناجحاً في مهنة راقية . وقد دأبا على تشجيعه وإثابته حين يحصل على التقديرات المرتفعة منذ طفولته المبكرة ، ولذلك ، نمت عنده الرغبة القوية في الإنجاز ، وزال عنده الخوف من العمل بجد واجتهاد . والواقع أنه يفرض على نفسه بلوغ مستويات عالية ولا يشعر بالرضا إلا إذا حصل على تقدير (ممتاز) .

وأما الشاب الثاني فقد نشأ في أسرة ثرية ، لا يحمل هم المستقبل . فإنه بعد أن ينتهى من دراسته الجامعية سوف ينضم إلى عمل والده التجارى . وهو لا يجد لديه دافعاً إلى الحصول على تقديرات مرتفعة . بل . في الواقع ، أنه قد يعد الطالب الأول منفراً ، أو أقرب إلى أن يكون سوقياً مملاً . أما هو نفسه فلا يهدف إلا إلى التقدير (جيد) الخاص بأبناء الأسر الرفيعة الطيبة .

وأما الفشل فقد يكون تفسيره أمراً أكثر تعقيداً . ولكننا قد نجد في حالة أب وابنه سحت لى فرصة لقائهما حديثاً ما يوضح نوع المواقف التى يمكن أن تعين على تفسيره . كان الأب قد نشأ في أسرة فقيرة ولكنه عمد إلى الارتفاع بنفسه بجهوده الشخصية حتى صار محامياً ناجحاً كادحاً . وهو يتوقع من ابنه أن يفعل كما فعل هو . ولكن الابن كان يخشى الأب ، كما كان موقناً من أنه لا يملك أن ينجح النجاح الذى أحرزه الأب . وكان التوتر يستبد به في الامتحانات ، فيظل قلبه يخفق بشدة ، والعرق يتصبب من يديه . لقد كان القلق يعرقل أدائه ، ولذلك ، بدأ طريقه إلى الفشل .

ففي الحالة الأولى كان لدى الطالب دافع يدفعه إلى الحصول على التقديرات العالية . ولكن الطالب الثانى لم يكن كذلك . بينما كان لدى الطالب الثالث دافع يدفعه إلى الإنجاز ، ولكن دافعاً انفعالياً معارضاً آخر كان يحول بينه وبين النجاح . في كل هذه الحالات كانت عمليات الإدراك والتذكر والتفكير ملائمة للعمل ، ولكن الأداء الحقيقى كان يتوقف على الدوافع والانفعالات .

على أن الاهتمام بالدافعية ليس مقصوراً على علماء النفس . فإن لكل واحد منا مفهومه الخاص عما يدفع الناس ويحركهم ، والواقع أن مثل هذا المفهوم قد يكون أمراً لا بد منه من أجل المضى في الحياة . إننا كثيراً ما نتساءل عما يريده هذا الشخص ، وعما قد يؤثر فيه ، وعن الشيء المهم بالنسبة له . ألسنا نجد أن البائع الناجح يتعلم متى يركز على رخص السلعة ، ومتى يركز على حاجات الأفراد إلى المكانة الاجتماعية . والطبيب الذى ينسى أن مرضاه يفتقرون إلى شيء من التعاطف

افتقارهم إلى الدواء . سوف يتناقص عدد زبائنه حتماً .

ومفاهيم الدافعية تجدها ملتحمة بكثير من أنظمتنا الاجتماعية . من ذلك أن عقوبة مَنْ يقتل إنساناً آخر تتوقف على دافع القاتل . وعلى ما إذا كان القتل قد تم في حالة تمالك القاتل لأعصابه ، أم تم في حالة ثورة الانفعال . وعضوا المجلس التشريعي أو النيابي قد يطالب بإباحة المراهنات على الخيول بدعوى أن لدى الإنسان غريزة تدفعه إلى المقامرة ، غريزة لا يمكن أن نقتلعها منها فعلنا . ورجال السياسة والدولة عندما يتناولون التوترات الدولية قد يطلقون افتراضات كثيرة تتصل بالدوافع ، كأن يقولوا إن الحرب لا يمكن تجنبها لأن لدى الإنسان غريزة التدمير ، أو إن الناس لن يترددوا في تفضيل الحرية إن ترك لهم حق الاختيار . وهذه الافتراضات قد تكون صحيحة أو غير صحيحة .

لقد ظل الفلاسفة والمشتغلون باللاهوت عدة قرون يتجادلون في طبيعة الإنسان . وكثيراً ما كانوا يثيرون الأسئلة ويستخرجون النتائج عن الدافعية وهم في غمرة هذا الجدل . من ذلك ، مثلاً ، أن فيلسوف القرن السابع عشر الإنجليزي توماس هوبز Thomas Hobbes ذهب إلى أن الإنسان في جوهره أناني ، سيميل إلى التدمير ، والوحشية . ثم استنتج من هذا أنه لا بد ، لكي نمنع الفوضى والاضطراب ، من أن يستسلم كل فرد لقوة سلطان مطلق . وفي هذا القرن نفسه ، نجد جون لوك John Locke ، أحد الداعين بقوة إلى الحكومات البرلمانية يكتب قائلاً إن الطبيعة الأصلية للإنسان هي المسالمة ، والنوايا الطيبة ، والميل إلى التعاون مع الغير .

من هنا يتضح ، إذن ، أن تصوراتنا عن الدافعية عند الإنسان لها تأثير عام شامل على حياتنا . إن المسألة هي إلى أي حد هذه التصورات دقيقة؟ لقد كان كل من هوبز ولوك يدافعان بجرارة وإقناع عن مواقفهما ، على الرغم من أن المرء يميل إلى الظن بأن معتقداتهما السياسية هي التي أملت عليهما آراءهما عن طبيعة الإنسان . ترى أي واحد منهما صاحب الرأي الصحيح؟ قد يتوقف الجواب بالنسبة لكثير من الناس على

اقتناعه الشخصى . أو خبرته الخاصة . أو على المنطق وقوة الحجة ، أو على غالبية الأصوات . ولكن هذه كلها ليست بأساليب علمية .

وإنما يقوم المنهج العلمى على صياغة فروض نظرية واضحة ، ثم نقوم باختبار صحتها بالملاحظة المنضبطة الدقيقة . وقد بدأت حديثاً الدراسة العلمية للدوافع والانفعالات عند الإنسان . وسوف نصف فى هذا الكتاب بعض المناهج والنتائج التى توصل إليها علماء النفس ممن درسوا الدافعية دراسة علمية . على أن الحقائق المنعزلة تكون قليلة الأهمية إذا لم ترتبط وتتكامل فى تصور نظرى شامل . كما أن ميدان الدراسة حديث جداً حتى إنك لا تجد إطاراً نظرياً ينعقد عليه الإجماع فى الدافعية . وإنما نجد . بدلاً من ذلك . عدداً من التصورات المتنافسة التى ورثناها عن الفلسفة أو استعرتها من علوم الحياة . والآن سوف نصف هذه التصورات الرئيسية ، ثم نشير ونحيل إليها بعد ذلك كلما مضينا فى الكتاب .

النظريات المعرفية

أقدم الآراء عن الإنسان أنه كائن عاقل فى جوهره ، وأن له رغبات شعورية ، وأنه يستخدم قدراته فى إشباعها . كانت هذه هى الفكرة الأساسية عند الفلاسفة القدماء من أمثال أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle ، وعند فلاسفة العصور الوسطى من أمثال القديس توماس الأكوينى St. Thomas/Aquinas ، وعند المفكرين الأكثر حداثة ومنهم ديكارت Descartes وهوبز وسبينوزا Spinoza . وهذا هو كذلك الرأى الذى تجده عند رجل الشارع العادى . فالمرء يفكر فيها هو بحاجة إليه ، ثم يحاول أن يجد الوسائل للحصول عليه .

وقد لعبت فكرة إرادة الإنسان ، فى هذه النظريات دوراً كبيراً . كانت الإرادة تعد واحدة من « ملكات » العقل شأنها شأن التفكير والشعور . ومادام الفرد يستطيع أن يتحكم فى إرادته ، فلا بد أن يكون مسئولاً عن أفعاله . والإنسان لا تتجاذبه من حوله قوى لا يملك السيطرة عليها . وإنما هو يستطيع أن يشكل العالم حتى يشبع رغباته ويحققها . وقد بلغ من أهمية القضية بالنسبة لمستقبل الإنسان عند الفيلسوف

أبيقور Epicurus إلى حد أنه نسب الحرية للذرات في المادة الجامدة حتى يمكن أن يعد الإنسان حراً كذلك .

لكن علماء النفس لم يجدوا لمفهوم الإرادة - الحرية أو غير الحرية - نفعاً كبيراً في تفسير ما يكون لدى الشخص من رغبات ومطالب معينة . لذلك ، اتجه البحث عن مصادر الدوافع إلى التراث البيولوجي للإنسان وإلى خبراته السابقة في الحياة الاجتماعية . بل إن المرء قد لا يكون على دراية أو وعى بالدوافع التي تؤثر في سلوكه . ولذلك ، كانت الدوافع تُمَيِّز عادة عن التفكير والعمليات المعرفية الأخرى .

ومع ذلك ، لا يزال نفر من علماء النفس اليوم يحتفظون بقوة بوجهة نظر معرفية في أساسها في مسألة الدافعية . ولعل أحسن مثال على هؤلاء هو جورج كيلي George A. Kelly الذي لا يكاد يكون لمصطلح الدافعية وجود عنده . فهو لا يؤمن بأن السلوك أمر في حاجة إلى ما يدفعه أو يحركه ، وإنما يؤمن بأن السلوك نشط على الدوام ، وأن المشكلة الرئيسية تتركز في اختيار البدائل . والقرار الذي يتوصل إليه الإنسان إنما يتوقف على تكويناته الشخصية - من أفكار ، وقيم ، واتجاهات نحو العالم . وهكذا تجد أن الإنسان في كثير من البلاد المتخلفة من العالم تكون تكويناته الشخصية من النوع الذي يجعله يقرر الاختيار بين الرأسمالية المستغلة أو الشيوعية . ويقول كيلي : إنك قد تجد طائفة أخرى من التكوينات الشخصية لدى الفرد بحيث يصبح عليه أن يقرر الاختيار بين الاستبدادية أو الديمقراطية بالمعنى الواسع لهذين المصطلحين .

على أن كثيراً من علماء النفس يرون أن هذه النظرية المعرفية ، ولو أنها تزودنا بتحليل دقيق لعملية التوصل إلى قرار ، إلا أنها لا توضح لنا شيئاً من المتغيرات الدافعية . وأن وراء الاختيار بين نظام سياسي ونظام سياسي آخر تكن رغبات الناس في الطعام ، والأمن ، وتقدير الذات . صحيح أن التكوينات الشخصية للإنسان تحدد بلا شك السبل التي يسلكها بحثاً عن هذه الأهداف ، ولكن التحليل المعرفي

لا يتعارض بالضرورة مع الرأي القائل بأن لدى الإنسان دوافع أساسية يسعى إلى إشباعها .

النظريات القائمة على مبدأ اللذة

من بين التفكير الفلسفي الذي انصب على عقل الإنسان وإرادته نجد فكرة ثانية - مؤداها أن الإنسان يسعى إلى تحصيل اللذة وتجنب الألم . وهذه الفكرة ، التي تسمى مذهب اللذة ، عبارة عن محاولة لتفسير السبب في أن الناس يسلكون كما نراهم يسلكون . ولا ينبغي أن نخلط بينها وبين مذهب اللذة بوصفه نظاماً خلقياً ينبغي للفرد فيه أن يبنى حياته بإرادته على السعي إلى اللذة وتجنب الألم . ونظرية اللذة في الدوافع وإن كان يمكن تتبعها عند الفلاسفة الأقدمين ، إلا أنها كانت أبرز وأظهر ما تكون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وقد رفض علماء النفس نظرية اللذة ، كما رفضوا أغلب النظريات الفلسفية العقلانية . فعلماء النفس لم يكونوا راضين عن كون نظرية اللذة تقتضي معرفة خاصة بخبرات الشخص . فإذا لدينا من معرفة عما لدى الشخص الآخر من إحساسات داخلية باللذة؟ إن ما يستمتع به فرد من الناس قد يؤدي فرداً آخر غيره . ثم إنهم يرفضون هذه النظرية لسبب آخر هو أنها تدور بنا في حلقة مفرغة . تقول النظرية إن الإنسان يسعى إلى تحصيل اللذة ، وإذا كان يسعى إلى شيء ما ، إذن ، لابد أن هذا الشيء لذيد . فإذا نقول عن الرجل الذي نراه يسعى إلى الفشل؟ وماذا نقول عن الانتحار؟ كما أن هناك أناساً نراهم يرفضون أن يجعلوا من السعي إلى تحصيل اللذة مبدأ لهم في الحياة . خذ لذلك ، مثلاً ، جماعة المتطهرين The Puritans الذين كانوا يرون في اللذة خطيئة ينبغي تجنبها . قد تقول ، طبعاً ، إن المتطهرين كانوا يجدون اللذة في التعفف والامتناع ، ولكننا بمثل هذا الجدل إنما نفسر السلوك بعد وقوعه فقط ، ويترتب على ذلك أن تفقد نظرية اللذة كل قدرة على التنبؤ .

ومع ذلك ، فقد وجدنا نظرية اللذة تعود إلى الحياة في السنوات الأخيرة . إذ

وجدنا بعض علماء النفس من أمثال بول ت . يونج Paul T. Young ،
ودافيد ك . ماكيلاند David C. McClelland يقدمون لنا صورة
أكثر رقياً وتعقيداً من نظرية اللذة . وهم لا يعتمدون على التقارير الذاتية الصادرة
عن الشخص عن اللذة والألم ، وإنما يلجأون إلى مقاييس موضوعية لسلوك
الاقتراب والتجنب . أى أنهم أصحاب نظرية تجريبية في اللذة . وسوف نرى فيما
بعد أن هناك عدة أدلة على وجود عمليات فيسيولوجية فطرية خاصة باللذة والألم .

أما نظرية اللذة عند ماكيلاند فإنها تستخدم نموذج الإثارة الوجدانية ، بمعنى
أن هناك مثيرات بيئية معينة من شأنها أن تستثير بالفطرة حالة من اللذة أو الألم ، وأن
لدى الإنسان بفطرته ميلاً إلى السعى نحو هذه المثيرات أو إلى تجنبها . وتتوقف درجة
الشعور باللذة أو الألم (أو الانفعال) على التكيف السابق للشخص . ومثال ذلك أن
الصوت القوي الشديد قد يكون مزعجاً للفرد في الظروف السوية ، لا بعد أن يكون
قد قضى عدة ساعات في مطار يعج بالطائرات النفاثة . فالفروق الطفيفة عن مستوى
التكيف تكون مثيرة للذة ، بينما تكون الفروق الكبيرة منفرة . ولعل هذا يعيننا على
تفسير كيف أن الشخص يجد اللذة أحياناً من الدغدغة الصادرة عن تيار كهربى
طفيف جداً ، ولكنه ينفر ويحفل منه إذا اشتد .

والدافعية ، عند ماكيلاند ، تتألف من توقعات نتعلمها بأن هذا الهدف سوف
يستثير استجابات (أرجاعاً) انفعالية إيجابية أو سلبية . وهكذا نجد أن الإنسان يسعى
نحو الأهداف الذى سبق له أن عرف أنها تثير اللذة ، ويتجنب ما سبق له أن وجده
مؤلماً ، وبهذا المعنى يقول ماكيلاند : إن كل الدوافع متعلمة . فالاستثارة الوجدانية
فطرية ، ولكن التوقع مكتسب . وبهذا الشكل يبدو أن من الممكن تحوير مفهوم
اللذة إلى نظرية علمية مفيدة .

نظريات الغرائز

البداية الحقة للنظريات العلمية في الدافعية نجدها في نظرية تشارلز داروين
Charles Darwin . فقد رأى داروين أن بعض الأفعال « الذكوية »

المعينة موروثية . وأبسط أنواع هذه الأفعال هي الأفعال المنعكسة ، مثل منعكس المص الذي نجده عند الصغار . لكن هناك أنواعاً أخرى أكثر تعقيداً ، مثل ميل الطيور إلى تجنب الإنسان مع أنه لم تسبق لها خبرة به . وهذه الأفعال التي هي أكثر تعقيداً تسمى بالغرائز ، وهي فكرة يمكن أن نتبعها إلى قديم الزمان . وقد رأى داروين أن الغرائز تنشأ عن طريق الاختيار الطبيعي . كما أن الغرائز تعد عادة أكثر مرونة من الأفعال المنعكسة ، وأنها لذلك تسمح بسلوك أكثر تغيراً .

وعند بداية هذا القرن أخذ بعض أصحاب النظريات من أمثال وليام جيمس William James ، وسيجموند فرويد Sigmund Freud

ووليام ماك دوجال William MC Dougall يجعلون من فكرة الغريزة مفهوماً تفسيرياً هاماً في علم النفس . وإذا كان بعض المؤلفين قد رأوا أن الغرائز أقرب إلى أن تكون ميكانيكية عمياء ، إلا أن ماك دوجال ، أكثر أصحاب هذه النظريات منهجية ، كان يرى أن الغرائز ميول تتصف بالفرضية ، وأنها متوارثة ، وأنها تسعى إلى أهداف . ومن أقواله : « نستطيع ، إذن ، أن نعرف الغريزة بأنها استعداد نفسي جسمي موروث أو فطري يجعل صاحبه يدرك بعض الأشياء المعينة أو يلتفت إليها ، ثم يجبر عند إدراكه لها نوعاً معيناً من الاستثارة الانفعالية ، ثم يسلك بإزائها على نحو معين ، أو يجبر في نفسه على الأقل نزعة تدعوه إلى أن يسلك كذلك ' ' » .

ومن الواضح أن كثيراً من الأفعال لدى كثير من الفصائل الحيوانية يمكن أن تعد غريزية . ولكن ، لما كان هدف العلم التبسيط ، فقد استهدفت الجهود البحث عن عدد محدود من الغرائز الأساسية التي يمكن أن تفسر كل السلوك . أما بعض أصحاب النظريات فقد ركزوا أكبر الاهتمام على غريزة واحدة أو غريزتين ، وذلك كما فعل فرويد حين أكد الغريزة الجنسية وغريزة العدوان . وأما ماك دوجال فكان أقرب إلى الاتجاه العام حين افترض وجود عدد قليل من الغرائز . وقد اشتملت قائمته التي أوردها سنة ١٩٠٨ على : الهرب ، والنفور ، وحب الاستطلاع ، والمقاتلة ،

* W. MC Dougall, An Introduction to Social Psychology.
New york: Barnes and Noble. 1960 (Original, 1908).

وتحقير الذات ، وتأکید الذات ، والوالدية ، والتناسلية ، والجوع . والتجمع .
والامتلاك ، والبناء .

وقد سادت فكرة الغرائز في علم النفس خلال الربع الأول من القرن الحالى .
ثم أخذت تواجه الصعوبات . أولى هذه الصعوبات أن قائمة الغرائز جنحت بشكل
مزعج إلى النمو والازدياد ، إذ كان كل مؤلف يضيف عدداً منها ، حتى وصل
طول القائمة فى العشرينيات إلى ما يقرب من ستة آلاف غريزة ، من بينها « غريزة
لدى الإنسان تجعله يتجنب أن يأكل الفاكهة من بستانه هو » . وفى العشرينيات
وجدنا جون واطسن John Watson وغيره من أعضاء المدرسة الفكرية
السلوكية ، ومعهم عدد كبير من المشتغلين بالأنثروبولوجيا الحضارية ، يبدأون
هجوماً على نظرية الغرائز ، ويحاولون تفسير أكبر قدر ممكن من السلوك على أساس
من التعلم ، بل ويتحدثون عن « علم النفس بدون وراثة » .

وعلى الرغم من أن نظرية الغرائز بدت وكأنها تموت موتاً بطيئاً ، إلا أنه لم يتم
التخلي عنها تماماً ، وأنها عادت إلى الحياة على يد بعض علماء الأخلاق الاجتماعية
الأوروبيين من أمثال نيقولاس تنبرجن Nikolaas Tinbergen وبعض
المشتغلين بعلم النفس المقارن من الأمريكيين من أمثال فرانك بيتش Frank
Beach وقد أكد هؤلاء العلماء الأوصاف المفصلة للسلوك الغريزى ، وخصوصاً
عند الكائنات الحية الدنيا . وهكذا انتقلوا من التفكير النظرى الخامل فى الغرائز إلى
التجريب فى المختبرات . كما أن دراساتهم تربط كذلك بين السلوك الغريزى وما يمكن
وراءه من عمليات أو ميكانيزمات فسيولوجية .

ومن الأمثلة على هذه الدراسة الجديدة للغرائز اكتشاف ظاهرة الانطباع .
فلعلك شاهدت البطة الأم تسبح فى بركة ومن ورائها صف من صغار البط يتبعها .
مثل هذا السلوك نمط غريزى عند الطيور . ولكنه لا ينشأ إلا فى ظروف خاصة
فقط . ذلك أن هناك فترة حرجة تتكون من عدة أيام من بعد الفقس والخروج من
البيضة يمكن لصغار البط فيها أن يصبح مرتبطاً بأى واحد من عدة موضوعات
مثيرة . هذا الموضوع المثير يكون فى العادة هو البطة الأم ، ولكن البطة الصغيرة قد

تصبح مرتبطة كذلك بدجاجة . أو قارب . أو إنسان تصدر عنه أصوات البط . ولعلك تذكر . في هذا الصدد . قصة البطة الصغيرة القبيحة^(١) . ولكننا نجد أنه بعد أن يتم التعلق أو الارتباط . يصبح الشيء الذي تتعقبه البطة الصغيرة منطبعاً ثابتاً لا يقبل التغير . فالبطة الصغيرة القبيحة لم يكن بإمكانها . في واقع الأمر . الرجوع إلى أمها البجعة الجميلة .

نظريات الباعث

إن أبرز مفهوم في مجال الدافعية اليوم هو مفهوم الباعث . وقد أورد هذا المفهوم العالم روبرت . س . وودورث Robert S. Woodworth في سنة ١٩١٨ ليصف « الطاقة » التي تضطر الكائن العضوى إلى الحركة وذلك في مقابل العادات التي توجه السلوك في هذا الاتجاه أو ذاك . وعلى الرغم من أن وودورث كان يعنى بالمصطلح ذلك المخزن العام من الطاقة ، إلا أن الناس سرعان ما بدأوا يتحدثون لا عن الباعث ، ولكن عن عدة « بواعث » مختلفة ، من قبيل الجوع والجنس والعطش . وما إلى ذلك . وكانوا يقصدون بذلك الميل للتوجه نحو أهداف معينة أو للابتعاد عنها . وبذلك أصبحت فكرة البواعث تشبه من عدة وجوه فكرة الغرائز . معظم علماء النفس كانوا مع ذلك أكثر تقبلاً لنظرية الباعث .

من أسباب ذلك أن البواعث تم التوصل إليها واحداً واحداً . وعلى أساس هذه التجارب المدققة ، كما أعطيت تعريفات إجرائية محددة . والتعريف الإجرائي للباعث هو التحديد الدقيق للظروف التي يمكن أن يقال فيها بوجود الباعث وللوسائل التي تستخدم في قياسه . وهكذا قد نتمكن من قياس الباعث بعدد ساعات الحرمان من الطعام ، أو بدرجة تركيز الهورمونات الجنسية في الدم ، أو بمدى شدة الصدمة الكهربائية . وخفض الباعث يمكن تحديده أو تعريفه بإجراءات

(١) قصة البطة القبيحة The Ugly Duckling هي إحدى قصص هانز كريستيان أندرسون Hans Christian Anderson وتذكر القصة أن بطة صغيرة فقدت أمها فتبعت بطة كبيرة بدلاً من أمها الحقيقية البجعة . وارتبطت بها كما يرتبط صغار البط بأمهم (المترجم) .

من قبيل إشباع الجوع بالطعام ، أو الإثبات الجنسي ، أو انتهاء الصدمة .

وقد أعان كثيراً على تقدم المنطق الذى تقوم عليه نظرية الباعث ، مفهوم الاتزان الحيوى (أو الهوميوستاز) التى أتى بها عالم الفسيولوجيا المسمى والتر ب . كانون Walter B. Cannon فى سنة ١٩٣٢ . ومؤدى هذا المفهوم أن حالة من عدم الاتزان تنشأ فى الجسم كلما انحرفت الظروف الداخلية عن حالة ثابتة سوية . والبواعث النفسية (السيكولوجية) هى وسيلة يحاول بها الجسم استعادة اتزانه . ولذلك ، فإن محزون الغذاء حين ينضب من الجسم ، ينشط باعث الجوع ، ويبدأ البحث عن الطعام واستهلاكه ، وبذلك تتم استعادة الاتزان . وهكذا أصبحت الدافعية تعرف بأنها البواعث الناشئة عن اختلال الاتزان الحيوى أو توتره .

وقد كان لفكرة الباعث الهوميوستازى تأثيرها العظيم فى مجال التعلم . من ذلك ، مثلاً ، أن كلارك هل Clark L. Hull المنظر فى التعلم ذهب فى سنة ١٩٤٣ إلى أن كل السلوك تحركه بواعث هوميوستازية أو بواعث ثانوية تقوم عليها . وحالات البواعث الداخلية يمكن تحقيقها عن طريق حرمان الحيوان من الطعام أو الماء أو الخبرة الجنسية . وحالات البواعث هذه إنما تعكس اختلالاً فى الاتزان الحيوى (الهوميوستازى) ، أو توترات داخلية .

وكذلك ذهب «هل» إلى أن كل أنواع الإثابة تقوم فى آخر الأمر على خفض لواحد من البواعث الأولية الهوميوستازية . والإثابة بتقديم الطعام تخفض من اختلال الاتزان الهوميوستازى الذى يحدثه الجوع . والإنسان ، أو حيوان المختبر ، يمكنه أن يتعلم استجابة ما من أجل أن يحصل على الإثابة (أو المكافأة) . والأنواع الثانوية من الإثابة ، من قبيل الاستحسان الاجتماعى ، إنما تحدث مفعولها لأنها ارتبطت من قبل ذلك فى الماضى بالطعام ونحوه من الأنواع الأولية من الإثابة .

وحديثاً أنصب قدر كبير من الاهتمام على المصادر الخارجية للدافعية ، وذلك فى مقابل العوامل المسببة الهوميوستازية الداخلية . مثال ذلك أن الشيء المستهدف نفسه قد يستثير الدافعية بالإضافة إلى كونه إثابة على نوع من التعلم . فالإنسان قد لا يشعر

شعوراً متميزاً بالجوع إلا بعد أن يشم العبير الشهى الصادر عن دجاجة يتم شواؤها على النار . ويقال إن رائحة الطعام ، أو منظره أو طعمه تعمل بوصفها حافزاً . وفي المواقف الاجتماعية بصفة خاصة يكون التأثير الدافعي للهدف في كثير من الأحيان أكثر وضوحاً من تأثير العوامل الداخلية . فالدافعية تستثيرها الحوافز المالية ، ورؤية الفتاة الجميلة ، والإعلان التليفزيوني .

وعلى الرغم من أن نظرية الباعث لاتزال تمثل ، في هذه الصورة منها أو تلك ، حجر الزاوية في التفكير الحديث عن الدافعية . إلا أن كثيراً من علماء النفس يرون فيها أوجه قصور ونقص . وقد تركز الجدل والخلاف حول ثلاثة أسئلة رئيسية : هل البواعث الأولية مرادفة للحاجة الفسيولوجية الداخلية ؟ هل كل الحوافز والإثابات تتوقف على التوتر الهوميوستازي وتخفف هذا التوتر ؟ هل كل الدوافع الاجتماعية تقوم وترتكز على بواعث فسيولوجية أولية من قبيل الجوع والجنس والألم ؟ هذه الأسئلة وغيرها سوف تكون موضعاً لدراستنا في الفصول التالية .

تعريف للدافعية

من الواضح أن أصحاب النظريات يختلفون فيما بينهم في تصوراتهم عن الدافعية . ولكن هناك مع ذلك اتفاقاً عاماً على أن الدافع عبارة عن عامل داخلي يستثير سلوك الإنسان ، ويوجهه ، ويحقق فيه التكامل . ونحن لا نملك أن نلاحظه ملاحظة مباشرة ، وإنما نستنتجه من سلوكه أو نفترض وجوده حتى يمكننا تفسير سلوكه . ثم إن الدافعية تتميز عن بعض العوامل الأخرى التي تؤثر كذلك في السلوك ، مثل الخبرات السابقة للشخص ، وقدراته الجسمية ، والموقف البيئي الذي يجد نفسه فيه ، ولو أن هذه العوامل الأخرى قد تؤثر في الدافعية .

والدافع يتم تقسيمه أو تحليله إلى عنصرين اثنين هامين . ذلك أن مصطلح الدافع يشير ، أولاً ، إلى العملية الداخلية التي تضطر الشخص إلى الفعل . والدافع قد يتأثر بالبيئة الخارجية - بدرجة الحرارة مثلاً - ولكن الدافع ذاته داخلي . ثم إننا نجد ، ثانياً ، أن الدافع قد ينتهي بالوصول إلى هدف ، أو الحصول على إجابة .

ونحن نفترض أن الهدف أو الإثابة تحدث شيئاً من الإشباع أو الخفض على هذا الإلحاح الداخلي ، بحيث أننا نجد ، بعد بلوغ الهدف أو الحصول على الإثابة الكافية ، أن الدافع يتوقف عن توجيه السلوك فترة من الوقت . إن الهدف أو الإثابة قد يتضمن شيئاً خارجياً مثل الطعام ، ولكن عملية انتهاء الدافع ذاتها مسألة داخلية .

على أن بعض علماء النفس يضيفون إلى ذلك أن الدافعية تتضمن بالإضافة إلى ذلك رغبة شعورية في شيء من الأشياء . وهذا هو ما يسمى أحياناً مطلباً . والرغبة أو المطلب تكون مرتبطة بوظيفة للدوافع هي أنها تحدد اختبار الهدف . ولكننا نجد مع ذلك أن علماء النفس الآخرين يرون أن الرغبة أو المطلب أمر موهل في الذاتية بحيث تنعدم قيمته العلمية . وهم يؤثرون أن ينظروا إلى التقرير اللفظي الذي يقدمه الشخص عن مشاعره الداخلية على أنه جانب من السلوك الذي يتأثر بذلك الدافع الذي نستدل عليه .

الفصل الثاني

الدافعية والسلوك

الإنسان في كل لحظة وفي كل وقت تدفعه عوامل شتى داخلية وخارجية . ومن شأن هذه الدوافع بقوتها وأنماطها أن تؤثر في إدراكنا للعالم من حولنا . وفيما نفكر فيه من الأشياء ، وفيما ننغمس فيه من الأفعال . تخيل طالبا يسير في الطريق معرضا لكل أنواع المشاهد والأصوات . إنه لا يستطيع أن ينتبه إلى كل هذه المثيرات . وإنما هو يستجيب لعدد محدود منها فقط . وقد تستثير بعض المثيرات غير العادية حب الاستطلاع عنده - كأن يتوقف ليشهد بناء يقوم العمال بهدمه . وحب الاستطلاع قد لا يكون الدافع الوحيد . وإنما قد يكون الطالب قضى يوماً عصيباً شاقاً ، ولذلك تراه يتأخر ليستمتع بما يشهد من هدم وتدمير . وقد تمر بذهنه أفكار خاطفة من نوع تدميري مشابه نحو أستاذه . أو صديقه . أو نحو المجتمع بصفة عامة .

ثم يستأنف الطالب أخيراً سيره . فيلاحظ مطعماً ويتبين أنه جائع . وقد يتعجب من أنه كثيراً ما مر بهذا المطعم من غير أن يلتفت إليه أو يدرك وجوده - فإنه لم يكن جائعاً في المرات السابقة . وبينما هو يوجه طلباته إلى الفتاة العاملة بالمطعم نجد نفسه يغازلها . وهو يستمتع بذلك ، ولكنها هي متعبة تشكو صداً . ولذلك فإنها تراه بغضباً مزعجاً . ولكنها مع ذلك ، ولحاجتها إلى (البقشيش) تسايه وتتحمل دعايته .

بعد ذلك وهو يستذكر دروسه في غرفته تراه يركز فكره على تعلم الرياضيات . أو البيولوجيا ، أو اللغة . ثم يدركه التعب فيحضر نفسه بالتفكير في التقديرات التي

لا بد له من الحصول عليها لكي يستطيع الالتحاق بكلية مرموقة . وهو قد يتوقف ليفكر في والديه ويسأل نفسه إن كانا يدركان مدى الجهد الذى يبذله حتى يحرز النجاح الذى يتوقعان . وأخيراً بعد أن ينام تجده يحلم حلمًا مضطربًا يرى فيه أستاذه - وعلى ملامحه نظرات الريبة والتشكك مثل الأب - يصادفحه في حزن وهو يعيد إليه ورقة الإجابة . كما يرى فيه الفتاة عاملة المطعم وهى توجه إليه نظرات خبيثة ، ثم يرى نفسه فى الحلم وهو يدير جهازًا يهدم به مباني يبدو أنها من نوع المباني الأكاديمية .

فى هذا المثال يمكننا أن نرى تأثير دوافع الفضول ، والعدوان ، والجوع ، والجنس ، والتعب ، والألم ، والإنجاز ، والحب على كل من الإدراك ، والتفكير ، والعمل ، والكلام ، والتعلم . والأحلام . فالدوافع تتذبذب وترتب نفسها فى أنماط مختلفة فى الأوقات المختلفة . وهناك بعض الدوافع تجدها تؤدى عملها على الدوام عند الشخص بحيث تجد سلوكه واقعًا تحت سيطرتها إلى حد كبير . وتأثير هذه الدوافع يمكن أن يتضح من تجارب المختبر التى نقوم فيها بضبط الدوافع ضبطًا دقيقًا . والتى تزودنا بمقاييس موضوعية للسلوك . والآن ندرس الوسائل التى استخدمها علماء النفس لدراسة آثار الدافعية على الوظائف السيكلوجية المختلفة .

قياس الدافعية

كيف نتعرف على أن رجلاً من الناس عنده دافع يدفعه ، وكيف يمكننا تحديد نوع الدافع ؟ وكيف نقيس هذا الدافع ؟ هناك وسيلتان لذلك - أن نقيس بعض الظروف الخارجية المعينة التى نظن أنها تولد الدافع ، أو أن نقيس بعض جوانب السلوك عند الشخص ، تلك الجوانب التى تعكس ما لديه من دوافع ^(١) .

(١) يستخدم المؤلف أحياناً اصطلاح « الباعث » drive للباعث الفسيولوجية ، واصطلاح « الدافع » motive للدوافع السيكلوجية والاجتماعية . غير أنه فى كثير من الأحيان يستخدم الاصطلاحين باعتبارهما مرادفين ، فيقول دوافع فسيولوجية ، وبواعث سيكلوجية واجتماعية . ولذلك رأينا أن نوحّد المصطلح فى الترجمة العربية ، واستخدمنا مصطلح « الدافع » بالنسبة لكل »

أما استخدام ظروف الدافع الخارجية لقياس الدافعية فأكثر ما يكون في المختبر . من ذلك أننا نقيس الجوع عادة بعدد الساعات التي تم خلالها حرمان المفحوص من الطعام . كذلك يمكن قياس الجوع عن طريق النسبة المئوية لما تم فقدانه من وزن الجسم ، أو عن طريق عدد السعرات الحرارية التي تم استهلاكها في فترة زمنية معينة ، أو بغير ذلك من الوسائل . وأما الألم فكثيراً ما نقيسه عن طريق قوة الصدمة الكهربائية التي توجه إلى الحيوان في المختبر . ودافع الإنجاز يمكن استثارته عن طريق توجيه تعليمات إلى المفحوص بأن العمل المطلوب أدائه مقياس للذكاء . وعلى الجملة ، نقول : إن الحرمان ، والإثارة ، والتعليمات اللفظية هي الوسائل الأساسية للاستشارة التجريبية للدوافع .

ولكن هذه الوسائل أو الأحوال أو الظروف المستخدمة لإيجاد الدافع ليست مساوية تماماً للدافع . قد تؤدي هذه الوسائل إلى إيجاد الدافع في كثير من المرات . ولكنها لا تؤدي إلى إيجاد دافعاً دائماً . فعندما يمتنع الشخص عن تناول الطعام نهائياً لعدة أيام ، فإنه لا يشعر بالجوع . والتعليمات المتصلة بالعمل المطلوب قد تستثير الإنجاز في بعض الناس ، ولا تستثيره في بعضهم الآخر . ولذلك ، فلا بد من أن يكون هناك أثر معين على السلوك من قبل أن تتمكن من القول إن أحد الظروف التي من شأنها أن توجد الدافع قد أوجدته بالفعل .

إن من بين الآثار الرئيسية للدافع على السلوك أنه يحدد اختيار الأهداف . فلو أن حيوان المختبر رفع أنفه عن الطعام ثم جعل يشرب الماء ، قلنا إنه عطشان ولكنه غير جائع . وكذلك قد يستجيب بعض الناس للتعليمات الموجهة لاستثارة الإنجاز ، ويستجيب بعضهم الآخر للتعليمات الموجهة لاستثارة المودة ، فنقول عندئذ إن الجماعة الأولى يدفعهم الإنجاز ، والجماعة الثانية يدفعهم الانتماء . كما أن الإثابات تتوقف على الدافعية . فإن الحيوان قد يتعلم الجري في الممر ليصل إلى أنثى مستجيبة

= من الدوافع الفسولوجية والدوافع السيكلولوجية . إلا في بعض الحالات القليلة كما حدث في الفصل الأول من الكتاب حينما تكلم المؤلف عن نظريات الباحث (المترجم) .

متقبلة ، ولا يفعل ذلك من أجل الطعام . والنجمة الذهبية قد تكون إثابة فعالة بالنسبة لبعض الأطفال . ولا تكون كذلك بالنسبة للبعض الآخر . وعلى الجملة ، نقول إن وجود الدافع يستدل عليه من الأهداف التي يتخيرها الشخص ومن المكافآت التي تكون لها فاعليتها وأثرها .

كذلك قد يستدل على الدافعية من بعض الجوانب الأخرى للسلوك . فإن قوة الاستجابة ، وتكرارها ، وسرعتها قد تكون في بعض الأحيان مؤشراً للدافعية . كما أن غلبة فكرة معينة على أحاديث الشخص ، وخيالاته ، وأحلامه تشير إلى بعض الدوافع الكامنة عنده . فإن الشخص الذي لا يتحدث عن شيء ولا يفكر في شيء إلا في تحصيل المال يمكن أن يقال عنه إن دافعيته في هذا الاتجاه قوية . ولكن الاستدلال على الدافعية من السلوك أمر صعب ، وقد يكون مضللاً في بعض الأحيان . وذلك لأن السلوك لا تحدده الدافعية فقط ، وإنما تشترك في تحديده أيضاً عوامل أخرى مثل الموقف الراهن والخبرات السابقة . فقد يكون الشخص تعلم من سابق خبراته أن امتلاك المال وسيلة للحصول على التقدير . وعندئذ يكون الدافع لدى هذا الشخص ، في حقيقة الأمر ، هو الحصول على التقدير ، بينما يكون تحصيل المال مجرد وسيلة لتحقيق هذه الغاية . وكذلك ، قد يحصل الرجل على التقدير في أحد المواقف عن طريق التحدث عن المال ، ويكسبه في موقف آخر عن طريق التحدث عن الأنشطة الثقافية . ولذلك ، فإنه لا سبيل إلى الاستدلال الصحيح على دوافع الشخص من سلوكه إلا إذا عرفنا خبراته السابقة واستطعنا التحكم في الموقف الذي يجد نفسه فيه . وفيما يلي سوف نضرب الأمثلة التي توضح كيف أن الدافعية مرتبطة بأنواع مختلفة من السلوك يتم فيها ضبط تأثير الموقف الراهن والخبرات السابقة .

التعلم والأداء

ظل تأثير الدافعية على التعلم والأداء موضوع الاهتمام الرئيسي بالنسبة لعلماء النفس عدة سنوات . وقد ظلوا يبحثون بهذا الصدد عدداً من القضايا الأساسية

بالنسبة لكل أنواع السلوك . ونظرًا لأن للمشكلة تطبيقات واسعة ومترببات كثيرة ، فقد حاول المحربون تنقية العملية عن طريق استخدام حيوانات بسيطة جدًا - هي الفئران البيضاء عادة - وهي تتعلم استجابات بسيطة جدًا كذلك . والفكرة هنا هي أن من السهل علينا أن نفهم الطبيعة الأساسية لتأثير الدافعية على التعلم والأداء في هذا الموقف البسيط أولاً . ثم نقوم من بعد ذلك بتعميمه على السلوك الذى هو أكثر تعقيدًا .

والسؤال الأساسى هو : هل زيادة الدافع تؤدي إلى زيادة فى الاستجابات الهدفية الملائمة لهذا الدافع ؟ هل زيادة الجوع تؤدي إلى زيادة الأكل ؟ هل يزيد الاتصال الجنسى بازدياد الدافع الجنسى ؟ والواقع أن هذه العلاقة قد ثبتت وتأكدت بالنسبة لعدد من الدوافع .

ولما كانت الاستجابات الهدفية أقرب إلى أن تكون من نوع الاستجابات المنعكسة ، لذلك كان يصبح من العجيب جدًا ، فى الحقيقة ، أن نجد أنها لا تختلف بازدياد مستوى الدافع . ولعل السؤال ذا القدر الأكبر من الأهمية النظرية هو : هل ازدياد الدافع يسهل تعلم استجابة جديدة من أجل الحصول على الإثابة الملائمة ؟ وبعبارة أخرى . هل يتعلم الطالب الذى يكون لديه دافع أكثر مما يتعلم الطالب الذى لا يكون لديه دافع ؟ لقد أظهر عدد كبير من الدراسات التجريبية على الحيوانات ، والأطفال ، والراشدين أن كل أنواع الاستجابات التالية : الجرى فى المناهة ، والضغط على الرافعة ، والاستجابات اللفظية يتم تعلمها بمعدل أسرع عندما يزداد الدافع إلى مستويات معتدلة . وبالإضافة إلى ذلك نجد ، بعد أن تكون الاستجابة قد تم تعلمها ، أن أداء الاستجابة يتوقف على درجة شدة الدافع .

هل الدافعية من شأنها دائمًا أن تسهل التعلم والأداء ؟ إن قدرًا ملحوظًا من الأدلة التى تجمعت لدينا الآن تشير إلى أن ازدياد الدافع إلى نقطة معينة يسهل السلوك ، على حين أن الدرجات المتطرفة من الدافع قد تؤدي بالفعل إلى التدهور . وقد يكون هذا الأثر راجعًا إلى الإنهاك الجسمى ، أو إلى ظهور استجابات غير ملائمة ومتداخلة ، أو إلى حدوث حالة انفعالية .

على أن تحديد النقطة التي يبدأ عندها الدافع يتدخل في التعلم والأداء أو يعرقلها مسألة تتوقف على طبيعة العمل نفسه . فأمّا الأعمال البسيطة السهلة جداً فإنه يتم تسهيلها بأقوى الدوافع التي استخدمها المحربون ، على الرغم من أننا نتوقع ، عندما يصل مستوى الدافع إلى نقطة الإنهاك الفسيولوجي للحيوان ، أن تتدهور كل الأعمال حتى ما كان منها بسيطاً سهلاً . ثم إن الأعمال إذا ازدادت صعوبتها ، وجدنا المستوى المسهل أو الميسر للدافع ينخفض أكثر فأكثر وقد تمت صياغة هذه العلاقة منذ عدة سنوات على يد اثنين من الباحثين في علم النفس المقارن وعرفت باسم قانون يوركيس دودسن (The Yerkes-Dodson Law) . ولعله يمكن التعبير عنه ببساطة فيما يلي : يتناقص المستوى الأمثل للدافع إلى التعلم بازدياد مستوى صعوبة العمل .

وقد تم التحقق من صحة هذا القانون عدة مرات . ولعل من أحدث وأوضح الدراسات التي تثبت صحته تلك الدراسة التي قام بها عالم النفس الإنجليزي ب.ل. برودهيرست P.L. Broadhurst . فقد درب الفئران على أن تسبح من خلال متاهة مغمورة تحت الماء على شكل حرف Y . وكان على الفأر حين يصل إلى بداية نقطة التفرع أن يختار فيما بين باب مضىء إضاءة ساطعة يمكن المرور منه والخروج من الماء ، وباب آخر مظلم يظل مغلقاً فلا يمكن المرور من خلاله والنجاة من الماء . وكان من الممكن أن نجعل الاختيار أو التمييز سهلاً كل السهولة إذا نحن جعلنا الباب الصحيح مضئاً إضاءة شديدة بحيث يصبح شديد الاختلاف عن الباب غير الصحيح ، أو أن نجعله صعباً إذا نحن قاربنا بين البابين من حيث مستوى الإضاءة . وقد استخدم برودهيرست ثلاثة مستويات من صعوبة العمل . سهل ، ومتوسط أو معتدل ، ثم صعب .

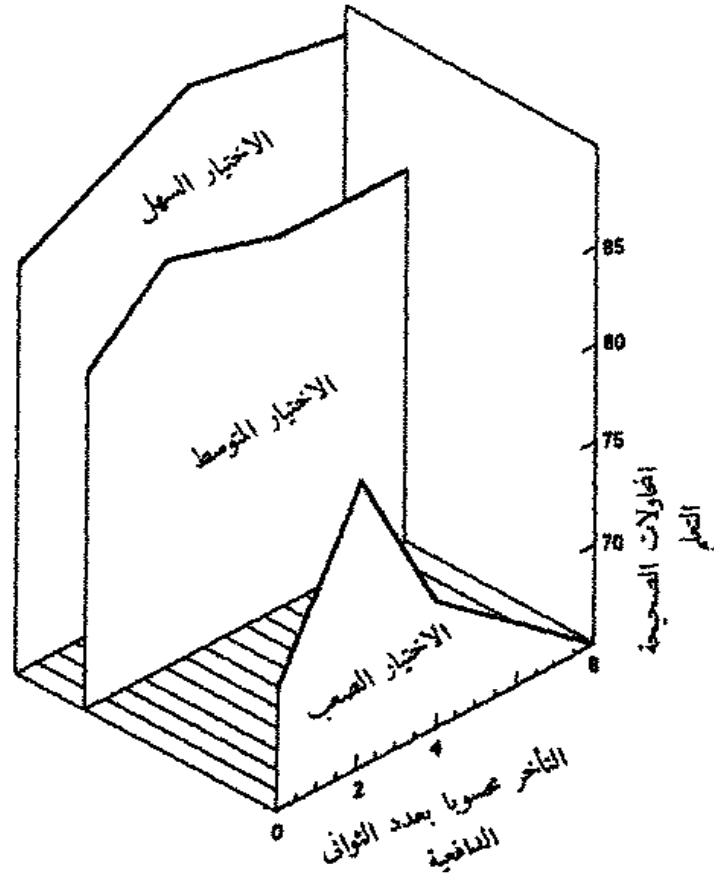
كذلك كانت الدافعية تتركز في الحاجة إلى الهواء بعد البقاء تحت الماء ، بمعنى أن مجموعات الفئران كانت تحتجز مغمورة تحت الماء لمدة متفاوتة مقدارها صفر ، أو ٢ ، أو ٤ ، أو ٨ ثوان من قبل أن يسمح لها بالعود من خلال المتاهة . وهكذا نجد أنه كانت هناك أربعة مستويات من الدافعية وثلاثة مستويات من صعوبة العمل . كما أن مقياس التعلم الذي استخدم كان عبارة عن عدد الاختيارات الصحيحة التي

تصدر عن الحيوان عند نقطة التفرع في المتاهة التي هي على شكل حرف Y .
ويوضح الشكل رقم (١) نتائج هذه الدراسة . ومنه نشهد أن المستوى
الأفضل أو الأمثل للدافعية يتفاوت بتفاوت صعوبة العمل . أما بالنسبة للعمل
السهل فقد كانت الدافعية على أفضل ما يمكن عند أربع ثوان من الحرمان من
الهواء ، مع شيء طفيف من التناقص من بعد ذلك . وأما المستوى الأفضل من
الحرمان بالنسبة للعمل الصعب فقد كان لمدة اثنتين مع تدهور ملحوظ شديد من بعد
هذه النقطة .

وقد تم التوصل إلى نتائج مماثلة إلى حد ما مع طلاب الجامعات عندما يقومون
بأعمال مشابهة للامتحانات . بمعنى أننا وجدنا أن الدرجة المتوسطة المعتدلة من التوتر
أو القلق قد تفيد ، ولكن الطالب إذا تزايد قلقه فإنه قد يعجز عن أن يصل إلى ذلك
المستوى من التعلم والأداء الذي تسمح به قدراته . وفضلاً عن ذلك ، وتمشيًا مع
قانون يوركييس - دودسن ، وجدنا أن الطلاب القلقين يتحسن أداؤهم في الأعمال
السهلة ، ويتدهور في الأعمال الصعبة . وعلى الجملة ، نقول إن الدافعية تيسر التعلم
والأداء إلى نقطة معينة فقط ، وأن موضع هذه النقطة يتوقف على طبيعة العمل .

فما سبق كنا نناقش جانب الدفع في العملية الدافعية . ولكن جانب المكافأة له
أهمية مماثلة أيضًا . فإن من الطبيعي أن عدد المرات التي يثاب الكائن العضوى فيها
على القيام بالاستجابة يحدد لنا قوة عادة القيام بهذه الاستجابة . فالإثابة أو المكافأة ،
إذن ، هي بالدرجة الأولى مشكلة تتعلق بالتعلم ، لا بالدافعية . لكننا مع ذلك نجد أن
طبيعة الإثابة ، لها فيما يبدو تأثير مباشر على الدافعية بأن تزيد أو تنقص من جاذبية
الهدف . ومثل هذا التأثير يعرف في بعض الأحيان بالقيمة الحافزة للإثابة .

من ذلك ، مثلاً ، أنه قد تبين أننا إذا كنا نعطي الحيوان عدة مئآت من أقراص
الطعام بعد كل مرة ينتهى فيها من قطع الممر جرياً ، فإنه يجرى أسرع مما لو أننا
أعطيناه عشرة أقراص فقط ، أو نحو ذلك . وكذلك نجد أن لمذاق الطعام أهميته .
فإن الحيوان يضغط على القضييب من أجل الحصول على طعام يحتوي على السكرين



شكل ١ - نموذج من أبعاد ثلاثة يوضح قانون يوركيس - رودسن . كانت الفئران تحرم من الهواء عن طريق حجزها تحت الماء لعدد متفاوت من الثواني ثم يسمح لها بعدئذ بالهرب عن طريق اختيار الباب الصحيح . وقد اتضح أن أنسب الدافعية للتعلم إنما تتوقف على درجة صعوبة عملية الاختيار .

(نقلا عن : P.L. Broadhurst. Emotionality and the Yerkes-Dodson Law. J.exp. Psychol., 1957, 54, 345-352.)

أضعاف المرات التي يضبط فيها على القضيبي للحصول على طعام عادي . كما أنه يضبط عدداً أقل من المرات لو أننا أضفنا إلى طعامه حامض الليمون . هذه الجوانب من الإثابة لها تأثيرها المباشر على الدافعية ، كما أن لقيمة الجائزة أو مكانتها تأثيراً مباشراً على مدى اهتمام الشخص بالعمل من أجل الحصول عليها .

الإدراك الحسى والانتباه

إدراك العالم الخارجى - من خلال حواس الرؤية والسمع والشم والتذوق ونحوها - يتوقف إلى حد كبير على طبيعة المثير المادى الذى نواجهه . لكن هناك ، مع ذلك ، عوامل أخرى تؤثر كذلك فى اختيار الإدراك لهذا المثير بالذات من بين كل المثيرات التى تواجه الفرد فى وقت معين ، كما تؤثر فى طريقة تفسير هذا المثير . هذه العوامل تتضمن الخبرة السابقة - وهل الفرد مهياً لهذه المثيرات أو متوقع لها - والدافعية .

وقد اتضح وتأكد دور الدافعية فى الانتباه والإدراك الحسى فى عدد كبير من التجارب . من ذلك ، مثلاً ، أن الجوع (أو العطش) المعتدل يؤدي إلى زيادة عدد الأشياء المرتبطة بالطعام أو الماء التى يراها الفرد فى الصور الغامضة التى تعرض عليه . ولعل المثال الصارخ هو أن الرجل العطشان فى الصحراء يبدأ يرى سراًباً من بحيرات باردة منعشة تظللها أشجار النخيل . وكذلك قد تؤثر الدوافع الاجتماعية المعقدة مثل الإنجاز والقيم الثقافية فى عملية الإدراك الحسى . ولكن الآثار تكون فى العادة معقدة وتصعب دراستها . ثم إن الجوع إذا كان يؤدي فى درجاته المتوسطة إلى تسهيل إدراك الأشياء المرتبطة بالطعام ، إلا أنه عندما يشتد ويقوى قد يؤدي إلى تأثير مضاد تماماً ، ولعل السبب عندئذ أننا نميل إلى تجنب رؤية ما لا نستطيع الحصول عليه . أضف إلى ذلك أن كثيراً من الدراسات الأولى لم تكن تلتفت إلى أثر التوقعات ، أو حالة التهيؤ عند الشخص . ذلك أن التعليمات التى توجه إلى الشخص قد تهيئه لأن يتوقع أو لا يتوقع الأشياء المتصلة بالدافعية عنده . بسبب هذه المشكلات لا يزال هناك قدر كبير من الخلاف والجدال حول التأثير الدقيق للدافعية على الإدراك الحسى .

وقد تمكن الباحثان ج . جيلكرست J. C. Gilchrist ول . س . نسبرج L.S. Nesberg ، فى واحدة من أكثر الدراسات انضباطاً فى هذا المجال ، من أن يقدموا الدليل المقنع جداً على تأثير الدافعية على الإدراك الحسى . طلب هذان

الباحثان من طلاب الجامعة أن يمتنعوا عن الطعام لمدة عشرين ساعة . ثم طلبا من الطلاب عندئذ أن يصدروا أحكاماً إدراكية بعد تناول وجبة الغذاء مباشرة ، وبعد انقضاء الموعد الذى كان من المفروض أن يتناولوا فيه العشاء ، وبعد انقضاء الموعد الذى كان من المفروض أن يتناولوا فيه وجبة الإفطار فى صباح اليوم التالى . وكان الاختبار الإدراكى يتألف من مضاهاة درجة نصوع شرائح ملونة تحتوى على صور للدجاج المشوى واللحم المحمر ونحو ذلك . وكانت كل شريحة تعرض أولاً بدرجة نصوع قياسية أو موحدة ثابتة ، ويطلب من الطلاب أن يدرسوها . ثم تنقضى بضعة ثوانٍ قليلة . وتعرض الشريحة مرة أخرى بدرجة أعلى أو أدنى من النصوع ، ويكلف الطلاب أن يديروا مقبضاً ليعدلوا درجة النصوع حتى تماثل درجة النصوع التى عرضت بها الشريحة فى أول مرة . وقد تبين وجود خطأ منتظم ، على الرغم من أن الطلاب كانوا يحسبون أنهم يصدرون أحكاماً دقيقة . فقد كانوا يزيدون من درجة نصوع صور الطعام كلما اشتد عندهم الجوع ، على حين أن أفراد المجموعة الضابطة ، الذين لم يتعرضوا للحرمان من الطعام ، لم يظهر عندهم هذا التغير المتزايد . كذلك أوضح الباحثان أن الأفراد الذين حرموا من الماء وتعرضوا للعطش يجعلون صور الماء الثلج وعصير البرتقال والسوائل الأخرى تزداد نصوعاً كلما زاد عطشهم .

وأخيراً أثبت جيلكرست ونسبرج أن هذه النتائج لم تكن راجعة إلى تأثير الدافعية على الإيصار بصفة عامة ، وإنما كان تأثير الدافعية يقتصر على الإدراكات الحسية المتصلة بالدافع . فقد طلب من مجموعة من الأفراد الذين تعرضوا للعطش أن يعدلوا درجة نصوع صور محايدة (مثل الجبال والأشجار) بالإضافة إلى صور الماء الثلج وعصير البرتقال . وتبين النتائج أن مستويات نصوع الأشياء المتصلة بالعطش كانت أعلى بصورة متزايدة من مستويات نصوع المشاهد المحايدة . وفضلاً عن ذلك ، تبين أنه بعد تقديم ماء الشرب لهؤلاء الأفراد ، انخفض مستوى نصوع صور الأشياء المتصلة بالعطش انخفاضاً ملحوظاً ، بينما انخفض مستوى نصوع الصور الأخرى انخفاضاً طفيفاً .

وكذلك قد يكون للخوف والدوافع السلبية الأخرى تأثيرها كذلك على الإدراك

الحسى . فإن هناك بعض الأدلة التى تشير إلى أن هناك بعض الأفراد الذين يستخدمون الدفاع الإدراكى (Perceptual defense) مع المثيرات التى تكون مزعجة انفعالياً ، وخصوصاً هؤلاء الأفراد الذين يميلون إلى تجنب الأشياء غير السارة . ولا يزال التساؤل قائماً إن كان أمثال هؤلاء الناس لا يدركون بالفعل تلك المثيرات المزعجة ، أم أنهم لا يتمكنون من الإبلاغ عنها . أو حتى التفكير فيها . بسبب القلق أو الحرج .

كذلك قد يؤدى الخوف إلى أن يطرأ سوء التفسير أو التشويه على الإدراك الحسى . فمثلاً ، قد ينظر رجل الشرطة الحذر إلى جماعة من الغلمان المنغمسين فى اللعب فيراهم شيئاً يهدد الأمن ويخل به . ثم إن الخوف إذا اشتد بدرجة كافية ، فقد يتشوه الإدراك الحسى حتى يتحول إلى هلوسة - وذلك كما نجد فى حالة المريض عقلياً الذى يرى فى الظلام أشكالاً خطيرة تهدده . وقد تمكن هنرى موراي Henry Murray من إثبات هذه الظاهرة منذ عدة سنوات . طلب موراي من خمس بنات فى الحادية عشرة من العمر كن يشهدن حفلة أقامها فى بيته لصديقات ابنته ، أن يقدرن عدداً من الصور الفوتوغرافية التى انتزعت من المجلات على مقياس من تسع درجات وذلك من حيث مدى تحقق الشر فيها . ثم عقد لهن فى تلك الليلة لعبة تسمى « جريمة القتل » ، وفيها تطفأ الأضواء وتقوم واحدة منهن بمطاردة الأخريات . وكان تأثير هذه اللعبة أكبر مما كان يتوقع موراي - فقد شككت إحدى الفتيات فى تلك الليلة من حلم مزعج (كابوس) ، كما رفضت عدة فتيات أخريات النوم وحدهن فى غرف النوم . ومهما يكن الأمر ، فقد طلب موراي من الفتيات ، بعد انقضاء لعبة « جريمة القتل » هذه ، أن يقمن بتقدير الصور الفوتوغرافية مرة ثانية ، فوجد زيادة درامية (ملحوظة ، هائلة) فى مدى تحقق الشر فيها .

التذكر والنسيان

كذلك تؤثر الدافعية فى الذاكرة . مثال ذلك أننا لو طلبنا إلى شخص ما أن ينظر إلى عدد من الصور الفوتوغرافية للوجوه ، وأن يقدم وصفاً لها من بعد ذلك ،

وجدناه يتذكرها على نحو يتمشى مع ما كان لديه عند رؤيتها ومع ما يكون لديه عند تذكرها من مشاعر واتجاهات . بسبب هذه التزعة يميل قدر كبير من الشهادات التي يدلى بها شهود العيان في المحاكم إلى عدم الدقة والتشويه . وقد أجرى المشتغلون بعلم النفس عددًا من الدراسات تعرض فيها صورة ثابتة أو فيلم سينمائي عن جريمة ما لمرة واحدة على بعض الناس ، وذلك كما يحدث عندما يشهد المرء بعينه جريمة حقيقية . فالتفاصيل تنسى ، وأسلحة لم يكن لها وجود يتم تذكرها ، وأفعال شخص ما تنسب إلى شخص آخر غيره .

ثم إن هناك ميلًا عامًا لدى الناس إلى تذكر الأحداث السارة بدرجة أكبر من الأحداث غير السارة ، وإلى أن يحتفظوا بالحقائق التي تتناسب مع ما يكون لديهم من أفكار ، لأمع الأفكار التي تتحداهم وتتعارض معهم . ولو أن هذا ليس صحيحًا على الدوام . فإننا جميعًا نتذكر الأحداث غير السارة إذا بلغت من الوضوح والحيوية درجة كافية . والظاهر أن هناك عاملًا مهمًا هو إن كان تذكر الواقعة يسبب الضيق للشخص في الوقت الراهن .

وقد أجرى أ.ف. زلر A.F. Zeller تجربة توضح نوعًا من تشوه الذاكرة ، نوعًا قويًا بدرجة خاصة يدعى بالكبت . أراد زلر أن يبين أن خبرة الفشل التي تهدد ثقة المرء بذاته قد تعطل من الاحتفاظ بالمادة التي تعلمها الفرد قبل التعرض لخبرة الفشل مباشرة . طلب أولاً إلى طلاب الجامعة أن يستظهروا قائمة من المقاطع الصماء . كان يقدم مقطعًا لا معنى له مثل (هوع) ليتعلم الطلاب أن يستجيبوا له بالمقطع (ميف) مثلاً . وبعد أن أتم الطلاب حفظ القائمة حفظًا تاماً ، طلب إليهم أن يؤدوا عملاً هو الطرق بمكعب على أربعة مكعبات أخرى على المنضدة بحسب نمط معين . وكانت هذه هي النقطة التي يدخل عندها الشعور بالفشل . ذلك أن المحرب كان يجبر الطلاب ، بغض النظر عما يقومون به ، أنهم قد فشلوا وأنه لا يتوقع لمن كانت ذاكرته بهذه الدرجة من الضعف والسوء أن يكمل دراسته الجامعية بنجاح .

ثم طلب إلى الطلاب ، بعد هذه الخبرة ، أن يستعيدوا قائمة المقاطع الصماء .

وهنا تبين أن تذكر الطلاب لهذه المادة قد تأثر تأثيراً سيئاً ولو أن الفشل لم يكن مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالمقاطع الصماء . وفضلاً عن ذلك ، فإن تأثير التذكر بالنسبة للمقاطع الصماء استمر لفترة بلغت ثلاثة أيام ، على الرغم من أنه كان قد سبق التأكد من أن الطلاب يمكنهم الاحتفاظ بالمادة لهذه الفترة الزمنية في الظروف العادية . كما أن الطلاب الذين كانت تتألف منهم الجماعة الضابطة والذين لم يخبروا أى شىء من الفشل في المكعبات لم يجدوا صعوبة ما في تذكر المقاطع الصماء .

ثم إن الذاكرة عادت بعد أن تم استبعاد ما يتهدد الثقة بالنفس . فقد كلف الطلاب بالعودة والقيام باختبار الطرق بالمكعبات على خطوات سهلة تضمن لهم النجاح . . وانتعش الطلاب وأشرقت وجوههم بعد ذلك ، ثم اختبرت قدرتهم على تذكر المقاطع الصماء فإذا بهم يحسنون صنعاً كما كانوا يفعلون في البداية .

وهكذا يمكننا أن نرى أن الدافعية والانفعال تؤثران في كيف وماذا نتذكر وننسى . ولو أننا أضفنا إلى ذلك تأثير الدافعية على الإدراك الحسى ، أصبح من الواضح أن ما يكون لدينا من المعلومات في لحظة زمنية معينة إنما نتخاره لنا دوافعنا واتجاهاتنا الشخصية بدرجة كبيرة من الدقة . ولعلك تفكر في هذا الأمر في المرة التالية التي تنغمس فيها في جدال سياسى . فعلى سبيل المثال ، قد يشترك في الحديث عن مشروع قانون لرعاية المسنين طبيباً اثنان من الناس أحدهما طبيب والآخر رجل يعول والديه المسنين ، فإذا بهما يختلفان كثيراً في إدراكها للقضية ، كما أنها يختلفان كثيراً فيما لديهما من المعلومات المتصلة بهما .

التفكير والخيال

رأينا أن الدافعية لها أهميتها في تحديد نوع المعلومات التي يدركها الشخص أو يحتفظ بها . كذلك تلعب الدافعية دوراً في كيفية استخدام المعلومات في العمليات الرمزية من حل للمشكلات ، والتفكير الإبداعي ، والأحلام ، والجريان اليومي للأفكار . ومن الطبيعى أن هذه العمليات أمور داخلية ، وأنه لا يمكن تبعاً لذلك ملاحظتها بصورة مباشرة . ونحن إنما نتعرف عليها عن طريق الاستبطان ، ولكن تقارير الاستبطان قد

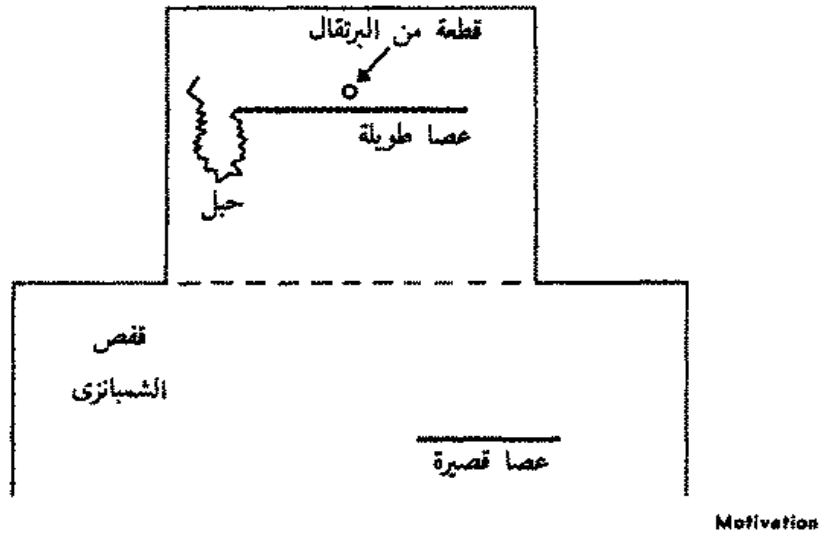
تعرض بسهولة للتشويه ولا يمكن الثقة بها . من أجل ذلك حاول علماء النفس أن يصمموا مواقف ينعكس فيها أداء هذه العمليات الرمزية في صورة سلوك موضوعي أكثر قابلية للقياس . وهذه تتضمن المواقف التجريبية ، واختبارات حل المشكلات ، والخيالات المكتوبة .

نستطيع أن نعد العمليات الرمزية متفاوتة في درجة التنظيم بحيث تمتد بين طرفين أحدهما هو حل المشكلة ذات البناء المحكم غير المرن ، وثانيهما أحلام اليقظة التي لا تكاد تجد لها شكلاً معيناً ، أو قل كذلك أحلام النوم ، وبين الطرفين نجد الأعمال الإبداعية ذات التكوين المحكم قليلاً والمتربط إلى حد ما . وقد يبدو من المنطقي أن نظن أن التفكير الأكثر نصيباً من التنظيم يكون وراءه دافع على حين أن الأشكال الحرة الهائلة من التفكير ينقصها الدافع . لكن من أهم ما أسهم به التحليل النفسي هو أنه يبين لنا كيف أن السلوك الذي يبدو في ظاهره خالياً من المعنى مثل الأحلام ، وفلتات اللسان ، والنكات ، وجولات التداعي الحر عند مريض العلاج النفسي ، يكون له دافع وراءه . وقد يكون هذا الدافع غامضاً في بعض الأحيان ، أو يكون الشخص غير مدرك له ، ولكن هذا الدافع قد يكون كذلك عاملاً هاماً في تحديد كل ما يجبره الفرد من أفكار متكاملة ، ومتراخية ، وغريبة .

ونقول ، بادئ ذي بدء ، إن الدافعية أمر هام في حل المشكلات ذات التكوين المحدد . والفرق بين حل المشكلات واكتساب العادات البسيطة هو أنه لا بد للفرد من أن يفهم العلاقات بين أجزاء المشكلة حتى يمكن أن يجد حلاً لها . وإنه لمن الممكن أن نرى في حل المشكلة نوعاً من تجميع عادات منفصلة بشكل خاص يلائم متطلبات الموقف . وهذا هو ما يعرف أحياناً بأرق صورة من صور التفكير عند الإنسان - وهو متضمن فيما يقوم به العلماء والمخترعون ، والمهندسون ، والمبدعون من رجال الأعمال ، والمخططون في الإدارة الحكومية .

ولو أننا بدأنا بالدراسات الرائدة التي قام بها ولفجانج كوهلر Wolfgang Kohler ، لوجدنا أن عدداً من أحسن التجارب في مجال حل المشكلات استخدمت فيه حيوانات الشمبانزي . فإن عملية التفكير عند هذه الحيوانات شديدة الذكاء أقرب إلى

تفكير الإنسان من تفكير معظم الحيوانات الأخرى ، كما أنه يمكن دراستها في ظروف المختبر المنضبطة . وقد درس هربرت ج بيرش Herbert G. Birch دور الدافعية في حل المشكلات عند الشمبانزى في ذلك الجهاز الموضح في الشكل رقم (٢) . وقد أعطيت الحيوانات سلسلة من المشكلات التي تطلبت استخدام الحبال والعصى في اجتذاب قطعة من ثمرة البرتقال موضوعة خارج القفص . ولما كانت الحيوانات قد سبق لها أن تعلمت استخدام الحبال والحبال والعصى منفردة ، فإن المشكلة لم تكن في اكتساب مهارة بسيطة ، وإنما في التأليف بين المهارات المختلفة من أجل الوصول إلى المكافأة .



شكل ٢ - شكل تخطيطي لمشكلة تقدم الحيوانات الشمبانزى . والشمبانزى هنا لا يستطيع أن يصل إلى الطعام بالعصا القصيرة ولا يستطيع أن يصل إلى العصا الطويلة . والحل يتطلب أن يشد الحيوان الحبل إليه بالعصا القصيرة ، وأن يشد إليه بعد ذلك العصا الطويلة ، وأن يستخدم في آخر الأمر العصا الطويلة ليصل إلى الطعام (نقلاً عن : H. G. Birch, The role of motivational factors in insightful problem - solving. J. Comp. psychol., 1945, 38, 295-317.)

وقد أوجد بيرش التفاوت في الدافعية بأن حرم الحيوانات من الطعام لمدة ساعتين أو ست ساعات أو اثنتى عشرة ساعة أو أربع وعشرين ساعة أو ست وثلاثين ساعة أو

ثمان وأربعين ساعة على مرّات مختلفة . وبذلك كان للمستويات المختلفة من الدافع آثار طريفة تماماً على حل المشكلات . أما في المستويات الدنيا فقد استغرقت الحيوانات زمناً أطول وأظهرت عدداً أقل من الحلول القائمة على الاستبصار . فقد كان من السهل أن يتشتت انتباه الحيوانات وأن تظل تلعب بالعصى والحبال . وأما في المستويات المتوسطة من الدافع - وخصوصاً بعد الحرمان لنحو أربع وعشرين ساعة - فقد كان سلوكها يتصف بالفاعلية وبالغرضية . كانت متوجهة نحو الطعام ، ولكنها كانت مع ذلك مرنة في استخدام مهاراتها للحصول عليه .

ومن أطرف النتائج أن حيوانات الشمبانزى تحولت ، بعد تلك الفترة المثلث من الحرمان للطعام لمدة أربع وعشرين ساعة ، إلى قلة الكفاءة وازدياد العجز . وهذه النتيجة تتمشى وتتفق مع قانون يوركيس - دودسن الذى سبق أن وصفناه في هذا الفصل . والظاهر أن الحيوانات بلغ منها الجوع حداً جعلها تركز على الطعام فلا تلتفت إلى غيره من الأشياء الأخرى الهامة . كانت تحاول الوصول إلى الطعام أو تضرب بالعصى القصيرة . ولما كانت تفشل - كانت تصرخ ويستبد بها هياج الغضب ، أى أن أداءها لم يكن أفضل من أدائها عندما يكون دافعها ضعيفاً ، ولكن لأسباب مختلفة اختلافاً كلياً .

ثم إن الخيال الإبداعي صورة أخرى من التفكير الذى يمكن أن يتأثر بالدافعية . والواقع أن الذهن اتجه منذ زمن بعيد إلى أن خيال الشخص قد يكشف عن دوافعه بطريقة أكثر دقة من السؤال المباشر . مثال ذلك أنك لو سألت شخصاً عن آماله ومخاوفه ، فإنه قد يفرض على نفسه من نفسه رقابة لأنه يعلم أن بعضها غير واقعى ، وأن بعضها لا يقره المجتمع ويوافق عليه . ولكن عوامل الكف هذه لا تكون بهذه القوة في عالم الخيال . ولذلك نجد ، كما تبين للمشتغلين بعلم النفس الإكلينيكي ، أن الطفل الذى لا يكاد يعبر عما في نفسه قد يكشف الكثير مما في نفسه إذا استطاع إخراج خيالاته باستخدام الدمى أو العرائس . كذلك يكشف الكبار الراشدون أيضاً عن آمالهم ومخاوفهم عندما ينشئون القصص عن الصور أو يستجيبون لبقع الخبر الغامضة .

والمبدأ نفسه يستخدم في التحليل الأدبي ، حيث نسعى إلى فهم شخصية الكاتب الكبير من دراسة كتاباته المبدعة .

السلوك الاجتماعي والانفعالي

قد يكون للدافع كذلك آثار واسعة على السلوك الاجتماعي والانفعالي العام لدى الفرد ، وذلك حين يبلغ الدافع درجة كافية من القوة . وقد أجريت خلال الحرب العالمية الثانية في جامعة مينيسوتا تجربة قام بها آنسل كيز Ancel Keys وأعوانه للكشف عن آثار الجوع الشديد لفترات طويلة ، وكان الهدف منها وضع خطة لإعادة تأهيل المناطق التي تعرض سكانها للجوع الشديد . في هذه التجربة عاش بعض المتطوعين (من فرض عليهم السجن بسبب رفضهم للانخراط في الجندية بسبب عقيدتهم) على مقادير طعام مخفضة كثيراً وذلك لمدة ستة أشهر ، مع ما يترتب على ذلك من نقص أوزانهم وضعف أبدانهم . وأصبح هؤلاء ، من الناحية النفسية ، مشغولين بالأفكار المتصلة بالطعام ، وفقدوا اهتمامهم بما كانوا معتادين عليه من الأنشطة العقلية ، والصدقات ، واللقاءات الاجتماعية . وأصبح التركيز المتواصل أمراً صعباً بالنسبة لهم . وأصبح مزاجهم متقلباً ، وصاروا أميل إلى الخشية . والاكتئاب ، وتبلد الشعور . واختفى المرح والجاذبية من أحاديثهم . وطراً عليهم تدهور في معاييرهم الاجتماعية والخلقية إلى حد أذهلهم هم أنفسهم - فكانوا يلعبون أطباق الطعام ، ويتوقحون مع الزائرين ، ويعجزون أحياناً عن مقاومة الإغراء الذي يدعهم إلى الغش في نظام تغذيتهم ..

وقد أشار هؤلاء الباحثون إلى أن سلوك هؤلاء المتطوعين كان يسيطر عليه الجوع الدائم المستقر . وإذا كان الجوع قد أدى في الماضي إلى الهجرة والجرائم والثورات ، فإن المتطوعين في تجربة مينيسوتا قد أصبحوا متبلدى الشعور إلى درجة كبيرة فيما يتعلق بالعمليات الديمقراطية ، وكذلك أيضاً يتوقع للشعوب الجائعة في المناطق المتخلفة ألا يأبوا كثيراً بالأيديولوجيات الديمقراطية أو الاستبدادية إلى أن يتم إشباع حاجاتهم الملحة إلحاحاً شديداً . وإنه لينبغي أن نتذكر هذا عندما نتعامل مع السكان الذين

يعانون من سوء التغذية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .

ثم إن الخوف والقلق قد تكون لها آثار أكبر على الحياة الاجتماعية . يكفي أن نفكر في نوع الحياة التي نعيشها الآن تحت التهديد المستمر من الإيادة النووية حتى نتعرف على بعض هذه الآثار . ذلك أننا ندخل في سباق عنيف متصاعد للتسلح يبدو أنه إنما يزيد التوتر بدلاً من أن يخفض حدته . كذلك تجدنا نأخذ بحلول متطرفة مثل الحرب الوقائية أو الرضوخ الاستسلامي - كما أننا نشوه معنى كل حركة طفيفة تصدر عن العدو الذي يبادلنا نفس العمل . ويزداد ما بيننا من شك وانعدام ثقة . وأكبر شيء هو أننا ننكر الخطر ، ولكننا مع ذلك نظل قلقين غير مطمئنين في حياتنا اليومية .

الدوافع المتصارعة

لا ينبغي أن نفترض ، بعد كل ما ذكرنا ، أن الدوافع تؤثر دائماً في السلوك في صورة بسيطة مباشرة . فإن عدة دوافع قد تؤدي عملها في وقت واحد ، بحيث قد تصبح الاستجابات اللازمة لإشباعها متعارضة . وقد ظهر هذا الصراع في تجربة كلاسيكية قام بها نيل ميلر Neel E. Miller . كان قد درب الفئران الجوع على أن تجتاز ممراً حتى تحصل على الطعام من كأس ، بحيث تعلمت الفئران أن تقبل على الهدف . ثم حدث بعد ذلك أن وجهت الصدمات إلى الحيوانات عند كأس الطعام ، حتى ينشأ عندها ميل إلى تجنب الهدف . ولما كان الإقدام على الهدف والإحجام عنه استجابتين متعارضتين ، فقد نشأ لذلك الصراع . فقد كانت الحيوانات تسير في الممر إلى حد ما ثم تنتقل بين الإقدام والإحجام .

وقد أجرى رسل كلارك Russell A. Clark تجربة تصور هذا النوع من صراع الإقدام والإحجام عند الإنسان . وكان يريد أن يبين أن الدافعية الجنسية التي يتم إحداثها بطريقة تجريبية يكون لها على الخيال نفس التأثير الذي سبق أن وجدناه للدوافع مثل الجوع . طلب كلارك إلى عدد من طلاب الجامعة الذكور أن يكتبوا قصصاً عن صور محايدة كانت تعرض عرضاً خاطفاً على الشاشة وذلك بعد أن كانت قد عرضت عليهم

سلسلة من الشرائح لنسوة عاريات بالحجم الطبيعي . وجاءت النتيجة على خلاف ما كان متوقعاً ، إذ أن قصص هؤلاء الطلاب تضمنت عدداً من الأفكار الجنسية أقل مما تضمنته قصص المجموعة الضابطة التي لم تعرض عليهم شرائح للنسوة العاريات . والظاهر أن ما حدث هو أن الطلاب أصابهم الحرج أو أنهم أحسوا بالإثم ، وكانت النتيجة أن الأفكار الجنسية أصابها التعطيل أو الكف .

ثم أريد التحقق من صحة هذا التفسير ، فأجريت تجربة ثانية في موقف يتميز بأنه ينتقص من الكف - هذا الموقف هو حفل للطلاب يتناولون فيه البيرة . وبعد أن ظلت جماعة الطلاب تتناول الكحول لمدة ساعة أو نحو ذلك ، عرضت عليها شرائح النسوة العاريات ثم طلب إليها أن تكتب القصص عن الصور المحايدة . وفي هذه المرة تضمنت القصص أفكاراً جنسية أكثر مما تضمنت قصص المجموعة الضابطة التي شهدت حفل تناول البيرة ولكن بدون أن تعرض عليهم شرائح النسوة العاريات . بل الواقع أن مجموعتي الكحول هاتين أظهرتا قدرًا من الأفكار الجنسية أكبر مما كانت المجموعتان الأوليتان قد أظهرتا في التجربة الأولى .

في هذه الدراسات ، كان هناك على الأقل اثنان من الدوافع يعملان عملها - الجنس والإثم . على أن معظم الناس يزداد شعورهم بالإثم من الأمور الجنسية حتى يتعذر عليهم التعبير عن هذه الأمور بحرية وصراحة . ولذلك ، فإن استثارة الدافع الجنسي قد لا يؤدي إلا إلى زيادة الشعور بالإثم . لكن شرب الكحول وسيلة قوية للخفض من عوامل الكف ومشاعر الإثم . ولذلك ، فإننا نجد أن الدافع الجنسي الذي تعرض للكف يمكنه أن يظهر في مثل هذه الظروف وأن يؤثر في أفكارنا وسلوكنا .

وأخيراً ، ينبغي أن نقول كلمة عن الدوافع اللاشعورية . في دراسة كلارك التي وصفناها سابقاً يحتمل أن الطلاب كان لديهم بعض الأفكار الخاصة ذات الطبيعة الجنسية ، وأنهم قد اشتد بهم الحرج حتى منعهم عن التعبير عنها . والواقع أنه يحدث أحياناً أن يشتد الشعور بالإثم أو غير ذلك من الدوافع المسببة للكف إلى درجة يتعذر معها حتى على الأفكار حول الدوافع الكامنة أن تجد طريقها إلى الظهور . عندئذ

يصبح الدافع لا شعوريا . ولكنه قد يظل يؤثر في السلوك مع ذلك . فكيف يحدث هذا؟ قد يبدو الأمر غريباً غامضاً ، ولكن ألسنا ندرك جميعاً ذلك الدافع اللاشعورى الذى يدعو العانس العجوز التى تعيش فى وحدة إلى أن تنظر أسفل سريرها كل ليلة خشية أن يكون أحد الرجال قد اختبأ تحته ؟

ومن الممكن بيان عمل الدافع اللاشعورى بصورة تجريبية عن طريق الاستعانة بالتنويم المغناطيسى . والمثال التالى واحد من عدة أمثلة قدمها م.هـ. إريكسون

« أثناء التنويم المغناطيسى ، قيل للمفحوص إنه يعجب بالدكتور ر . ، وأنه يغمزه كثيراً . وإن كان يشعر بالغيرة اللاشعورية منه ، وإنه بسبب هذه الغيرة سوف يوجه عبارات المديح إلى الدكتور ر . ويضمها بعض التلميحات السخيفة . كذلك قيل له إنه بعد أن يستيقظ سوف تبدأ محادثة مع الدكتور ر . ينبغى له أن يشارك فيها . ثم أوقف الشخص وبدأت المحادثة .

ودار الحديث حول الأسفار وما يترتب عليها من فوائد تربوية تعليمية للشخص . وذكر المفحوص مباشرة أن الدكتور ر . كان قد درس فى الولايات الغربية الوسطى والولايات الشرقية . وأنه بسبب كثرة أسفاره فى الخارج أيضا ، يمكن أن يعد رجلاً عالمياً . وهنا ذكر المفحوص أنه يود أن يقوم ببعض الأسفار وأن تكون له تربيته العالمية ولكنه أضاف أن هذا فى حقيقة الأمر ما يفعله كثير من المتشردين المسنين الذين يتنقلون من جزء من الوطن إلى جزء آخر عن طريق الاختفاء فى عربات قطار الشحن . ثم أعقبت ذلك مناقشة لسلوك الناس الذى يعكس البيئات المحلية . وخلال ذلك ذكر المفحوص أن الرجل صاحب الأسفار يزداد معرفة وفهماً للناس ولظواهر الحضارة ، ولكنه أضاف بعد ذلك أن هذا الكلام يمكن أن يقال عن أى شخص يقيم فى الجانب الشرقى من مدينة نيويورك »

وهكذا يمكننا أن نرى أنه ، ولو أن الشخص لم يكن واعياً بغيرته ولا مدركاً لها ، إلا أن سلوكه كان يتأثر تأثراً شديداً بهذا الدافع اللاشعورى .

* From M.H. Erickson, Experimental demonstrations of the psychopathology of everyday life. *Psychoanal. Quart.*, 1939, 8, 338-353.

الدافعية بوصفها محددة للسلوك

الدراسات التي عرضناها في هذا الفصل تشير إلى أن الدافعية واحد من العوامل الهامة التي تحدد كيفية السلوك للشخص . فالدافعية أمر تتضمنه كل أنواع السلوك من تعلم ، وأداء عملي ، وإدراك حسي ، وانتباه ، وتذكر ، ونسيان ، وتفكير ، وإبداع ، وشعور . والعلاقة بين الدافعية والسلوك تكون في بعض الأحيان معقدة . والمستوى المتوسط من الدافعية قد يكون له تأثير يختلف عن تأثير المستوى المتطرف منها . والدوافع المتعارضة قد تؤدي إلى الصراع . كما أن بعض الدوافع قد يكون لا شعوريا . والواقع أننا لن نتمكن من فهم سلوك الإنسان إلا بعد أن يزداد علمنا بالآثار المعقدة للدوافع .

الفصل الثالث

دوافع الاتزان الحيوى

عمليات الحياة الأساسية - من إنتاج للطاقة ، ونمو للجسم ، وإصلاح للتالف من الأنسجة - إنما تعتمد على طائفة دقيقة من الأحوال الكيميائية القائمة فى الخلايا الفردية للكائن العضوى . فدرجة الحرارة عند الإنسان لا ينبغى أن تبتعد بأكثر من درجات قليلة عن الحد الأمثل الذى هو ٩٨,٦ درجة فهرنهايت لأية فترة زمنية ، ومستوى الماء فى الدم والسائل الليمفاوى ينبغى أن يكون على درجة من الثبات ، والمكونات الكيميائية للدم - من أوكسجين، وسكر، وأملاح ، وما إلى ذلك - ينبغى ألا تتجاوز حدوداً آمنة ، كما أن الدم ينبغى ألا يفرط فى الحمضية أو القلوية ، والعجز عن المحافظة على هذه الأحوال يؤدى إلى فساد فى الوظائف العامة ثم إلى الموت فى آخر الأمر .

والمختصون فى علم الأحياء (البيولوجيا) يرون أن الحياة العضوية بدأت منذ العصر الأيوى فى بحار دافئة مدارية مالحة . ويقولون: إن البيئة المحيطة هناك وفرت معظم الشروط اللازمة لنشأة الكائن العضوى وحيد الخلية . ولكن الكائنات العضوية الحية انتشرت إلى البحار التى هى أكثر برودة، وإلى المياه العذبة ، وإلى اليابسة ، فبدأت تظهر تربيئات خاصة من شأنها أن توفر ما كان متحققاً فى بيئة البحار المالحة المدارية . والواقع ، أن الخلايا الفردية للكائن العضوى المعقد مثل الإنسان ، إنما تعيش فى حمام من ماء البحر المالح أدفاً من المستوى المدارى . وهذا الحمام يوفره الدم والسائل الليمفاوى .

على أن معظم الأعضاء الخاصة فى الجسم إنما تعمل لتوفر الشروط والأحوال

اللازمة في هذا البحر المدارى القائم في أجسامنا - أو هذه البيئة الداخلية كما تسمى . فالكبد يمدنا بالسكر . والرئتان توفران الأوكسجين ، والكليتان نقومان بترشيح الفضلات . وهكذا . ولكن الكائن العضوى يعيش كذلك في بيئة خارجية - تتغير فيها الأحوال والظروف باستمرار على الدوام - فإمدادات الطعام تنفذ ، والماء غير متوفر ، ودرجة الحرارة قد تتذبذب . وعلى الكائن العضوى أن يحتفظ بثباته واستقراره الداخلى ، على الرغم من هذه التغيرات الخارجية . وقد أطلق والتر ب. كانون Walter B. Cannon على هذه الحالة الداخلية الثابتة نسبياً مصطلح الاتزان الحيوى (الهوميوستازيا) . ولو أن الأحوال الداخلية تغيرت تغيراً يتجاوز حدوداً معينة ، قيل إنه قد وقعت حالة اختلال في الاتزان الحيوى ووجدنا عدداً من عمليات الاتزان الحيوى تبدأ فعلها من أجل علاج الموقف .

ثم إن كثيراً من عمليات الاتزان الحيوى تتضمن تغيرات داخلية تحظى بالاهتمام الأكبر من عالم الفسيولوجيا لا عالم النفس . من ذلك ، مثلاً ، أن درجة الحرارة الخارجية إذا انخفضت ، عمد كثير من الحيوانات إلى إحراق المزيد من الوقود ، وبذلك ترفع من درجة حرارة أجسامها - وفي بعض الحيوانات الأخرى يزيد نموفرائها . ولكن بعض العمليات عند الحيوانات الأخرى قد تتضمن تغيرات سلوكية من النمط الغريزى - بحيث تجد القوارض الصغيرة تلجأ إلى البيات الشتوى ، وبعض الطيور إلى الهجرة جنوباً ، ومنعكس الارتعاش يظهر عند الإنسان . وأخيراً نجد أن المشكلة يزداد تحولها إلى الصبغة السيكلوجية عندما نجد اختلال الاتزان الحيوى يؤدي إلى ظهور دافع معين هو السعى لالتماس الدفء . وهذا أمر مألوف تماماً لنا في صورة الإحساس بالبرد والرغبة في الدفء . كما أن مثل هذا الدافع قد يؤدي إلى البحث عن مخبأ مريح ، أو إلى تعلم إشعال النار ، أو إلى اختراع طريقة جديدة للاستدفاء ، مثل البطانية الكهربائية .

ويقدم لنا كارل لاشلى Karl Lashley مثالاً على دافع الاتزان الحيوى عند كائن عضوى بسيط جداً بحيث إن العملية بأسرها يمكن أن تستخدم كنموذج خالص نقي أما الكائن العضوى فإنه الميكروستوما Microstoma اللدقيق الذى يبلغ طوله حوالى نصف

المليمتر . وهذا الكائن قد زود ، ضمن أجهزة التكيف عنده ، بعدد من الخلايا السامة اللاسعة المنتشرة على سطح جسمه كله . وهو عند الدفاع عن نفسه . أو الاستيلاء على فريسته ، تراه يطلق هذه الأسلحة الصغيرة - لكن الميكروستوما لا يصنع هذه الخلايا بنفسه ، وإنما يحصل عليها من حيوان مجهرى (ميكروسكوبى) آخر هو الهايدرا Hydra . ذلك أن الميكروستوما يأكل الهايدرا ثم يهضم الخلايا اللاسعة فى معدته . وينقلها إلى الجلد . فإذا نفدت الخلايا اللاسعة ، أخذ الميكروستوما يأكل الهايدرا بشراهة ، ثم تراه يفقد شهيته كلما اقترب تركيز الخلايا اللاسعة على سطح الجسم من المستوى الملائم . ويشير لاشلى هنا إلى أن المشكلات الأساسية للدافعية نجدها هنا فى هذا الكائن الذى لا يزيد على نصف المليمتر - الحاجة ، ثم نشاط استهلاكى محدد . ثم الشبع .

على أن عددًا من الدوافع الهامة بالنسبة للإنسان تندرج عادة فى قائمة دوافع الاتزان الحيوى . ولعل الجوع والعطش يكونان أوضح الأمثلة على الدوافع المرتبطة بالنقص الداخلى فى مواد كيميائية لازمة لوظائف الجسم . والواقع ، أن كلا من هذين الدافعين أكثر حظاً من التعقيد مما يبدو فى ظاهر الأمر . ذلك أن الجوع يمكن أن ينقسم إلى عدة أنواع فرعية من الجوع بسبب أن الجسم يحتاج إلى مواد كيميائية محددة من قبيل البروتين ، والمواد الكربوهيدراتية ، والدهون ، والمعادن ، والفيتامينات . كما أن العطش . هو أيضاً ، يتضمن الحاجة إلى الماء . والحاجة إلى الملح حتى يمكن المحافظة على حمام ملوحة البحر المناسب . وأما دافع التنفس فيضمن عادة التزود بالأوكسجين اللازم لعمليات الاتزان الحيوى .

كما أن هناك عددًا من الدوافع الأخرى الهامة فى الاتزان الحيوى بسبب أنها تعمل على تجنب ظروف بيئية قد تتضمن الخطر ، بدلاً من أن تعالج نوعاً من النقص الداخلى . وهكذا نجد لدينا تجنب الدرجات المتطرفة من الحرارة ، والضوء الساطع ، والأصوات الشديدة ، والصدمة الكهربائية ، وكل المثيرات التى من شأنها أن تنتج الألم . فإن هذه الظروف قد تؤدي إلى تلف فى الأنسجة ، وبذلك تؤثر تأثيراً غير مباشر فى الاتزان الحيوى .

وأخيراً . نجد هناك طائفة من الدوافع التي تنشأ عن عمليات الجسم وأوجه النشاط التي يقوم بها الفرد نفسه . وأبسط هذه هي دوافع الإخراج - فالميل إلى الزفير يخلصنا من ثاني أكسيد الكربون . على حين أن عمليات التبول والتبرز تخلصنا من فضلات أخرى بالجسم . وإذا كان النشاط العام للجسم يؤدي في آخر الأمر إلى الإنهاك والشعور بالرغبة في النوم . فإن الدافعين إلى الراحة والنوم يعملان فيما يبدو من أجل توقع وتجنب حصول الأذى للجسم بسبب النشاط المفرط . فالراحة عند التعب تسمح بالتخلص من فضلات من نوع حامض اللبنيك من العضلات . وأما الوظيفة الهوميوستازية الدقيقة للنوم فلا تزال غير معروفة . ولكنه يقال مع ذلك إن توترات الحياة اليومية يتم التخلص منها عن طريق الأحلام . وإن كان من المحتمل أن يكون للنوم وظيفة هوميوستازية أخرى أكثر تحديداً .

وعلى الجملة نقول إن الحالات التي تؤدي إلى فقدان الاتزان الحيوى تسبب فيما يبدو ظهور طائفة مختلفة من الدوافع السيكلوجية يكون الهدف فيها استعادة أو استبقاء الاتزان الداخلى . ومثل هذا الاتزان الحيوى مهم للاحتفاظ بالحياة . على أن هذا النموذج الهوميوستازى منطقي إلى حد بعيد ، وقد كان له تأثيره الهائل على الفكر السيكلوجى . فقد ذهب بعض علماء النفس إلى أن الاتزان الحيوى هو الأساس ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، لكل الدوافع عند الإنسان . صحيح أن هناك من تشككوا . بالطبع ، في قدرة هذا النموذج على تفسير دوافع الإنسان المعقدة مثل الإنجاز ، والمودة ، وتقدير الذات وما إليها ، ولكن هناك أيضاً من تشكك فيما إذا كان مبدأ الاتزان الحيوى يمكنه أن يمدنا بتفسير كامل حتى للدوافع من قبيل الجوع ، والعطش ، والألم .

ونحن في هذا الفصل سوف ندرس أول الأمر طبيعة الدافع - أى كيف ينشأ الدافع السيكلوجى - ثم ندرس بعدئذ طبيعة الإثابة - أى كيفية انتهاء الدافع السيكلوجى . وسوف نستخدم الجوع بوصفه المثال الرئيسى في كل مناقشاتنا لأننا نعلم عن هذا الدافع بالذات أكثر مما نعلم عن غيره من الدوافع الأخرى . وسوف يكون اهتمامنا الرئيسى منصباً حول ملائمة النموذج الهوميوستازى لتفسير الجوع والدوافع المشابهة .

طبيعة الدافع

الدافع النفسى ، بحسب نظرية الاتزان الحيوى - وبآثاره المتعددة على النشاط ، واختيار الهدف ، والشعور بالافتقار إلى شىء - إنما ينشأ عن فقدان الاتزان الداخلى . ولذلك ، نجد أن كلارك هل ، أحد أصحاب النظريات النفسية ممن تأثر بهم الآخرون . يسوى بين الدافع النفسى والحاجة الفسيولوجية . ولعل هذه التسوية تصف لنا الموقف بدقة تامة فيما يبدو فى كائن عضوى بسيط مثل الميكروستوما ، ولكن العملية تبدو أكثر تعقيداً بعد ذلك فى الفصائل الأعلى من الحيوان . ذلك أننا نجد فى الكائن العضوى المعقد عدداً من الآليات أو الميكانيزمات تتوسط بين حاجة الأنسجة فى الجسم وانتظام السلوك المتجه نحو الهدف . والآن نبدأ بالفحص الدقيق للعمليات والآليات المتضمنة فى دافع الجوع . ثم نتساءل ، بعدئذ ، عن العلاقة بين الحاجة الفسيولوجية والدافع النفسى . وأخيراً نناقش ما للدافع النفسى من خاصية الإثارة أو خاصية التنشيط .

الجوع

الجوع بالنسبة لمعظمنا يعنى حالة المعدة - آلام الجوع . وقد تمكن و. ب. كانون وزميله أ. ل. واشبورن A.L. Washburn من إظهار أهمية تقلصات المعدة فى الجوع ، وذلك منذ عدة سنوات . فقد استحدثا وسيلة مبتكرة تتألف من بالونة ، يبتلعها الشخص ، وأنبوبة تخرج من خلال الفم مرتبطة بوسيلة تسجيل . فتقلصات المعدة تؤدي إلى اعتصار البالونة وبذلك يتم تسجيلها . وقد أظهرت التجارب أن هناك تطابقاً وثيقاً بين تقلصات المعدة وخبرة الشعور بالجوع .

لكن الدراسات التالية ، مع ذلك ، أظهرت أن الجوع لا يتوقف على تقلصات المعدة هذه . فإن الناس الذين تستأصل معداتهم لا يفقدون خبرة الجوع . كما أننا نجد تجارب عدة أجريت على الحيوانات تم فيها قطع كل الأعصاب فيما بين المعدة والدماغ . ومع ذلك استمرت الحيوانات تأكل بصورية سوية وتحسن تعلم المتاهات من أجل الحصول على الطعام . ولذلك ، يبدو أن الإشارات أو التنبيهات الصادرة عن المعدة ليست لازمة فى الجوع .

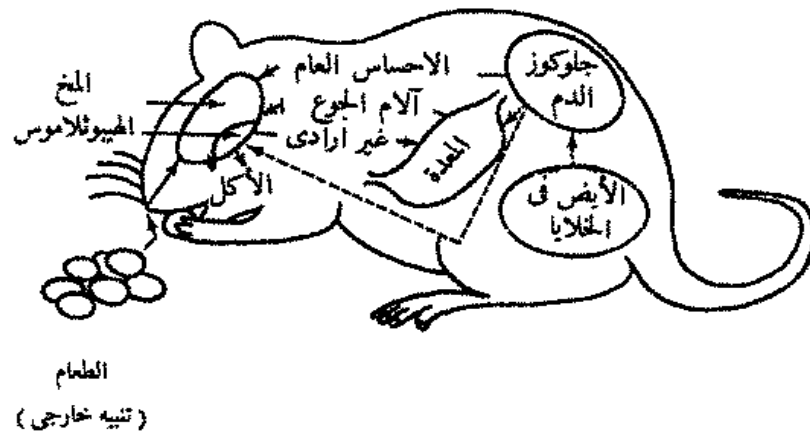
ولعل الأقرب إلى الاحتمال أن الحالة الكيميائية للدم لها تأثير مباشر على الدماغ . وقد يكون مستوى السكر في الدم من العوامل . وذلك كما يظهر من ازدياد الأكل عقب حقن الأنسولين في الجسم . ولو أن المحاولات المتعددة للربط المباشر بين مستويات السكر في الدم وبين الجوع باءت كلها بالفشل . لكننا ، مع ذلك ، نعلم أن هناك اختلافاً بين دم الحيوانات الجائعة ودماء الحيوانات الشبعة . ذلك أننا لو حقنا دم الفأر الجائع في جسم الفأر الشبع وجدناه يشرع في الأكل . ومع ذلك ، فإننا لا نزال نعلم القليل جداً عن طبيعة العمليات الكيميائية في الدم التي تؤثر في الجوع . وهذه العمليات الكيميائية قد تتضمن مستوى العناصر الغذائية المختلفة أو بعض الهرمونات التي تفرزها أعضاء الجسم المختلفة .

وعلى الرغم من أن الطبيعة الحقة لعوامل الدم المستولة عن الجوع لا تزال مجهولة ، إلا أنه من الثابت الواضح لدينا أن هناك جزءاً من الدماغ هو أشد الأجزاء حساسية لذلك . وذلك هو الهيپوثلاموس ، منطقة دقيقة عند قاعدة الدماغ ، بالقرب من الغدة النخامية ، يصلها مدد كبير من الدم . والظاهر أن هذه المنطقة الصغيرة لها أهميتها في كل الدوافع الفسيولوجية والانفعالات تقريباً .

أما في حالة الجوع . فإن هناك جزءاً دقيقاً من الهيپوثلاموس يعرف « بمنطقة التغذى » . وفي حيوانات التجارب يمكن أن نغرس سلكاً كهربياً دقيقاً في هذه المنطقة ونثبت في مكانه . ثم نستخدم تياراً كهربياً طفيفاً في تنبيه منطقة التغذى . عندئذ نجد الحيوان يشرع في الأكل حتى وإن كان شبعاً . ثم إن تنبيه هذه المنطقة يؤدي بالإضافة إلى ذلك إلى زيادة في القيام بالاستجابة المتعلمة ، من قبيل الضغط على الرافعة ، للحصول على الإثابة بالطعام . وهذا صحيح حتى بالنسبة للحيوان الذي يكون شبعاً ولكنه عطشان ، والذي يضطر إلى الابتعاد عن أنبوب الماء والتوجه إلى حيث يقوم باستجابة الطعام . وهكذا يمكننا أن نرى أن التنبيه الكهربى « لمنطقة التغذى » في الهيپوثلاموس يسبب حالة شبيهة جداً بالجوع العادى . وأما إتلاف هذه المنطقة فإنه يقضى على تناول الطعام . ولذلك ، فإن هذه المنطقة بالذات من الهيپوثلاموس يمكن أن تعد بمثابة الآلية الأساسية التي تنظم استشارة الجوع .

وعلى الرغم من أن أهمية الهيبوثلاموس بالنسبة للجوع ليست موضعاً للكثير من الشكوك ، إلا أن هناك أجزاء أخرى من الدماغ ذات اتصال أيضاً . من ذلك ، مثلاً ، ما تحقق وثبت لدينا من أن الجوع تستثيره أيضاً رؤية الطعام ، ورائحته ، ومذاقه . على أن هذه المثيرات البيئية لا تنتقل مباشرة إلى الهيبوثلاموس ، ولكن إلى المخ ، وهو ذلك الجزء الخارجى من الدماغ الذى يظن عادة أنه الميكانيزم الخاص بالعمليات العقلية العليا .

وفى الشكل رقم (٣) تتضح العلاقات فيما بين الميكانيزمات المختلفة فى الجوع . فى قاعدة العملية كلها نجد عملية الأيض (التمثيل الغذائى) الخاصة بالخلايا ، وكذلك الحاجة إلى السرعات الحرارية اللازمة لإنتاج الحرارة وأداء الجسم لأعماله . أما فى حالة



شكل ٣ - الميكانيزمات الفيزيولوجية للجوع . الخطوط المنقطة تشير إلى التأثيرات البيوكيميائية أو الهرمونية ، وأما الخطوط المتصلة فتشير إلى التنبيه العصبى . ويوضح الشكل عملية تناول الأطعمة التى يتم الحصول على الجلوكوز منها . والشكل يزداد كثيراً فى التعقيد والتركيب لو أننا جعلناه يشتمل على كل أنواع الأطعمة .

J.P. Scott, Animal Behavior, Chicago:

(نقلا عن)

Univ. of Chicago Press, 1958).

الحاجة إلى السكر ، أو الجلوكوز ، فإن امتصاص الخلايا للسكر من الدم يهبط المسرح للتنبيه الهورموني أو العصبي المباشر للدماغ بواسطة ورود الدم الخالي من السكر ، مما يؤدي إلى تنشيط ميكانيزم دافع الجوع في الهيبوثلاموس ، وبذلك تنشأ إحساسات الجوع في المخ . ثم إن آليات الهيبوثلاموس ، بالإضافة إلى عوامل الدم ، تنبه المعدة لكي تقلص مما يؤدي إلى مصدر ثانوي للجوع ، الإحساس بالآم المعدة . كما أن ميكانيزمات الهيبوثلاموس وغيرها من ميكانيزمات الدماغ تنشط كذلك استجابات الأكل ، مع مراعات أن وقوع الأكل بالفعل إنما يتوقف على وجود الطعام . وأما دور التنبيه أو الاستثارة الخارجية فيتضح كذلك من أن الطعام يعين على استثارة الجوع .

والآن نسأل إن كانت هذه السلسلة من الميكانيزمات تمتد إلى كل أنواع النقص الغذائي في الجسم ؟ تذكر أن الجوع يتكون في حقيقة أمره من طائفة من أنواع الجوع الفرعية أو الافتقار إلى مواد معينة مختلفة . فهل كل نوع من أنواع النقص يؤدي إلى البحث عن الطعام الغني بهذه المادة المفقتر إليها ؟

إن هناك ميلاً عاماً إلى أن الجوع نحو المواد المختلفة يختلف باختلاف الحاجات المحددة للكائن العضوي . وقد أطلق على هذا الميل في بعض الأحيان مصطلح « حكمة البدن » . من ذلك ، مثلاً ، أن الحيوانات غير المستأنسة تنزع إلى اختيار الأطعمة بحسب ملاءمتها لحاجات أجسامها . كما أن هذا التأثير قد سبق التأكد منه في المختبرات بفضل التجارب التي سميت بالتغذية على منهج الكافيتيريا . وقد قام دافيز C.M. Davis بدراسة مشهورة قدم فيها الغذاء للأطفال الصغار من بني الإنسان على طريقة الكافيتيريا عدة سنوات من بعد الفطام . إذ كانت الأطباق المختلفة وزجاجات الطعام توضع أمام كل طفل في موعد الوجبات ويسمح له بأن يتناول منها بحسب ما يشتهي . وازدهرت أحوال الأطفال على هذا النظام . صحيح أنهم كانوا يمرون بفترات من الإفراط في بعض الأشياء ، إلا أنهم كانوا يتخيرون غذاء متزنًا متكاملًا بصفة عامة وعلى المدى الطويل . بل إن واحدًا من الأطفال تمكن من علاج نفسه من الكساح بأن ظل يكثّر من تناول زيت كبد الحوت .

على أن من الواجب تفسير هذه النتائج بحذر . إذ كانت الأطعمة التي تقدم للأطفال بسيطة نقية ، بحيث إن التجربة لو كانت تضمنت تقديم أطعمة جذابة كثيرا من نوع الآيس كريم والحلواته لكان من المحتمل أن يؤدي ذلك إلى أن تتغير النتائج . كما أن العادة تلعب دورا كبيرا في تحديد التفضيلات . فقد حدث في إحدى الدراسات أن تعلمت الحيوانات التي كان لديها نقص في السكر أن تفضل مادة سكر القصب . وفيما بعد ، عندما أصبح لديها نقص في البروتين لا في السكر ، استمر تفضيلها للسكر . وأما على المستوى الإنساني ، فإن العادة والتقليد الاجتماعي يلعبان دورا أكبر من ذلك . ومن أجل ذلك وجدنا معظم الثقافات من الأطباء ينتقدون الفكرة التي تدعو إلى أن نترك للأطفال حرية اختيار الأطعمة التي يتناولونها .

وقد تمكن كورت ريختر وأعوانه Curt Richter من أن يثبتوا بوضوح في إحدى التجارب وجود الحاجة إلى بعض المواد المعينة . ذلك أنهم قاموا بتغذية الفئران على طعام يفتقر إلى الفيتامين ب ، ثم أتاحوا لها فرصة اختيار الشرب من عدة زجاجات . وسرعان ما اختارت الفئران الزجاجات التي تحتوى على محلول خالص من الفيتامين ب . وبمجرد أن تذوقته ، أصبح من الصعب أن تمنع من شربه بمعنى أن الفئران كانت تثبت بأنبيائها ومخالبها بالزجاجة إن هي سحبت منها .

ولكن هذه النتيجة لا ينبغي أن نفرط في تعميمها مع ذلك ، بعد أن تبين أن كثيرا من الفيتامينات الأخرى ، وخاصة فيتامين أ وفيتامين د ، لا يتجه إليها التفضيل إن حرم الحيوان منها . أضف إلى ذلك أنه حتى الفيتامين ب لا بد من أن يقدم إلى الحيوان بدرجة تركيز عالية حتى يمكن للحيوان أن يحس به . أما إن لم تكن درجة تركيز فيتامين ب قوية بدرجة تكفى لتمييز مذاقه ، فإنه مع ذلك يمكن أن نجعل الحيوان يفضل على غيره بأن نضيف إلى الفيتامين المطلوب مذاقا متميزا . ثم إننا إذا سحبنا فيتامين ب فيما بعد ، وجدنا الحيوان لا يزال يظهر تفضيله للمذاق القديم . وهذا يبين لنا مرة ثانية أهمية العادة .

على أن عددًا من التغيرات المختلفة الخاصة بالغدد الصماء والهرمونات في الجسم

تؤثر في اشتهاى الأطعمة المختلفة . من ذلك ، مثلاً ، أن الفئران التى يستأصل عندها البنكرياس قد نتوقع لها الإصابة بمرض السكر . لكن الذى يحدث فى الواقع أنها لا تصاب به لأنها لا تأكل إلا قليلاً من السكر وتحصل على سعاتها من الدهون . ولعل أقرب الأمثلة إلى المألوف هو الأم الحامل أو المرضع . ذلك أن الأم ، بسبب حاجات الجنين الناشئ أو الطفل الرضيع ، تكون بحاجة ماسة إلى قدر أكبر من المعادن مثل الصوديوم . والكالسيوم ، والفوسفور ، وإلى قدر أكبر كذلك من البروتينات والدهون . ولكنها ليست فى حاجة إلى مزيد من السكر . وهكذا نجد إناث الفئران الحوامل أو المرضعات تفضل الأطعمة الغنية بهذه العناصر الضرورية . ثم نجدها بعد ذلك تعود إلى تفضيل الطعام العادى . وأما النساء الحوامل فإنه تبدو عليهن أيضاً تغيرات فى الشهية ، ولكنهن يتأثرن إلى حد أكبر بالعادة ، بمعنى أنهن كثيراً ما يزيد تناولهن للسكريات بالإضافة إلى العناصر الغذائية اللازمة الأخرى ، وبذلك تزداد أوزانهن خلال فترة الحمل إلى درجة مفرطة .

وهكذا نجد أنه على الرغم من أن هناك نوعاً بدائياً من « حكمة البدن » ، وطائفة من الميكانيزمات الفسيولوجية التى تترجم الاحتياجات الجسمية إلى سلوك ، إلا أن هذه أمور محدودة إلى درجة كبيرة . فإنه ليست كل حاجات الجسم تؤدي إلى نوع معين من الجوع . كما أن تفضيلات المذاق والعادة كثيراً ما تلعب دوراً أكبر من الدور الذى تلعبه حاجات الجسم . وعند الإنسان نجد أن القيم الحضارية تلعب فيما يبدو دوراً هاماً فى اختيار المرء لطعامه .

ثم إن الميكانيزمات الفسيولوجية فى عدد من الدوافع الأخرى شبيهة بما نجده فى الجوع . فقد تبين أن هناك فى الهيپوثلاموس مناطق لها أهميتها بالنسبة للعطش ، والنوم واليقظة ، وتنظيم درجة الحرارة . والظاهر أن ميكانيزمات الهيپوثلاموس تكون حساسة للأحوال المختلفة فى الجسم قبل أن يصل الجسم إلى حالة الطوارئ الحقيقية . ذلك أنها تتوقع أوجه النقص ، والإرهاك ، والأذى . ولكنها ، مع ذلك ، لا تعمل دائماً بطريقة هوميوستازية تامة .

الحاجة الفسيولوجية مقابل الدافع النفسى

إن مفهوم الاتزان الحيوى يرتكز على فكرة أساسية مؤداها أن الحاجات الفسيولوجية تحدث نوعاً من اختلال الاتزان الذى يتطلب التوافق . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن الدافع النفسى عبارة عن امتداد للميكانيزمات الداخلية التى يستجيب بها الكائن للحاجة الفسيولوجية ، وقد رأينا بعض الأمثلة الممتازة على ذلك . لكن هناك مع ذلك عدة أسباب تمنعنا من أن نسوى بين الدافع النفسى والحاجة الفسيولوجية .

أول هذه الأسباب ، كما رأينا فى هذا الفصل ، أن هناك عدداً من الحاجات الفسيولوجية لا تنتج عنها دوافع نفسية . فإن هناك عدداً من أوجه الافتقار إلى الفيتامينات لا يكون الفرد على وعى بها أو لا تؤثر فى أهدافه . بل إن هناك مثلاً صارخاً بدرجة أكبر هو أن نقص الأوكسيجين لا يؤدي إلى إيجاد دافع عند الشخص . ذلك أن الشهيق يفيد عادة فى تزويد الجسم بالأوكسيجين . ومع ذلك ، فإن الدافع يدفعنا إلى أن نستنشق الهواء ، لا الأوكسيجين ، على وجه التحديد . وهكذا نجد أنه على الرغم من أن الجسم يتطلب الأوكسيجين ، إلا أن الدافع النفسى يتم إشباعه إذا استنشق الفرد هواء لا يحتوى إلا على القليل من الأوكسيجين أو يخلو تماماً من الأوكسيجين . صحيح أن هذا الأمر لا يحدث إلا نادراً فى الحياة العادية ، ولكنه قد يؤدي إلى الموت بالنسبة لرجال الطيران والغواصات الذين يضطرون إلى الخروج من البيئة الطبيعية . بل إن الأمر قد يصل إلى حد أننا يمكن أن نستنشق ذلك الغاز السام وهو غاز أول أوكسيد الكربون من غير أن تتأثر بذلك دوافعنا . ومن هذا يتضح أننا لا نجد لكل حاجة فسيولوجية ما يقابلها من الدوافع النفسية .

كذلك يبدو أن استثارة الدافع النفسى أمر مستقل إلى حد ما عن الحاجة الفسيولوجية . ذلك أن معظم الدوافع النفسية من النوع الاستباقى أو التوقعى . ومعنى هذا أن الكائن العضوى يصيبه الجوع من قبل أن تصبح الأنسجة خالية فعلاً من المواد اللازمة بفترة طويلة . كما أن الدافع النفسى قد يخفى عندما تصل الحاجة الفسيولوجية

إلى المستويات العالية الشديدة . ومن الأمثلة على هذا أن الناس الذين يحرمون كلية من الطعام يفقدون دافع الجوع ولا تكون لديهم رغبة شعورية في تناول الطعام .

ثم إن هناك فرقاً آخر بين الحاجة الفسيولوجية والدافع النفسى هو أن الدافع النفسى يمكن أن يتأثر بالتعلم . وظروف التعلم قد تؤدي إلى ظروف غير هوميوستازية . مثال ذلك أن الفرد قد يكون قد تعلم من علاقته بأمه في طفولته أن تناول الطعام يخفف القلق . ولذلك ، فهو الآن يشعر بالجوع كلما شعر بالقلق ، ويعمل على خفض القلق عنده بتناول الطعام . وهذا قد يؤدي إلى السمنة غير الهوميوستازية . وشبيه بهذا حالة رجل كان إذا بدأ يشعر بالغضب غلبه النعاس . ثم تبين بعد ذلك أثناء العلاج النفسى أنه كان في طفولته إذا تملكه الغضب أو التوتر ، فسر والداه سبب سلوكه بالتعب وطلباً منه أن يذهب إلى فراشه . وهكذا نجده قد تعلم أن يشعر بالحاجة إلى النوم كلما شعر بالغضب .

على أنه ينبغي ملاحظة أن العوامل الاجتماعية قد تؤثر في الدوافع عند الحيوان كما تؤثر في الدوافع عند الإنسان . مثال ذلك أن الدجاج تأكل وهي مجتمعة بمقادير أكبر مما تأكل وهي فرادى . ومع ذلك ، فإن الإنسان أكثر تعرضاً للتأثير الاجتماعى . ويبدو ، بصفة عامة ، أن اعتماد الدوافع على الاتزان الحيوى يتناقص كلما صعدنا في سلم التطور . فبينما نجد الدافعية عند كائن عضوى بسيط جداً مثل الميكروستوما تبدو أنها تستجيب مباشرة للحاجات الفسيولوجية ، نجد لها على درجة أقل من ذلك عند الدجاجة ، وعند الإنسان أقل من سائر الحيوان .

ولذلك ، فإن التسوية البسيطة بين الحاجة الفسيولوجية أو اختلال الاتزان الحيوى من ناحية والدافع النفسى من ناحية أخرى ، أمر ليس له ما يبرره . وعلى الرغم من أنه من الواضح أن هناك دوافع مثل الجوع والعطش وما إليها مرتبطة بالحاجات الفسيولوجية ، إلا أن هذه الدوافع لا تستجيب لهذه الحاجات استجابة تامة . أى أن الدوافع النفسية تتضمن شيئاً أكثر من اختلال الاتزان الحيوى .

المثيرات الدافعة مقابل تنشيط الدافع

يذهب عدد من أصحاب النظريات النفسية إلى أن الدافع يؤدي عمله عند الكائن العضوى عن طريق التنشيط العام لكل الاستجابات والأنشطة . ولعل الميكروستوما تزودنا بمثال طيب يوضح كيف أن دافعاً معيناً يعبئ طاقة الكائن العضوى بأكمله . لقد سبق أن بينا ، على مستوى أعلى من سلم التطور ، كيف أن الفئران الجائعة أكثر انغماساً في سلوك استكشاف المتاهة من الفئران الشبعة . ومع ذلك ، فإن هناك حالات كثيرة أخرى لا يؤدي فيها الدافع إلى ازدياد النشاط . ذلك أن الجوع إذا اشتد حتى يتجاوز نقطة قصوى معينة ، وجدنا النشاط العام يأخذ في التناقص .

ولذلك ، فقد ذهب عدد من أصحاب النظريات إلى أن الدافع لا يؤدي إلى ازدياد في النشاط الظاهر الصريح ، وإنما يؤدي إلى حالة داخلية من الاستثارة . من ذلك ، مثلاً ، أن الفئران في حالة العطش ، يلاحظ عليها تزايد في دقات القلب عندما تقوم بالضغط على الرافعة من أجل الحصول على الماء ، حتى بعد أن يتناقص تكرار ضغطها على الرافعة نتيجة ازدياد شدة الدافع . ومع ذلك ، نجد أن هذا الرأي قد واجهته الاعتراضات . ذلك أن بعض الدوافع من قبيل الإحساس بالحرارة ، والتعب ، والحرمان من النوم يبدو أنها تؤدي إلى انخفاض مستوى الإثارة الداخلية .

كل هذه المشكلات جعلت عدداً من علماء النفس يتشككون في مفهوم الأثر التنشيطى للدافع . فإذا لم يكن الدافع عبارة عن حالة داخلية من الاستثارة العامة ، فما هي حقيقته ؟ من الإجابات الممكنة على هذا السؤال أن الدافع لا يعدو أن يكون مثيراً - داخلياً أو خارجياً . ولعل المصادر الخارجية للدوافع ، مثل الألم الناتج عن الصدمة الكهربائية ، تتفق إلى حد كبير مع هذه النظرية إلى الدوافع على أنها أنواع من المثيرات . فقد اتضح ، على سبيل المثال ، أن المستويات المختلفة من شدة الصدمة يمكن أن يتم التمييز فيما بينها بنفس الصورة التى يتم بها التمييز بين المثيرات الأخرى .

ومن هنا كان السؤال الهام هو ما إذا كان من الممكن أن نبين أن للدوافع الداخلية

خصائص المثيرات . ولما كان من أهم خصائص المثير أنه يمكن التمييز بينه وبين غيره من المثيرات إلى حد ما ، فإذاً ، يصبح من الواجب إمكان تمييز المثيرات التي تكون مرتبطة بدوافع داخلية . وقد اتضح ذلك في تجارب أجراها كلارك هل Clark Hull ، وروبرت ليبر Robert Leeper وغيرهما . فقد أمكن تدريب القثران على الجرى في ساق متاهة مصنوعة على شكل الحرف الإنجليزي (T) ، وأن تستدير إلى إحدى الناحيتين في أيام الجوع لتحصل على الطعام ، وإلى الناحية المقابلة في أيام العطش لتحصل على الماء . كما أنه يمكن تدريب الحيوان على أن يستدير إلى إحدى الناحيتين حين يكون جائعاً بدرجة طفيفة ، وإلى الناحية الأخرى حين يكون جوعه شديداً .

وهكذا يفترض أصحاب النظرية التي تربط بين الدافع والمثير أن هناك طائفة متميزة من المثيرات مرتبطة بكل دافع . وأن هذه المثيرات قد تكون خارجية بالنسبة لبعض الدوافع ، وداخلية بالنسبة لبعض الدوافع الأخرى . كما أن زيادة الدافع معناها ازدياد شدة هذه المثيرات ، أو زيادة عددها ، أو زيادة احتمال ظهورها . وبالنسبة لبعض أصحاب هذا الاتجاه النظري نجد أن الإثابة تتألف من خفض هذه المثيرات - فالهرب من الصدمة يخفض من مثير الصدمة ، والأكل قد يكف المثيرات الصادرة عن المعدة والهيوثلاموس .

لكن أصحاب هذا الاتجاه النظري لا يزالون مطالبين بأن يفسروا لنا السبب في أن هناك دوافع محددة لها في بعض الأحيان ما يبدو أنه تأثير منشط على السلوك . والواقع أنهم يفسرون ذلك بافتراضهم أن النشاط العام والاستثارة الداخلية تتألفان من سلسلة من الاستجابات المتعلمة للإشارات الداخلية والخارجية ، لكل من المثيرات الدافعة والمثيرات المحايدة . مثال ذلك أن الحيوانات التي حرمت من الطعام قد لا يظهر عليها ازدياد النشاط إلا بعد أن يضىء المحرب ضوءاً معيناً أو يلقى جرساً خاصاً . وقد يكون هذا نتيجة لارتباطات متعلمة بين المثيرات والاستجابات .

الخلافاً لم ينحل بعد . وما نستطيع أن نقوله الآن هو أن الدوافع من قبيل الجوع

تتضمن بعض المثيرات الداخلية . وأن هذه المثيرات الداخلية قد تكون الإشارات الصادرة عن المعدة ، ومجرى الدم ، والهيوثلاموس . كما أن هناك أيضاً مثيرات خارجية مثل منظر الطعام . كذلك قد يتضمن الدافع ، في بعض الأحوال ، استثارة عامة لكل الكائن العضوى وذلك بالإضافة إلى استجابات محددة للإشارات . وسوف نناقش في الفصل الخامس الذى نتحدث فيه عن الدوافع الانفعالية الأساس الفسيولوجى للاستثارة الداخلية .

طبيعة الإثابة

وإذا كانت وجهة النظر الهوميوستازية تتنبأ بأن الظروف التى من شأنها أن تحدث انحرافاً عن التوازن تولد دافعاً ، فإنها تتنبأ كذلك أن الظروف التى تعيد الجسم إلى الاتزان الهوميوستازى تشبع الدافع وتعمل بوصفها نوعاً من الإثابة . وهكذا نجد كلارك هل يسوى بين الإثابة وبين خفض الحاجة . وقد ظلت هذه التسوية موضع الشك فترة من الزمن . من ذلك ، مثلاً ، أن نيل أ. ميللر Neal E. Miller أشار إلى أن تأثير ذلك القرص الصغير من الطعام فى خفض الحاجة لا بد وأن يكون محدوداً وآجلاً ، ولكنه ، مع ذلك ، يؤدى عمله بوصفه إثابة قوية للحيوان الجائع . أضف إلى ذلك أن الحيوان قد يصل إلى حالة الشبع ويتوقف عن الضغط على الرافعة من قبل أن تتغير حاجة الأنسجة بفترة زمنية طويلة . فالظاهر ، إذن ، أن هناك شيئاً آخر مسئولاً غير خفض الحاجة . ولذلك ، سوف نقوم الآن بدراسة طبيعة عمليتى الشبع والإثابة المتصلتين بالجوع وفى شئ من التفصيل ، ثم سوف ندرس بعد ذلك عدة أمثلة على الإثابة التى لا توجد أية صلة بينها وبين خفض الحاجة الفسيولوجية .

الجوع

ناقشنا فيما سبق الميكانيزمات الفسيولوجية المتضمنة فى استثارة الجوع . والآن نسأل عن الميكانيزمات المتصلة بخفض الجوع ، وإحداث الشبع ، وإحداث تأثير الإثابة . من وجهة النظر البيولوجية الخالصة نجد أن العملية لا تتم إلا بعد أن تصل المواد

الكيميائية الحيوية اللازمة إلى الخلايا . لكن هذا لا يتحقق إلا بعد تناول الطعام بعدة ساعات ولا يمكن أن يفسر الإحساس السريع بالشبع وما يحدثه تناول الطعام من إثابة . ولذلك . فلا بد من أن هناك ميكانيزمات فسيولوجية من شأنها أن تستبق أو تتوقع خفض الحاجة البيولوجية .

إن الميكانيزم ذا الأهمية المركزية في خفض الجوع نجده كذلك في الهيوثلاموس . ذلك أن ميكانيزم الشبع يقع في جزء من هذا العضو منفصل عن منطقة التغذى . والظاهر أن عمله يؤدي إلى توقف سلوك الأكل . ولو أن هذا الميكانيزم أصابه التلف . لنشأت حالة إفراط في الأكل ، فيزيد الحيوان كثيراً من مقادير الأطعمة التي يتناولها ويتحول إلى السمنة . وعلى العكس من ذلك ، نجد أن التنبه الكهربى لهذه المنطقة يؤدي إلى تناقص الأكل . ومع ذلك ، فإن نيل ميلر وأعوانه كانوا يحاولون أن يبينوا أن تنبيه هذه المنطقة يمكن أن يؤدي إلى الإثابة ، ولكنهم وجدوا أن التنبه ذاته منفر للحيوان . إذ كانت الحيوانات تضغط وهي مترددة على الرافعة لتحصل على التنبه ثم تسرع إلى إنهاء التنبه . والعلماء يرجون أن توضح الأبحاث في المستقبل ما يكتنف هذه الميكانيزمات من تعقيد حالياً . لكنهم ، مع ذلك ، لا يكادون يتشككون في أن هناك نوعاً من الميكانيزم المتصل بالشبع في الهيوثلاموس .

والآن بواجهنا السؤال : ما هي مصادر المعلومات التي تؤثر في ميكانيزم الشبع في الهيوثلاموس ؟ هناك ثلاثة احتمالات رئيسية - مستقبلات المذاق في الفم ، انتفاخ المعدة ، والحالة الكيميائية الحيوية للدم . أما دور المذاق والمعدة في خفض الجوع فقد أظهره مارتن كون Martin Kohn الذي استخدم طريقة تعرف بطريقة أنبوبة المعدة (Stomach-Fistula method) . وفي هذه الطريقة توضع أنبوبة من البلاستيك في معدة الفأر لتمر من خلال جدار الجسم وتمتد تحت الجلد ، ثم تصل إلى الرقبة من الخلف حيث لا يستطيع الفأر أن يهرشها . وبذلك يمكن حقن الطعام مباشرة في المعدة أو أن يتناول الفأر طعامه بالطريقة العادية . واستخدم كون معدل الضغط على الرافعة من أجل الطعام بوصفه مقياساً للجوع . وكانت الحيوانات ، قبل أن تتعرض لاختبار الضغط على الرافعة ، إما أن تتناول عن طريق الفم مزيجاً من اللبن (الأكل

العادى) ، أو أن تحقن في معداتها مباشرة نفس الكمية ، أو أن تحقن في معداتها كمية من محلول الماء المالح على سبيل الضبط التجريبي . وتبين أن أكبر خفض للجوع كان يحدث عند تناول الطعام بالفم ، وأن حقن الطعام في المعدة مباشرة يخفض الجوع إلى حد ما كذلك . وعلى ذلك ، يمكن القول بأن كلا من التنبيهات الصادرة عن المذاق والمعدة متضمنة في خفض الجوع .

ثم تلا هذا أن نيل ميلر وأعوانه تمكنوا من إثبات أن الفأر يمكنه أن يتعلم استجابة ما للحصول على إثابة هي أن يحقن اللبن مباشرة في المعدة . ذلك أن هؤلاء الباحثين كانوا يحقنون الفئران بالحليب إن هي انحرفت إلى اليسار في متاهة بسيطة على شكل حرف T ، ويحقنونها بمحلول الملح إن هي اتجهت إلى اليمين ، وبعد ثلاثين محاولة تقريباً ، تعلمت الفئران أن تتجه إلى الجانب الذى تحصل منه على الحليب . وكان هذا أبطأ قليلاً مما لو كانت الإثابة قدمت عن طريق الفم ، ولكنه ، مع ذلك ، لاشك في أن الطعام الذى يحقن مباشرة في المعدة يكون إثابة كافية للتعلم .

كذلك يبدو من المنطقي أن نتوقع أن يكون في حقن المادة الغذائية في مجرى الدم مباشرة نوع من الإثابة . وقد تبين أن هذا الأمر من الصعب تنفيذه من الناحية الفنية ، إلا أن راندال م. تشامبرز Randall M. Chambers نجح في بيان هذه الظاهرة في الأرانب . فقد ثبت أنبوبة كبيرة الشبه بالجهاز الذى يستخدم في المستشفيات للتغذية في الوريد ، ثبتت بوريد الأذن في كل واحد من الأرانب . وكان الاختبار يتم في جهاز له عدة ألواح أرضية . وكان الأرنب إذا جلس على لوح منها اندفع الجلوكوز إلى وريده ، وإذا جلس على لوح آخر اندفع محلول سكرى غير غذائى إلى الوريد ، وإذا جلس على لوح ثالث اندفع محلول ملحي عادى . وقد أظهرت النتائج أن الأرانب تعلمت أن تجلس على اللوح المرتبط باندفاع محلول سكر الجلوكوز المغذى وأن تقضى وقتاً أكثر وهي مستقرة فوقه . ولم يحدث هذا بالنسبة للمادة الحلوة غير الغذائية ، ولا للمحلول الملحي . كما أظهرت اختبارات الأكل التالية أن الأرانب التى كانت تتلقى الجلوكوز كانت أقل جوعاً .

فكيف ينخفض حقن الجلوكوز من الجوع؟ لعله من الممكن ، وإن كان من غير المحتمل ، أن حاجات الأنسجة تنخفض مباشرة بوجود السكر . أو قد يكون السكر قد غير من بعض المواد الكيميائية الأخرى في الدم . كذلك من الممكن أن تكون مستقبلات المذاق في اللسان قد تأثرت . فإن بنى الإنسان يقررون أنهم يشعرون بمذاق حلوى أفواههم بعد أن يتم حقن الجلوكوز في أذرعهم بثوان قليلة . وأخيراً ، قد يكون وجود الجلوكوز في الدم ينبه ميكانيزم الشبع في الهيبوثلاموس .

الواقع أن هذا المجال من الدراسات جديد بأكمله . ونتائج الأبحاث تخرج علينا باستمرار . ولعلنا نتمكن خلال السنوات العشر القادمة من أن نعلم المزيد عن الأساس الفسيولوجى للإثابة والشبع . وأما بالنسبة لما نعرفه الآن بالفعل فإننا نقول إن خفض الجوع يتضمن عديداً من الميكانيزمات - في الفم ، والمعدة ، ومجرى الدم - وأن هذه الميكانيزمات ينسق الدماغ بينها ، وبصفة خاصة الهيبوثلاموس .

ثم إن ما نعلمه عن الشبع وعمليات الإثابة في الدوافع الأخرى غير الجوع أقل من ذلك بكثير . وإن كانت الأبحاث الحديثة تشير إلى أن العطش مشابه إلى حد ما . فإن العطش يمكن خفضه عن طريق تناول الماء بالفم ، أو إدخاله إلى المعدة ، أو حقنه مباشرة في الهيبوثلاموس . كما أن الإثابات الأخرى يحتمل أن تتضمن كذلك عدداً من الإشارات المحيطية^(١) التي تؤثر في ميكانيزمات الدماغ .

الإثابات المستقلة عن خفض الحاجة

رأينا فيما سلف أن هناك عدداً من العوامل متضمنة في خفض دافع من قبيل الجوع ، فإن الإشارات الصادرة من حلقات التذوق في الفم ، وامتلاء المعدة ، والحالة الكيميائية للدم لها تأثيرها في ميكانيزمات الشبع في الهيبوثلاموس . وفضلاً عن

(١) أى الإشارات التى تحدث نتيجة استشارات معينة و الجهاز العصبى المحيطى . peripheral .
أو الخارجى الذى يشمل الأعصاب الدماغية والأعصاب النخاعية الشوكية التى تصل الدماغ والنخاع الشوكى بجميع أعضاء الجسم (المترجم) .

ذلك ، فإن وجود الطعام في الفم ، والمعدة ، ومجرى الدم يعمل باعتباره إثابة . ثم إن تأثيرى الشبع والإثابة يمكن أن نلاحظهما ونشهدهما من قبل أن يطرأ التغير على الحاجات الفسيولوجية للخلايا الفردية بزمان طويل . ولكن الطعام ، مع ذلك ، يؤدي في آخر الأمر إلى خفض الحاجات الفسيولوجية بحيث نجد أن النتائج غير حاسمة إلى حد ما .

لكن هناك أيضاً أنواعاً من الإثابة لا تنخفض من حدة الحاجة الفسيولوجية في أى وقت من الأوقات . وأوضح الأمثلة عليها هو مادة السكرين . ذلك أن السكرين مادة كيميائية حلوة المذاق ، مرغوبة مقبولة ، ولكنها لا تزود الكائن بالطاقة ، وهي تدخل الجسم وتخرج منه دون أن يطرأ عليها تغيير ما . وهذا هو السبب الذى يجعل الإنسان الذى يلتزم بنظام في التغذية يجد في السكرين بديلاً مفيداً عن السكر . وقد تبين أن هذه المادة غير المغذية يمكن أن تعمل بوصفها إثابة قوية للحيوانات في مواقف التعلم .

وعلى الرغم من أن من الواضح أن السكرين لا ينخفض حاجة فسيولوجية ، إلا أنه ، في الواقع ، ينخفض من دافع الجوع . وقد استطاع نيل ميلر - وزميله وارن روبرتس Warren W. Roberts ، والمؤلف من أن يشبوا ذلك بأن يزودوا الفئران بمحلول السكرين أولاً ، ثم باختبار درجة الجوع عندها ثانياً . أما الفئران التى قدم لها السكرين أولاً فقد تناولت مقادير أقل من الطعام وكانت تضغط على الرافعة للحصول على التدعيم بالطعام بمعدل أقل تكراراً من الفئران الضابطة . وهذا التأثير يعتمد كل الاعتماد على التذوق ، مما يوحي بأن التنبيه الحسى المباشر يمكن أن يؤثر في الدافع من غير أن ينخفض الحاجة الفسيولوجية .

كما أن استقلال الإثابة والعقاب عن الحاجة الفسيولوجية قد تبين بصورة واضحة جداً عندما اكتشفنا أن التنبيه المباشر لمناطق معينة في الدماغ يمكن أن يكون له فعل الإثابة أو العقاب . ذلك أن جيمس أولدرز James Olds وزملاءه قاموا بغرس أسلاك في منطقة من الدماغ عند الحيوانات تتضمن الجزء الأمامى من الهيبوثلاموس وما يتصل به اتصالاً وثيقاً من أجزاء الجهاز الطرفى من الدماغ . (هذا الجهاز الطرفى تجد له شرحاً

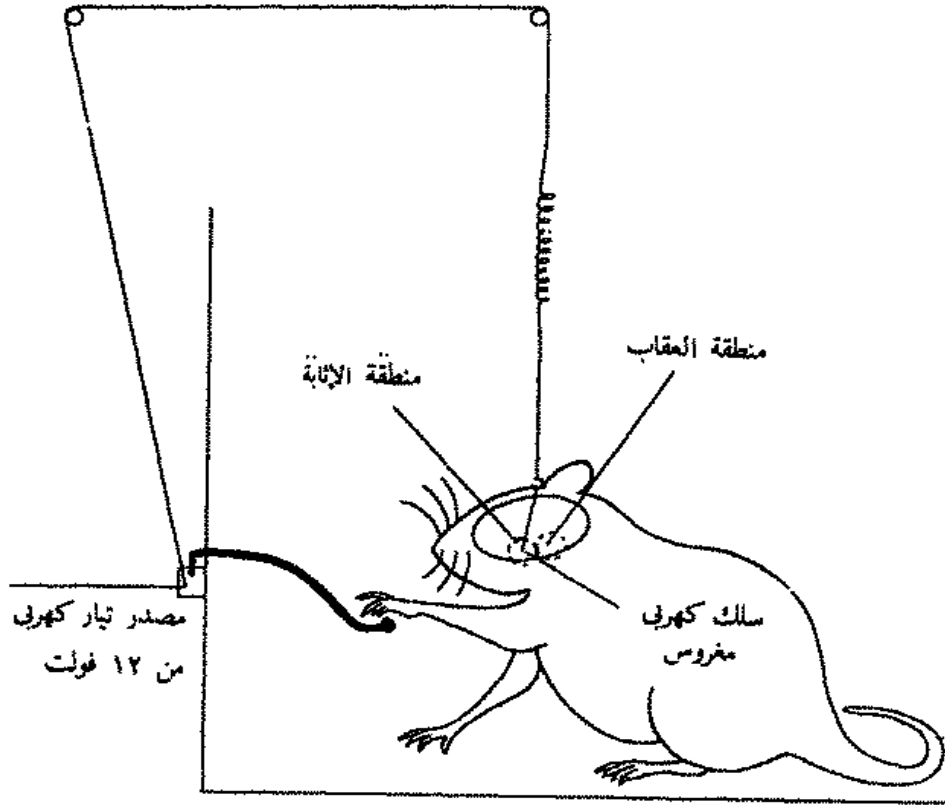
وتوضيحاً في الفصل الخامس) . وقد تم تصميم جهاز يستطيع الحيوان فيه أن يضغط على الرافعة ليسرى التيار الكهربائي . ويتضح هذا من الشكل رقم (٤) . وتبين أن هذا التيار الكهربائي الذي يوجهه الحيوان لنفسه نوع من الإثابة القوية عند الفئران ، والقطة ، والقردة . فإن الحيوانات تتعلم الضغط على الرافعة حتى بعد أن يرتفع التيار إلى مستويات عالية من الفولت . ومن غير أن يبدو عليها أنه أصابها التعب من ذلك . أما إن تم فصل مصدر التيار الكهربائي ، فإن الحيوانات يبدو عليها تأثير الانطفاء بالضبط كما يبدو عليها ذلك عندما ينقطع حصولها على أقراص الطعام .

على أن هناك بعض البراهين التي توحى بأن التنبيه الذاتي للدماغ في المنطقة المشيئة إنما يعمل عن طريق تزويد الحيوان بنوع من الإحساس باللذة . بل إن بعض الناس غالوا في ذلك وجعلوا يتحدثون عن مركز « اللذة » في الدماغ . وهذه الأدلة مستمدة من دراسات أجريت على بعض المتطوعين من مرضى السرطان المتقدم والذين غرست الأسلاك الكهربائية في منطقة الإثابة من الدماغ عندهم . وقد ذكروا بصفة عامة أنهم أحسوا باللذة . وبنقص التوتر ، وبازدياد التنبيه ، ولو أن عددًا قليلاً من المرضى ظهرت عليه زيادة في التوتر .

وأما تلك الأجزاء من الجهاز الطرفي التي هي أقرب إلى مؤخرة الدماغ فيبدو أنها منطقة العقاب . ذلك أن نيل ميلر وأعوانه تمكنوا من بيان أن الحيوانات يمكنها أن تتعلم إدارة عجلة من شأنها أن يوقف التنبيه الكهربائي لهذه المنطقة . ولو أننا جعلنا التنبيه الكهربائي تسبقه نغمة صوتية معينة ، لتعلمت الحيوانات أن تتجنب التيار . وهكذا نجد أن هذا القسم المتأخر من الجهاز الطرفي يتصل بكل من الخوف والألم .

وعلى الرغم من أن التنبيه الكهربائي للجهاز الطرفي لا يؤدي إلى خفض لإحدى الحاجات الفسيولوجية ، إلا أن تأثير الإثابة ليس عديم الاتصال بحالة الدافع . فقد أظهرت عدة دراسات أن الحيوانات تزداد سرعة أدائها للحصول على التنبيه الكهربائي عندما تكون في حالة الجوع . وهذا يوحي بأن لمنطقة الإثابة اتصالاً ما بالجوع العادي . كذلك وجد أولدر أن هناك نقاطاً معينة في منطقة الإثابة تكون أكثر إثابة عندما نحرم

الحيوانات من الطعام ، ونقاطاً أخرى تكون أكثر إثابة عندما تعطى الحيوانات هورمونات جنسية يفترض أنها تزيد من الدافعية الجنسية . وهكذا يبدو أن ميكانيزمات الدماغ هذه مرتبطة بعدة دوافع مختلفة . ومع ذلك ، فإن الأمر المهم الذى ينبغى أن نتذكره دائماً هو أن تأثير الإثابة الناتج عن تنبيه الدماغ لا يعتمد على خفض حاجة فسيولوجية .



شكل ٤ - تنبيه الحيوان للماته تنبيهاً عجباً . حيوان غرس أحد أسلاك الكهرباء في منطقة «الإثابة» بالمخ أمكنه أن يتعلم الضغط على الرافعة في صندوق سكر ليحدث تياراً كهربياً معتدلاً . فالضغط على الرافعة يؤدي إلى ظهور التيار الذى يحمله سلك خفيف مرن يتدلى من مكان يقع فوق صندوق سكر . وأما التنبيه في منطقة «العقاب» فإنه أمر منفر للفأر يعمل على تجنبه .

(J. Olds. Physiological mechanisms of reward. In M.R. عن معدل Jones (ed.), Nebraska symposium on motivation. Lincoln: University of Nebraska press, 1955.)

أفكار جديدة عن دوافع الاتزان الحيوى

النتيجة التى تلزم عن كل الأدلة التى ذكرناها فى هذا الفصل هى أن العلاقة بين الحاجة الفسيولوجية والدافعية النفسية علاقة على درجة بالغة من التعقيد . والذى لاشك فيه هو أن الدوافع ليست مجرد انعكاسات بسيطة لاختلال الاتزان الحيوى ، كما أن الإثابات ليست مجرد إصلاحات بسيطة للاختلال . فدافع الجوع ، مثلاً ، يمكن استثارته من غير حاجة فسيولوجية ، كما أنه ليس كل افتقار إلى عنصر من العناصر الغذائية يؤدي إلى الجوع ، كما أن مذاق مادة ما قد يخفف الجوع ، كما قد يكون التنبيه الكهربى للدماغ الحيوان مثيراً له إن كان جائعاً . ومن الواضح أن الاتزان الحيوى لا يفسر لنا تفسيراً تاماً لا الدوافع ولا الإثابة . فهل هناك تفسيرات أخرى ممكنة ؟

من التفسيرات الممكنة تلك التفرقة التى يقدمها نيل ميلر فيما بين الحاجة الفسيولوجية والدافع النفسى . قد يكون بينهما ارتباط ، ولكنها ليسا شيئاً واحداً . فأما الحاجة الفسيولوجية فإنها عملية بيولوجية خالصة تنطوى على اختلال الاتزان الحيوى الذى تحدثنا عنه . وأما الدافع النفسى فإنه طائفة من المثيرات تنشأ عن حالات نفسية من قبيل أن تنقضى فترة طويلة لا يتم الحصول فيها على طعام ، أو أن تصل إلى أنف المرء رائحة شواء لحم جذابة ، أو أن يشعر المرء بالجوع عند الافتقار إلى الأمن والطمأنينة . وكذلك نقول إن خفض المثير الدافع يختلف عن خفض الحاجة ، إذ أنه يمكن خفض دافع مثل الجوع بواسطة تذوق الطعام أو مادة غير غذائية مثل السكرين .

وهناك فكرة ثانية تأتينا من عند أصحاب نظريات اللذة من أمثال بول يونج Paul Young ودافيد ماكليلاند David McClelland وهم يفسرون الإثابة على أساس من اللذة . والواقع ، إن تأثير الإثابة القوى للسكرين غير الغذائى حلو المذاق ، ولتنبيه الدماغ المثير للذة من شأنه أن يدعم وجهة نظر أصحاب مبدأ اللذة . كما أن تأثير حالات الدافع مثل الجوع يمكن تفسيره بأنه يزيد من خاصية اللذة للإثابات المختلفة .

وأخيراً ، نجد هناك فرضاً معقولاً يتقدم به عدة باحثين . هو أن الدوافع النفسية والإثابات تتوسط فيها ميكانيزمات للدماغ تتوقف على الاستشارة الخارجية بنفس الدرجة التي تتوقف بها على التنبهات الدافعية الداخلية . واللذة والألم قد تكونان الوسيلة المباشرة للتأثير في سلوك الشخص . وهذه الميكانيزمات لها تأثير جانبي هو أنها تخفض الحاجة الفسيولوجية في نسبة مثوية محددة من المرات . ومن المحتمل أن تكون ميكانيزمات الدماغ قد نشأت وتطورت ببطء . وإنها تميل إلى زيادة فرص البقاء . كذلك من الممكن أن تنشأ في المستقبل ميكانيزمات أخرى للدماغ في مواجهة الظروف البيئية المتغيرة . وقد ذهب أحد علماء الوراثة إلى أن من الممكن توليد نوع من الإنسان يمكنه أن يحس بالإشعاع الذري ويستجيب له بوصفه دافعاً منفراً . كما أننا نستطيع في الوقت ذاته أن نعد الجوع والعطش بمثابة دافعين خاصين بالانتران الحيوى بسبب أنها ذاتا صلة بالحاجات الفسيولوجية ، ولكن يجب أيضاً أن نتذكر أن هذين الدافعين تتوسط فيهما ميكانيزمات للدماغ ليست مرتبطة ارتباطاً كاملاً بحالات الانتران الحيوى الداخلية .

الفصل الرابع

الدافعية الجنسية

صدم سيجموند فرويد Sigmund Freud المجتمع الفيكتوري عندما أصر على أن الجنس قوة دافعة شديدة في سلوك الإنسان ، وأنه يمكن وراء مشاهد الحياة المدنية المتحضرة ، ووراء الخلافات الزوجية ، والأعراض العصابية ، والأحلام التي تبدو في ظاهرها بريئة . قد نحسب أنفسنا أكثر تفتحاً ، ولكن الواقع أن مناقشة الأمور الجنسية لا تزال تجعلنا نشعر بالحرج والضيق . وقد بلغ من استجابة الجمهور الأمريكي لتقرير ألفرد كينزي Alfred Kinsey عن الدراسة الإحصائية الضخمة التي أجراها للحياة الجنسية عند الأمريكيين أنهم رأوا فيه عاملاً يدعو إلى الفساد ويرر ارتكاب كل أنواع الانحرافات . أمثال هذه الاتجاهات هي التي تجعل الدراسة العلمية الجادة للدافعية الجنسية أمراً يصعب تحقيقه .

فما هي طبيعة الدافعية الجنسية ؟ نقول أولاً إن الدافعية الجنسية تبدو مختلفة عن الدوافع التي ناقشناها في الفصل السابق . فإنه لا وجود لوظيفة هوميوستازية ظاهرة في الدافعية الجنسية . صحيح أن هناك وظيفة بيولوجية هامة للدافعية الجنسية ، ولكن هذه الوظيفة هي المحافظة على النوع ، لا على الفرد ذاته . ولذلك ، سوف يوضح تحليلنا للدافعية الجنسية عدة أمور منها أن مبدأ الاتزان الحيوي يقصر عن أن يكون نموذجاً لتفسير كل الدوافع . على أننا سوف نناقش أولاً الميكانيزمات الفسيولوجية في السلوك الجنسي ، ثم نناقش طبيعة الجنس بوصفه دافعاً ، وأخيراً تطور الدافعية الجنسية ودورها في الشخصية .

الأساس الفسيولوجي للسلوك الجنسي

يتوقف السلوك الجنسي . عند الذكر والأنثى ، على مزيج من العوامل الداخلية والخارجية. أما العوامل الداخلية فإنها الهرمونات وميكانيزمات الدماغ ، وأما العوامل الخارجية فإنها مشيرات بيئية متعلمة وغير متعلمة . وقد كان الناس يحسبون في زمن مضى أن السلوك الجنسي يعتمد اعتماداً كاملاً تقريباً على الهرمونات الجنسية . ولكن الأبحاث الحديثة أظهرت أهمية عدد من العوامل الأخرى . وسوف نرى أن هناك فروقا تطورية (بين الفصائل الحيوانية) في الأهمية النسبية لهذه العوامل في السلوك الجنسي . والآن نناقش ، أولاً ، دور الهرمونات الجنسية ، ثم نعود إلى ميكانيزمات الدماغ والمثيرات البيئية .

الهرمونات الجنسية

تقوم خصيتا الذكر ، بالإضافة إلى إنتاج الحيوانات المنوية اللازمة للتكاثر ، بإفراز الهرمونات الذكورية (الأندروجينات) ومقداراً ضئيلاً من الهرمونات الأنثوية (الإستروجينات) . أما في فترة ما قبل البلوغ فإن إنتاج كل من النوعين يكون منخفضاً جداً ، وأما عندما يقترب الذكر من البلوغ ، فإن كمية الأندروجينات تزداد ازدياداً ملحوظاً . وهذا الازدياد في الأندروجينات لا يقتصر أثره على تنشيط ظهور الخصائص الجنسية الثانوية فقط ، بل إنه يرتبط كذلك بازدياد ملحوظ في الميل الجنسي والنشاط الجنسي . ثم إن التدهور الجنسي الذي يقع بعد ذلك في السنوات الأخيرة قد يرجع إلى تناقص في إنتاج الهرمونات .

والإخصاء التجريبي يزودنا بالإثبات المباشر لتأثير الهرمونات على السلوك الجنسي عند الذكر . في هذا النوع من التجارب يتم القضاء على المصدر الرئيسي للهرمونات الذكورية عن طريق الاستئصال الجراحي للخصيتين . وعلى الرغم من أن التأثير العام للإخصاء هو إنقاص السلوك الجنسي ، إلا أن هذه العبارة ينبغي أن تُعدل من عدة نواح . أول هذه التعديلات أن تأثير الإخصاء يكون منحوظاً بدرجة أكبر إذا وقع قبل البلوغ - وقد كانت هذه هي الوسيلة التي يتبعها

الأقدمون لإعداد (الأغوات أو الخصيان) الذين يتولون حراسة الحرم . ثم إن تأثير الإخصاء يعتمد ثانياً على المرحلة التطورية التي وصل إليها النوع . من ذلك أن الثدييات الدنيا ، من قبيل الفئران وخنازير غينيا ، يظهر عليها التدهور السريع الكامل في النشاط الجنسي عقب الإخصاء ، على حين أن الثدييات الأكبر . مثل الكلاب ، قد تحتفظ بقوتها عدة سنوات ، بينما يظهر على الحيوانات العليا . مثل الشمبانزى ، أن النشاط الجنسي عندها لم ينقص لفترة غير محددة .

وأما الموقف بالنسبة للإنسان فإنه ، كما هو المتوقع ، على أشد درجات التعقيد كلها . ذلك أن بعض الناس يقررون أنه بعد الإخصاء يحدث فقدان الميل الجنسي أو انهيار ملحوظ فيه . بينما يقرر بعضهم الآخر أن نشاطهم يظل على نفس المستوى من الارتفاع فترة تبلغ من الطول ثلاثين سنة . فالظاهر أن الجنس عند الإنسان يتأثر تأثيراً كبيراً بالعوامل النفسية . وقد كتبت تقارير إكلينيكية عن أناس يعانون من العنة (الضعف الجنسي) وهم مقتنعون بأن السبب عبارة عن نقص هورمونى . فلما قيل لهم إن مستوى الهورمونات عندهم عادى ، إذا بهم يتخلصون مباشرة من العنة ويتحولون إلى المقدرة . كما أن النشاط الجنسي الذى نقص بسبب الإخصاء يمكن أن يستعاد بإعطاء الهورمونات ، وذلك كما ثبت بالنسبة لعدة أنواع حيوانية منها الإنسان .

كذلك يتأثر السلوك الجنسي عند الإناث بالهورمونات ، ولو أن العلاقة هنا أكثر تعقيداً . ذلك أن النشاط الجنسي عند الإناث ، وكذلك ظهور الخصائص الجنسية الثانوية ، يزداد عند البلوغ بواسطة الهورمونات الأنثوية التى ينتجها المبيضان بالإضافة إلى كمية صغيرة من الهورمونات الذكورية . ومع ذلك ، فإن البلوغ يحدد كذلك بداية الدورة الشهرية أو دورة الخصوبة عند الإناث .

على أن دورة الخصوبة عند الإناث ، وهى تدوم عند بنى الإنسان زهاء أربعة أسابيع ، ينظمها التفاعل المعقد فيما بين هورمونات المبيضين من ناحية والغدة النخامية من ناحية أخرى . وبصورة موجزة نقول إن أحد المبيضين يعد البويضة

للإخصاب خلال الأسبوعين الأولين من الدورة ، وأن المبيضين معاً يفرزان
هورمون الأنثوي المعروف بالإستروجين . والإستروجين بعد الرحم لا نفراس
البويضة فيه ، كما أنه يميل فيما يبدو إلى إثارة الميل الجنسي . ثم يحدث التبويض
بعد أسبوعين تقريباً - وتبدأ البويضة المخصبة رحلتها إلى الرحم . وفي نفس الوقت
نجد المبيضين يشرعان في إفراز البروجستيرون Progesterone - هورمون
الأمومة الذي يزيد من إعداد الرحم لانفراس البويضة فيه ، كما يعد الغدد اللبية
بصورة غير مباشرة للإرضاع .

ثم إن الدافع الجنسي عند الأنثى في الثدييات الدنيا يكون مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً
بدورة الخصوبة . ذلك أن الأنثى لا تكون متقبلة للذكر إلا خلال فترة التبويض .
وأما في مستويات التطور العليا فإن السلوك الجنسي لدى الأنثى لا يكون مرتبطاً
هذا الارتباط القوي بدورة الخصوبة . فقد لوحظ أن القرود والنسانيس تمارس
النشاط الجنسي خلال كل مراحل دورة الخصوبة ، ولو أن الاستثارة الجنسية
والنشاط الجنسي يكونان على أشدهما في مرحلة التبويض . كما أن إناث القرود قد
تبدى أيضاً قدراً أكبر من الاختيار فيما بين الذكور ، فتقبل هذا الذكر وتنفر من
ذاك الآخر . كل هذا يشير إلى تناقص تحكم الهورمونات ، وظهور العوامل
الاجتماعية والانفعالية .

وأخيراً ، نجد في المستوى الإنساني أن تأثير الهورمونات على النشاط الجنسي
لدى الإناث تطفى عليه العوامل النفسية . فالنساء يشتركن في النشاط الجنسي
بصورة منتظمة ، وفي كل أوقات دورة الخصوبة . وربما كان هذا راجعاً بصورة
جزئية إلى الرغبة الجنسية عند الذكر ، ولكن هناك أدلة تشير إلى أن النساء يكن
مستجيبات إلى درجة ما في كل الأوقات . صحيح أن هناك إيقاعاً للرغبة الجنسية
عند معظم النساء ، ولكن هناك عدة دراسات قامت على الاستبيان تبين لنا أن
هذا الإيقاع يتزامن مع التبويض . ومعظم النساء يقررن أنهن يجربن أشد الاشتاء
قبل الحيض بفترة قصيرة ، أو بعده بفترة قصيرة . وإذا كانت الأحلام تبين لنا مع
ذلك تأثير الهورمونات ، فإن من الممكن أن يكون انعكاس الصورة عند أنثى

الإنسان راجعاً إلى عملية كَفَّ تقع عند ذروة الدورة التزوية بسبب الخوف من الحمل .

ولاستئصال المبيضين ، أو إخصاء الأنثى ، آثار شبيهة بآثار إخصاء الذكور . أما عند الحيوانات الدنيا ، فإن مثل هذه العملية تؤدي إلى القضاء التام على السلوك الجنسي عند الأنثى ، وبذلك لا يصبح الذكر يشعر بالانجذاب نحوها . وأما الشمبانزى والقردة الأخرى فإنها قد تظل تكشف عن الاستجابية الجنسية بعد استئصال المبيضين ، ولو أن الدورة المعتادة للاستجابية تزول وينخفض المنسوب العام للنشاط الجنسي . على حين أن النسوة اللائى يتأصل المبيضان عندهن أو يصلن إلى سن اليأس لا يفقدن بالضرورة رغبتهن الجنسية . بل الواقع أن كثيراً منهن يبدن ازدیاداً فى الميل الجنسي ، ولعل ذلك يرجع إلى زوال الخوف من الحمل . وهنا أيضاً نجد أن صدور الهورمونات من المبيضين ليس أمراً جوهرياً بالنسبة للسلوك الجنسي عند أنثى الإنسان .

الميكانيزمات العصبية

رأينا أن الهورمونات لا تفسر لنا كل جوانب السلوك الجنسي ، وخصوصاً فى مستويات التطور الحيوانية العالية . وبذلك يصبح الجهاز العصبى هو الأساس الفسيولوجى الأولى للدافع الجنسي . وفيما يلى ندرس أربعة ميكانيزمات عصبية فى النشاط الجنسي - المستقبلات الحسية ، والمنعكسات الخاصة بالنخاع الشوكى ، والتكاملات الخاصة بالهيوثلاموس ، وتأثيرات الحاء المخ .

أما التنبيه اللمسى للمستقبلات الحسية فله دور هام فى الاستثارة الجنسية والتفريغ الجنسي . ذلك أن كل المستقبلات اللمسية المنتشرة على الجسم تسهم ، إلى درجة ما ، فى الاستثارة الشبقية . ولكن التركيز الرئيسى للمستقبلات الحسية المتصلة بالاستثارة الجنسية نجده فى الأعضاء التناسلية ذاتها - أو على التحديد فى حَشَفَة القضيب عند رأس عضو الذكر ، وفى البظر عند الأنثى .

وقد ثبت أن عدداً من المنعكسات الجنسية الأساسية يتحكم فيها الجزء

الأسفل من الحبل الشوكى وذلك بالنسبة للحيوانات من الضفادع وحتى الإنسان . وهذه المنعكسات (أو الأفعال المنعكسة) الشوكية تتضمن الانتصاب ، وحركات الحوض . والقذف عند الذكور . وقد لوحظ هذا عند جرحى الحروب من المقاتلين الذين أصيبوا بالشلل بعد أن انقطع حبلهم الشوكى فى المعارك . فإن هؤلاء المشلولين لا يستطيعون أن يحركوا بإرادتهم أطرافهم السفلى أو أن يستقبلوا الإحساسات من هذه الأطراف . ولكننا مع ذلك وجدنا حالة لأحد المشلولين نجح فى أن يلقيح زوجته مما يبين أن المنعكسات الشوكية تكفى للحد الأدنى من النشاط الجنسى .

وأما بالنسبة للكائن العضوى السليم ، فإن الاستثارة الجنسية والسلوك الجنسى تقوم على تنظيمها بصورة أساسية منطقة من مناطق الهيوثلاموس . وهنا نرى مرة ثانية أهمية هذه المنطقة الدقيقة من الدماغ بالنسبة لظاهرة الدافعية ، إذ وجدنا أن تدمير هذه المنطقة من الهيوثلاموس يقضى على السلوك الجنسى تماماً . والظاهر أن هذه المنطقة الجنسية من الهيوثلاموس تقوم على تنظيم العناصر التى هى أكثر تعقيداً من السلوك الجنسى . ومثال ذلك أن إناث الققط التى يصاب الهيوثلاموس عندها بالأذى لا يظهر عليها السلوك المعتاد الخاص بالربوض فى خضوع عند ما تكون مع الذكور ، بالرغم من أنها تحتفظ بالأفعال المنعكسة التناسلية .

والواقع أن الدور الذى تلعبه المستقبلات اللمسية ، والمنعكسات الشوكية ، والتنظيم الصادر عن الهيوثلاموس لا يختلف فيما بين فصائل الحيوان المختلفة بما فى ذلك الإنسان . أعنى أن هذه الأجزاء من الجهاز العصبى تتشابه إلى حد كبير فيما بين فصائل الثدييات المختلفة . كما أن التغير الكبير المصاحب للتطور يتركز فى حجم وأهمية لحاء أو قشرة المخ ، وهو تلك الطبقة الخارجية من المخ ، التى نجدتها عند الإنسان مفرطة الكبر والتعقيد ، والتى يظن عادة أنها تتوسط وظائف تقدير المثيرات البيئية ، والتعلم ، والتفكير ، وتنظيم أوجه النشاط المعقد . والآن نسأل عن دور اللحاء فى السلوك الجنسى ؟

قام فرانك بيتش Frank Beach بدراسة أثر التزاع بمقادير متفاوتة من نسيج اللحاء على السلوك الجنسي . وقد وصل به الأمر إلى حد أنه استأصل خمسة وسبعين بالمائة من اللحاء عند ذكور الفئران ليلاحظ سلوكها من بعد ذلك . وقد تبين له أن عدد مرات الجماع خلال الاختبار أخذ يتناقص كلما ازدادت نسبة ما يستأصل من لحاء المخ ، حتى إذا بلغ ما يستأصل نسبة الثلثين وجدنا السلوك الجنسي يختفي تماماً . ولم تكن لأية منطقة معينة من اللحاء دوراً أساسياً ، حيث أن اللحاء يعمل كوحدة كلية واحدة . وأما دور اللحاء في السلوك الجنسي عند أنثى الفأر فلا نجده بارزاً بهذه الدرجة .

ولعل أهم نتائج دراسات استئصال اللحاء هو ما ثبت من أن اللحاء تزداد أهميته كلما صعدنا في سلم التطور . أما القدرة الجنسية عند الثدييات الدنيا فلا تضطرب اضطراباً كبيراً بتدمير اللحاء . وأما الحيوانات العليا ، وربما الإنسان أيضاً ، فإنها تضطرب اضطراباً خطيراً بتدمير اللحاء . وقد سبق أن بينا أن المنعكسات التناسلية تتوقف على الحبل الشوكي الأسفل ، وأن القيام بالأنشطة الجنسية الأكثر تعقيداً يتوقف على ميكانيزمات الهيوثالاموس . وتدمير اللحاء إنما يؤدي إلى تعطيل استثارة المنبهات البيئية للميل الجنسي . وهذا يوحي بأن المنبهات البيئية تلعب دوراً أكبر في السلوك الجنسي عند المراتب التطورية العليا .

المنبهات البيئية

يذهب فرانك بيتش إلى أن الصورة الشائعة للوعل المستثار جنسياً والذي يتجول في أنحاء الغابة بحثاً عن قرين ليست صورة دقيقة تماماً . ذلك أن الوعل لا يكون مستثاراً على الدوام . وهو حين يلقى واحدة متقبلة من الإناث في جولاته العادية ، قد يستثار وقد لا يستثار . ولو أن مثل هذا الحيوان كانت أحواله الهورمونية طيبة لوجدنا أن العامل الجوهرى في الاستثارة الجنسية عنده هو المنبه البيئي - منظر الأنثى المتقبلة وصوتها ورائحتها .

على أن المنبهات الملائمة تتفاوت إلى حد كبير من فصيلة حيوانية إلى فصيلة

أخرى . فقد يكون التنبيه في بعض الأحيان كيميائياً - وذلك كما هو الحال عند ذكور حشرة العثة المعروفة باسم Gypsy moth والتي يجتذبها إفراس تفرزه الإناث . كما أن ذكور حشرة صرّار الليل Cricket تصدر صوت القرقة المعروف ، بينما تصدر ذكور الضفادع صوتها المعهود ، وذلك لاجتذاب الإناث الخصيبات . وأما السمك فإنه يصدر عنه نمط محدد من التودد أو المغازلة ، والذكور منه يجذبها لون الإناث ذات البيض وشكلها . والطيور تجد عندها عدة أنماط للمغازلة بما في ذلك حركات التبختر عند الطاووس ، وهجوم الحمام . وقد كان أحد هذه الأنماط مصدراً للإلهام بالنسبة للإنسان - وهذا النمط هو ما نجده عند بعض الطيور المعينة من مُناقرة وهديل . أما المناقرة فإنه التفاف المنقار حول المنقار وتحريك الرأس إلى أعلى وإلى أسفل ، مع ما يصاحب ذلك من أصوات الهديل .

وهناك اتجاهات تطورية هامة في طبيعة المنبهات البيئية التي تكون مثيرة جنسياً . أما الحيوانات الدنيا فإنه يستثيرها عدد محدود جداً وخاص من المنبهات البيئية - من قبيل بعض الروائح المعينة بالنسبة للأرانب ، وأما الثدييات الأعلى فإنها تعتمد على منبهات أكثر تعقيداً وتنوعاً . وأما الإنسان فإنه أشد الجميع تعقيداً ، كما تبدو عنده الآثار القوية للتعلم بالنسبة لاستجابته للمثيرات الجنسية .

على أن التعلم الحضارى يلعب عند الإنسان دوراً حيوياً في تحديد تلك الجوانب الجذابة من شخصية القرين . وقد كشفت الدراسات الأنثروبولوجية أن تصورات الناس عن جمال الأنثى تتفاوت تفاوتاً ملحوظاً من مجتمع إلى مجتمع . ففي بعض المجتمعات نجد أن المرأة النحيلة المستديرة استدارة خفيفة تعد أكثر النساء جاذبية ، بينما نجد في بعض المجتمعات الأخرى أن المرأة المكتنزة ، بل ومفرطة السمنة ، هي صاحبة المكانة في عالم الجمال . وأما جاذبية الذكور فإنها تعتمد في أكثر الأحيان على الجوانب الاجتماعية أكبر منها على الخصائص الجسمية ، وذلك من قبيل مركز الرجل ومنزله في الجماعة .

كذلك يتأثر السلوك الجنسي عند الإنسان بتأثير آخر من نتائج التعلم

الاجتماعى - وهو المنبهات الرمزية التى تم استدخالها من قبيل الأفكار والخيالات والأحلام . فإن هذه تتأثر بالمنبهات البيئية وتبدأ فيما يبدو من خبرات التعلم السابقة . كما أن الخيالات التى تثيرها الكتب ، وأفلام السينما ، وتنافس الأقران فى التفاخر بمغامراتهم ، كل ذلك قد يساعد على انشغال الولد المراهق بالأمور الجنسية .

العلاقات فيما بين العوامل

فكيف ترابط كل هذه العوامل ؟ أما المنبهات المختلفة الصادرة عن القرين الجنسى - من مناظر وروائح ولمس - فلإنها تعمل من خلال ميكانيزمات الدماغ لتستثير الاهتمام الجنسى . وأما اللحاء فيفترض أنه مصدر التأثيرات المتعلمة ، على حين أن الاستجابات الفطرية تحدث بدرجة أكبر عن طريق توسط الهيبوثلاموس وبعض الأجزاء من الجهاز الطرفى ، بينما يتوقف أداء العمل الجنسى على تنبيه المناطق التناسلية ومنعكسات النخاع الشوكى . وأما الهورمونات فلعلها تعمل عن طريق زيادة حساسية ميكانيزمات الدماغ والأفعال المنعكسة التناسلية .

والأهمية النسبية لهذه العوامل تتوقف على موضع الحيوان من سلم التطور . فكلما صعدنا فى سلم التطور ، وجدنا تأثير الهورمونات يتناقص ، بينما تزداد أهمية الاستجابات المتعلمة التى تحدث عن طريق توسط لحاء المخ . وأما المنبهات البيئية فإنها وإن كانت ذات أهمية بالنسبة لكل الفصائل الحيوانية ، إلا أننا نجد أن السلوك الجنسى عند حيوانات المستويات الأدنى تسيطر عليه طائفة محدودة من المنبهات الفطرية النمطية ، بينما نجد أن المنبهات الفعالة عند المستويات العليا أكثر تنوعاً وأكثر تأثراً بالتعلم . وعند الإنسان نجد أن الدافع الجنسى ظاهرة نفسية بالدرجة الأولى ، ظاهرة أكثر اعتمادها على التعلم الحضارى وعلى العمليات الداخلية الرمزية لا على أنماط فطرية وهورمونية من التنبيه .

الجنس بوصفه دافعاً

رأينا فيما سبق أن السلوك الجنسي يتوقف على مزيج من العوامل الداخلية والخارجية . ورأينا كذلك أن هناك تغيرات هامة طرأت على طبيعة السلوك الجنسي أثناء التطور . والسؤال الذى يواجهنا الآن هو إن كان الجنس يؤدي وظيفة الدافع . ومعنى هذا أننا نسأل إن كان الجنس يوجه السلوك ويسيطر عليه ، ويؤدي إلى تعلم جديد . ويعمل بوصفه نوعاً من الإثابة . كذلك يهمننا أن نعرف إن كان الجنس يتبع نمط الحرمان والإشباع . ذلك النمط الذى شاهدناه في دوافع الاتزان الحيوى .

الجنس بوصفه إثابة للتعلم

لعل القارئ يذكر من المناقشة التى عقدناها في فصل المدخل أحد التعريفات الأساسية للدافع من أنه يوجه السلوك نحو هدف معين ، وأن مثل هذا الهدف يعمل بوصفه إثابة على تعلم استجابات جديدة . وقد توسع جيروم كييجان Jerome Kagan في دراسة التعلم من أجل الحصول على إثابة جنسية . ذلك أنه درب الفئران الذكور على الجرى في متاهة على شكل حرف T تؤدي ذراعاها إلى منطقتين واسعتين مستديرتين تكون في إحدهما واحدة من إناث الفئران المتقبلة أو المتأهبة للتلقيح . وقد تمكن الفئران من تعلم الاستدارة الصحيحة عندما كانت الإثابة عبارة عن الجماع حتى الاكتمال . وهذا يبين أن الخبرة الجنسية الكاملة يمكن أن تعمل بوصفها إثابة للتعلم الجديد .

ثم مضى كييجان ليدرس الآثار الإثائية للسلوك الجنسي الجزئى أو الذى لا يكتمل ولا يصل إلى نهايته . وهنا نجد من اللازم شرح النمط الجنسي عند الفئران الذكور . ذلك أن الذكر يجذبه جري الغزل الذى تقوم به الأنثى المتقبلة ، فيعتليها ، ويدخل قضيبه فيها . وإدخال القضيب يسمى إيلاجاً ، ولكن الإيلاج الواحد لا يكون في العادة كافياً للوصول إلى القذف . وإنما نجد الذكر يتراجع بعد

كل إيلاج ثم يستأنف المطاردة . وبعد أن يتكرر الإيلاج عدة مرات : يتحقق القذف ويتوقف السلوك الجنسي . وقد درس كيجان تأثير مجرد الاعتلاء أو الإيلاج . ذلك أنه سمح للذكور الفئران باعتلاء الإناث بعد أن تعرضت الإناث لعملية جراحية لسد المهبل حتى تستحيل عملية الإيلاج . وفي حالات أخرى كان يسمح للفئران بالإيلاج ولا يسمح لها بالوصول إلى القذف . وتبين أن للاعتلاء والإيلاج على التأكيد قيمة إثائية ولكنها قيمة إثائية أدنى بكثير من قيمة الاعتلاء والإيلاج اللذين يؤديان إلى القذف . بل لقد كان هناك بعض الدليل على أن تكرار الإيلاج من غير الوصول إلى التفريغ الجنسي يؤدي إلى الإحباط ويسبب تجنب الأنثى . وهناك ما يقابل هذا بوضوح عند الإنسان .

وقد قام هافيلوك إليس Havelock Ellis بوصف الوقائع أثناء الاتصال الجنسي من أنها تتضمن مرحلة إعداد يتصاعد التوتر خلالها ، ثم ذروة يتم فيها التخلص من التوتر أو تفريغه ، ثم مرحلة هدوء وسلام تسمى بمرحلة الإيلال الجنسي . ولو أنه لم يتم الوصول إلى الذروة والقذف ، لاستمر التوتر وامتنع حدوث الإيلال الجنسي . مثال ذلك أن الزوجة ، إذا هي لم تصل إلى هزة الجماع فإنه قد تنشأ لديها مشاعر عدائية نحو زوجها وتصبح العلاقة الجنسية منفرة كريمة بالنسبة لها . وقد يؤدي هذا الموقف إلى مشكلات زوجية وإلى الطلاق في الحضارة الأمريكية .

على أن مناقشتنا حتى الآن من شأنها أن تثير السؤال حول طبيعة الإثابة الجنسية . من الممكن أن يكون الغرض من الانغماس في العلاقات الجنسية ومزاولتها هو التكاثر . لكن يبدو أن هذا أمر بعيد الاحتمال بالنسبة للحيوانات ، وإن كانت هناك حالات يمكن أن يصدق هذا فيها بالنسبة للإنسان . ذلك أن المثقفين من بني الإنسان قد يقررون في بعض الأحيان أن ينجبوا الأطفال ، ثم ينظمون نشاطهم الجنسي على وفق النصائح الطبية . ولكن هذا الاتجاه ، مع ذلك ، قلما يكون الأساس في كل السلوك الجنسي . خذ لذلك مثلاً ، أن سكان جزر التروبريانند Trobriand وهم قوم بدائيون في جنوب غرب

المحيط. الهادى ، يجهلون العلاقة بين النشاط الجنسي والتكاثر. ومع ذلك ، تجد أن لهم حياتهم الجنسية الكاملة تماماً والتي قد تكون أكثر تحرراً من حياة الأمريكيين .

لعل الأقرب إلى الاحتمال أن تناسل النوع نتيجة بيولوجية جانبية لنوع من النشاط ينغمس فيه الناس سعياً وراء إثابة شخصية مباشرة إلى حد أكبر . ومن الجوانب البارزة في هذه الإثابة الحصول على لذة حسية شديدة. بل الواقع أن السلوك الجنسي يمكن أن يعد واحداً من أحسن الأمثلة على صحة نظريات اللذة في تفسير الدافعية . ومع ذلك ، فإن بعض جوانب اللذة يبدو أنها تتوقف على خفض التوتر . فقد بينت دراسات كيجان أن الاعتلاء والإيلاج - اللذين يفترض أنهما يزيدان التوتر - يكونان مثيبين في أول الأمر ، ولكنهما قد يصبحان منفريين إذا لم يعقب ذلك خفض للتوتر . وهذه النتيجة التي كشفت عنها الدراسة توحى ، إلى حد ما ، بأن لذة الاستثارة هي عبارة عن توقع لخفض التوتر . ولذلك ، فإن كل ما يمكننا قوله ، في الوقت الراهن ، هو أن هناك عنصرين اثنين في الإثابة الجنسية : استثارة مسببة للذة من ناحية ، وخفض التوتر من الناحية الأخرى .

الحرمان الجنسي والشبع الجنسي

لقد كان يُظن في وقت ما أن هناك تشابهاً بين دوافع الاتزان الحيوى والدوافع الجنسية من جهة أن الدافعية الجنسية تزداد وتقوى كلما طال الزمن بعد انقضاء آخر خبرة جنسية . كان يُظن أن هذه الفترة الزمنية المنقضية تمثل فترة حرمان شبيهة بفترة الحرمان من الطعام . وكان يُظن أن إفرازات الغدد الجنسية تتراكم بمرور الزمن لتحدث نوعاً من التوتر البدنى شبيهاً بالتوتر الناتج عن الحاجة إلى التخلص من الفضلات . ولكن هذه الأفكار تبين مع ذلك بطلانها بعد أن ثبت لدينا أن الدافع الجنسي يبقى ويستمر من بعد أن تستأصل الغدد الجنسية عند الذكور في عملية الإخصاء . قد يكون صحيحاً أن الهورمونات الجنسية ينخفض مستواها عقب الجماع ، ثم يرتفع مرة أخرى بمرور الزمن ، ولكن هذا الأمر لم يتمكن أحد حتى الآن من إقامة البيئة عليه ، ولا نظن أن ذلك ممكن .

ومع ذلك ، فإن هناك ما يشبه تزايد الدافع الجنسي بمرور الزمن عند الذكور من الحيوانات ، وهو أمر لا بد من تفسيره . ولعل أوضح تصوير لهذه الظاهرة نجده في دراسة قام بها مارفن شفارتز Marvin Schwartz . بدأ شفارتز بأن أباح للذكور من الفئران الجماع بغير حدود حتى أصبحت الذكور عاجزة عن الاستجابة للأنثى المتقبلة . ثم أخذ يقيس من بعد ذلك استجابتها الجنسية بعد انقضاء يوم ، وثلاثة أيام ، وستة أيام . وبينت نتائج الدراسة أن عدد الفئران التي تصل إلى القلف خلال فترة الاختبار ، يتزايد بمرور الزمن .

والواقع أن نتائج هذه الدراسة يمكن النظر إليها على نحوين . أما بالنسبة لبعض المشتغلين بعلم النفس ، فإن نتائج شفارتز تبين ببساطة أن الحرمان الجنسي يؤدي إلى تزايد النشاط الجنسي . وأما الآخرون فيرون أن النتائج توضح لنا التخلص من التعب الجنسي . وهم يقولون إنه لا وجود هناك لحاجة أيضية تزايد أو تراكم بالحرمان ، ثم يقوم النشاط الجنسي بإشباعها . فالنشاط الجنسي عند هذا الفريق الأخير يؤدي إلى إنهاك لا بد للحيوان من أن يتخلص منه . والواقع أنه ليس بالأمر السهل اليسير أن نميز فيما بين الحرمان من ناحية والتخلص من الإنهاك من ناحية أخرى .

وأما فرانك بيتش ، فإنه يميز بين اثنين من الميكانيزمات المختلفة تماماً في الاستثارة الجنسية والشبع الجنسي . أما الأولى فيسميها استثارة جنسية عامة ، ويسيطر عليها إلى حد كبير تلك المنبهات البيئية والنفسية التي تحدثنا عنها من قبل . وأما الثانية فيسميها استثارة تناسلية محددة . وقد أقام بيتش هذا التمييز بين النوعين على أساس من الملاحظات التجريبية للسلوك الجنسي عند ذكور الفئران . فأما الاستثارة الجنسية العامة عند الذكور فتتألف من انجذابه إلى جرى الغزل الصادر عن الأنثى المتقبلة - وهو عبارة عن اندفاع معين ، ثم توقف ، مع هز عجيب للأذنين . وأما الاستثارة التناسلية المحددة فإنها تحدث بالإيلاج المتتابع الذي يؤدي إلى القلف وفي التجارب التي نحن بصدددها ، تبين أنه كان للقلف آثار متعارضة على الاستثارة الجنسية العامة والاستثارة التناسلية . ذلك أنه بعد مرات القلف

المتابعة ، تبين أن عدد مرات الإيلاج اللازمة للقذف من بعد ذلك يتناقص ويقل . أو بعبارة أخرى ، أن القذف يسهل الاستثارة الجنسية . ولكن القذف المتتابع يؤدي ، من ناحية أخرى ، إلى تناقص الاستثارة الجنسية العامة الناشئة عن جرى الغزل الصادر عن الأنثى . بمعنى أن الأنثى تصبح في حاجة إلى وقت أطول فأطول من أجل أن تستثير اهتمام الذكر وميله مرة ثانية . وهذا يبين لنا كيف أن مسألة الحرمان والشبع في مجال الجنس مسألة معقدة فعلاً . فإن للقذف آثاراً متعارضة بالنسبة للنوعين من الآليات .

وجملة القول أنه يتبين لنا أن الجنس وإن كان لا يفيد في سد حاجة متعلقة بالاتزان الحيوى ، إلا أنه يعمل بوصفه دافعاً نفسياً . كما أن الإثابة الجنسية يمكن أن تثير الدافع إلى التعلم والأداء . وأن الدافع الجنسي يتزايد بمرور الزمن من بعد الخبرة الجنسية السابقة ، ولكنه ليس من الواضح إن كانت هذه عملية حرمان شبيهة بدوافع الاتزان الحيوى ، أم أنها عملية تخلص من آثار الإنهك . ثم إن الموقف يزداد تعقيداً بسبب الآثار المتعارضة التي يحدثها الاتصال الجنسي على ميكانيزم الاستثارة العامة وميكانيزم الاستثارة التناسلية . والظاهر أنه ، على الرغم من أن الإثابات الجنسية تثير الدافع إلى السلوك ، إلا أنها تعتمد على أنواع من ميكانيزمات الاستثارة والشبع تختلف عن الأنواع التي نجدها في دوافع الاتزان الحيوى .

النمو الجنسي

كان من أشد الجوانب المزعجة في نظرية فرويد التي تؤكد على أهمية الدوافع الجنسية إصراره على أن الجنس لا يبرز فجأة بحلول البلوغ وإنما هو موجود منذ الميلاد ، ثم يتعرض للنضج التدريجي . وعلى الرغم من أن بعض الدوائر رأت في دعوى فرويد هذه هدماً للقول ببراءة الطفولة ، إلا أن فرويد كان يرد على ذلك بأنه لم يزد فيما قاله عن أمور تعرفها مربيات الأطفال منذ قرون . وإذا كان الخلاف لا يزال قائماً حول آراء فرويد الخاصة عن النضج الجنسي ، فإن مجموع الأدلة العلمية التي توفرت خلال هذا القرن تؤيد مزاعمه الرئيسية .

النضج الجنسي

هناك عدد لا بأس به من البراهين على وجود قدر ما من الاستجابية الشبقية منذ الميلاد ، وأنها تتعرض بعد ذلك للنمو بشكل تدريجي . فقد لوحظ أن الأطفال لديهم استجابية تناسلية خلال السنة الأولى من الحياة . وأنهم قد ينغمسون في نوع ما من الاستمناء . ومع نمو الأطفال يزداد اهتمامهم بالأمور الجنسية ويزداد نشاطهم الجنسي . كما أن للأطفال فضولاً هائلاً عن الأمور الجنسية ، وهم ، كما تقرر جماعة كبيرة من الأمهات ، يسألون كثيراً من الأسئلة . فيما بين سن الثانية والخامسة ، عن اختلاف التشريح وتفاوته فيما بين الجنسين . وعن مصدر الأطفال أو منشئهم . بل لقد قرر نصف مجموعة أمهات الأطفال في سن ما قبل المدرسة أن أطفالهم ينغمسون في لعب جنسي أو تناول الأعضاء التناسلية بأيديهم . كما تبين أن أطفال المدارس لديهم شغف بالتطلع إلى الآخرين وبعرض أنفسهم على الآخرين ، وهو أمر يثير فزع الوالدين في أكثر الأحيان .

كذلك لوحظ أن الأطفال في بعض الحضارات البدائية ، وفي الفترة من سن السادسة إلى سن الثانية عشرة ، ينغمسون صراحة في اللعب الجنسي والاستمناء . كما أن صغار الأولاد والبنات يلعبون لعبة تقوم على تمثيل الجماع . وأن المعلومات عن الأمور الجنسية يقدمها الآباء في هذه المجتمعات للأطفال الذين يسمح لهم بمشاهدة العلاقات الجنسية بين الوالدين . وفي بعض المجتمعات يبني الأطفال الذين هم أكبر سناً أكوأخا صغيرة يتظاهرون بالزواج فيها . وبصفة عامة نقول إن اللعب الجنسي عند الأطفال نجده جزئياً غير ناضج .

ثم نحلل التغيرات الفسيولوجية عند البلوغ فتبدأ فترة هامة من الاهتمام أو الشغف الجنسي المتزايد . وتقول دراسة كيتري أن أغلب المراهقين في المجتمع الأمريكي يزاولون الاستمناء والملاطفة التي تكون بين الجنسين ، وأن ميول الجنسية المثلية العابرة قد تستثار في هذه الفترة أيضاً . وفي فترة المراهقة المتأخرة ينغمس عدد ملحوظ في جماع ما قبل الزواج . وعلى الرغم من أن الأرقام التي يقدمها

تقرير كيتري قد لا تكون دقيقة ، إلا أن الشك قليل في أن الدافع الجنسي يكون شديداً في هذه الحقبة من الحياة ، وأن العرف الحضارى كثيراً ما تقع مخالفته .

والمراهقة ، عند الذكور ، هي الفترة الزمنية التي تكون فيها الرغبات الجنسية على أشدها ، ثم يبدأ الدافع الجنسي في الهبوط التدريجي من منتصف العقد الثاني من الحياة وحتى الشيخوخة . وأما النساء فلا يبدو عليهن ازدياد ملحوظ ولا الهبوط بنفس الصورة . بل إنه لا يلاحظ تناقص في الدافع الجنسي عند الإناث حتى في سن انقطاع الطمث (سن اليأس) بعدما تتوقف القدرة على الإنجاب .

وقد درس هارى ف . هارلو Harry F. Harlow نمو السلوك الجنسي عند القردة ، فتبين له وجود سلسلة من مراحل النمو - مرحلة الرضاعة ، مرحلة ما قبل المراهقة ، ومرحلة المراهقة والنضج . فأما مرحلة الرضاعة ، وهي تمتد عند القردة طوال السنة الأولى من الحياة ، فتتألف من اتخاذ القردة الصغار أوضاعاً جنسية غير ناضجة وغير صحيحة . وأول ما يظهر وينمو هو النمط الجنسي عند الذكر وهو يتألف من تهديدات عدوانية ، واعتداءات غير ناضجة ، ومن لعب من نوع إظهار العنف والمصارعة . ثم يظهر النمط الجنسي عند الأنثى ويكون أكثر سلبية ، وهو يتضمن كذلك تمشيط شعر الذكر . على أن الذكور لا يظهر عليهم مطلقاً النمط الأنثوي ، بينما نجد أن الإناث يتخذن ، خلال السنة الأولى من الحياة ، وضع الذكر بالنسبة لبعض الإناث الأخريات .

وأما فترة ما قبل المراهقة فتبدأ في السنة الثانية وتستمر حتى السنة الثالثة بالنسبة للإناث ، وحتى السنة الرابعة بالنسبة للذكور . وهذه الفترة تتألف من اتخاذ الأوضاع والاعتلاء بصورة أكثر ملاءمة ودقة ، وإن كانت غير مكتملة جنسياً . ويظل نمط الذكر إيجابياً فعالاً ، كما يظل نمط الأنثى سلبياً . وقد لوحظ كثيراً مزاوله الذكور من القردة للاستمناء في هذه الفترة ، وكذلك مزاوله النساء له ولكن بدرجة أقل . كما أن الذكور قد يزاولون كذلك بعض نشاط الجنسية المثلية .

وأما نمط المراهقة والرشد عند القردة فإنه استمرار لسلوك ما قبل المراهقة . إلا أن النمط يصبح بعد ذلك مكتملاً بحيث إنه قد يؤدي إلى الحمل . فالذكر فعال إيجابي والأنثى سلبية ، ولكن كلاً منهما قد يبدأ العلاقة الجنسية بأن يتخذ الوضع المناسب المتصل بذلك . كما أن استمنااء الذكور وسلوك الجنسية المثلية قد يستمران ويدومان ، وخصوصاً في الظروف التي يمتنع فيها النشاط الجنسي الغيرى .

من أجل ذلك نجد أن المشاهدات التي أجريت على كل من الإنسان والحيوانات توحى بأن الدافع الجنسي ينمو تدريجياً منذ المراحل المبكرة من قبل أن يزدهر ويتفتح عند البلوغ . وإن هناك بعض الأسباب التي تحمل على الاعتقاد بأن تلك الصور غير الناضجة من النشاط الجنسي - مثل اللعب من نوع إظهار العنف والمصارعة ، ومطاردة الأولاد للبنات في الطريق إلى المدرسة ، والتقليل والعناق - تلعب دوراً هاماً في النمو الجنسي الناضج . وأما استمنااء المراهقة ونشاط الجنسية المثلية فيظهر أنها يرجعان جزئياً إلى الفضول ، كما أنها يعملان جزئياً كنوعين من الأنشطة البديلة . كما أنه لا دليل على صحة الفكرة القديمة القائلة بأن تلك الصور المختلفة من السلوك الجنسي في الطفولة والمراهقة تحدث أضراراً جسمية أو عقلية .

المراحل الجنسية النفسية عند فرويد

لم يحظ تفسير فرويد للنضج الجنسي بالقبول الواسع الذي ظفرت به فكرته العامة . فأولاً ، نجد أن فرويد عرّف الظاهرة الجنسية بشكل عام جداً ، حتى إنه كاد يسوى بينها وبين اللذة الحسية . وقد رأى أن هناك عدة مناطق شبقية في الجسم بخلاف الأعضاء التناسلية - وهي الفم والشرح بصفة خاصة ، ثم كل سطح الجسم كذلك . وافترض فرويد أن الحساسية الجنسية ، أو على حد تعبير التحليل النفسي ، الطاقة الليبيدية ، تكون مسيطرة في منطقة الفم خلال السنة الأولى من الحياة بصفة تقريبية (المرحلة الفمية) ، ثم تتمركز لمدة عامين تقريباً

حول الشرح (المرحلة الشرجية) . ثم تتمركز بالتالى من سن الثالثة حتى السادسة تقريباً حول الأعضاء التناسلية (المرحلة القضيية) . ومن المفروض أن تعقب ذلك مرحلة للوصول الجنسى من السابعة حتى الحادية عشرة (مرحلة الكون) ، وهى تؤدى إلى اهتمام الفرد فى فترة ما قبل المراهقة بالأفراد من نفس جنسه (مرحلة الجنسية المثلية) . وأخيراً تنضج الجنسية الكاملة خلال المراهقة (المرحلة التناسلية) .

وقد رأى فرويد أن الدافع الجنسى عند الفرد الراشد الناضج يتضمن عناصر من كل مراحل النمو السابقة . وأنه يتعدل بما يعرض للفرد من خبرات فى كل واحدة من هذه المراحل السابقة . والخلاف الأساسى حول نظرية فرويد لا يتركز فى أن الدافع الجنسى يحتاز مراحل للنضج ، وإنما يتركز فى أن هذه التغيرات الجنسية والخبرات الجنسية هى الأساس الأولى لشخصية الفرد وخلقه فى مرحلة الرشد . ولذلك فقد افترض فرويد وجود خلُق فى ، وخلُق شرجى ، وخلُق قضيبى ، كما افترض وجود إعلاء للدوافع الجنسية عن طريق الفن ، والدين ، ونحو ذلك . وسوف نتعرض لهذه القضية فى فصل من فصول الكتاب التالية . وأما الآن فإنه لا يعيننا إلا التحدث عن تطور النمو الجنسى فى ذاته .

أما الجنسية الفمية فتشير بالدرجة الأولى إلى الامتنصاص اللذيذ عند الرضع . وقد رأى فرويد أن الامتنصاص له وظيفة أخرى ، بالإضافة إلى خفض الجوع ، هى أنه مصدر اللذة الحسية ، ولذلك تكون له صفة شبقية بحسب تعريفه . وقد لوحظ على الأطفال الرضع كثيراً أنهم يزاولون الامتنصاص الزائد عن نطاق التغذية ، وأن هذا السلوك يظهر عليهم من بعد الميلاد بقليل ، ويظل يتزايد ويتزايد حتى الشهر السابع من العمر تقريباً . ولو أن لذة الامتنصاص تعرضت للإحباط عند التغذية باستخدام زجاجة إرضاع لها ثقب كبير فى حلمتها بحيث لا يتطلب الأمر للحصول على كمية مناسبة من الطعام إلا قليلاً من الامتنصاص ، لرتب على ذلك أن يزداد الامتنصاص الخارج عن نطاق التغذية .

وأما المرحلة الثانية في تطور النمو النفسي الجنسي عند فرويد . وهي المرحلة الشرجية ، فتصل إلى ذروتها عند بلوغ السنة الثانية من العمر تقريباً . ويقول فرويد إن وظائف الإخراج لذيدة بالنسبة للطفل ، وأنها لذلك ، وبحسب تعريفه الواسع العريض ، جنسية . والصحيح أن الطفل لا نجد لديه ذلك الفرع من هذه الأمور الذي يكون لدى الراشد ، وأن الطفل قد يجد هذه الأمور ممتعة ولذيدة . ثم يتبع ذلك عراك وصراع شديد بين الأبوين والطفل حول التدريب على ضبط الإخراج . أما الطفل فإنه يثور ويؤكد استقلاله ، ولكن الأبوين ينتصران في النهاية دائماً ، وبذلك يتخلى الطفل عن مصدر للذة الجنسية .

وأما المرحلة القضيبية فإنها . بحسب آراء فرويد . تتميز بالاهتمام بالأعضاء التناسلية . والواقع أننا شهدنا أن نشاط الاستمناة قد يبدأ في سن مبكرة جداً . ولكنه يبدو من الصحيح أن هذا النشاط يصبح أكثر بروزاً واتضحاً عند سن الثالثة تقريباً . على أن الشيء الهام في المرحلة القضيبية أنه يفترض أنها تتضمن انجذابات جنسية نحو أعضاء آخرين في أسرة الطفل ، وأنها تؤدي بسبب ذلك إلى بعض المشاكل . فإن لكل مجتمع عدداً من النواهي أو التحريمات القوية ضد غشيان المحارم .

وقد ذهب فرويد إلى أن هناك تياراً خفياً من الانجذاب الجنسي والغيرة في داخل الأسرة عندما أصدر فكرته الشهيرة عن عقدة أوديب . وأوديب Oedipus . كما يذكر القارئ ، كان ملكاً في المسرحية الإغريقية القديمة التي كتبها سوفوكليس Sophocles ، قتل والده وتزوج من أمه على غير دراية منه بذلك . وفي نظرية فرويد ، فيما يتعلق بالذكور ، تنشأ عند الصبي الصغير بعض المشاعر الجنسية نحو الشخص الذي قام على رعاية كل حاجاته الأخرى طوال حياته - أي الأم . ثم يشتد هذا الشعور خلال المرحلة القضيبية من سن الثالثة حتى السابعة . ولكن هذه المشاعر نحو المحارم تضع الطفل في موقف تنافس مع الوالد . فتنمو عنده مشاعر عدائية تنافسية نحو الوالد ، وإن كان يشعر كذلك بالخشية من انتقام منافسه منه . ويتخذ خوفه صورة محددة من الخصاء - قلق

الخصاء . وفي الأحوال السوية يفترض أن يتمكن الولد من حل عقدة أوديب بأن يتخلى عن ذلك العنصر الجنسي في مشاعره نحو أمه ، وبأن يتوحد مع والده ، وبأن يصبح في آخر الأمر رئيساً لأسرته هو .

كذلك يفترض وجود موقف مشابه لعقدة أوديب عند الذكور في حالة البنات الصغار . فإنه تنمو عند البنت مشاعر جنسية نحو والدها وتتنافس مع أمها . ولكن هناك أمرين يزيدان من تعقيد الموقف في حالة البنت الصغيرة . أما الأمر الأول ، فهو أن أول موضوع للحب عندها يكون الأم ، شأنها في ذلك شأن الولد ، ولكنها تختلف عن الولد في أنها تعود فيتغير مشاعر الحب عندها إلى شخص آخر هو الأب . وأما الثاني فإنها ، بعد اكتشاف الفروق التشرحية فيما بين الجنسين ، قد يصبح لديها نوع خاص من قلق الخصاء ، شعور بأنها قد تعرضت من قبل للخصاء . وهذا قد يتحول إلى نوع من الدافع يعرف بحسد القضيب ، وفيه تظل البنت تتنافس تنافساً دؤوباً مع الأولاد في أنواع الأنشطة التي يختص بها الذكور . ثم إن الفتاة تتمكن ، في حالة السواء ، من حل هذا كله عن طريق كبت المشاعر الجنسية نحو والدها ، والتوحد مع أمها ، وأن يكون لها طفلها الخاص من زوجها هي .

وقد افترض فرويد أنه عقب مرحلة الكون الجنسي - من سن السابعة حتى سن الحادية عشرة تقريباً - وهي المرحلة التي يكون النشاط الجنسي فيها هادئاً ، تأتي مرحلة من تطور النمو النفسي الجنسي تتضمن الانجذاب إلى أفراد من نفس الجنس . ولقد شاهدنا سلوك الجنسية المثلية عند حيوانات الشمبانزي وغيرها من القردة في فترة ما قبل البلوغ ، عند الذكور في الأغلب ، وعند الإناث في بعض الأحيان . وكذلك نجد على المستوى الإنساني أن عدداً من الأفراد يبدأون الاتصال الجنسي بواحد من نفس الجنس خلال فترة ما قبل البلوغ أو في أوائل فترة المراهقة .

ثم رأى فرويد أن الصور المختلفة من جنسية الطفولة تتكامل وتترابط خلال

المراهقة والرشد وتتحول إلى الجنسية الناضجة . وبذلك تصبح النتيجة النهائية تلك المرحلة التي سماها فرويد بالمرحلة التناسلية ، وفيها تنشأ وتدعم الجنسية الغيرية في سياق علاقة حب تتضمن الاحترام المتبادل . ومن الطريف أن نلاحظ أنه على الرغم من أن فرويد يتصوره الناس واحداً من أصحاب الثورات الجنسية . إلا أن أعلى مراحل تطور النمو عنده هي تلك المرحلة الناضجة المستقرة من العلاقات الزوجية التي تعرف كل المجتمعات تقريباً لها قدرها وقيمتها .

عوامل حضارية في النمو الجنسي النفسي

عارض عدد من أصحاب النظريات والباحثين نظرية فرويد في النمو الجنسي النفسي . ولعل من أوجه النقد الرئيسية التي وجهت إلى فرويد أنه جعل لفظ «الجنسي» يتضمن أشياء كثيرة أو أكثر مما ينبغي . كما أن من ذلك أيضاً أن فرويد افترض أن هذه المراحل المتعددة المختلفة تفتح وفقاً لجدول زمني داخلي بيولوجي لا يكاد يتأثر بفعل البيئة . والنقاد يقولون : إن فرويد لم يأخذ التعلم الحضاري بعين الاعتبار . وعلى القارئ أن يتذكر هنا أن الشواهد الفسيولوجية توحي بأن الحياة الجنسية عند الإنسان تسيطر عليها العوامل الحضارية إلى حد كبير .

والواقع ، أولاً ، أن ما أسماه فرويد بالمرحلة الفمية هو في حقيقة الأمر أكثر تعقيداً مما قد نفهمه من مفهوم اللذة الفمية . ذلك أن السنة الأولى من الحياة ، كما سنرى في فصل من الفصول التالية ، ذات أهمية بالغة في نشأة روابط الود والحب . فالامتصاص إنما هو جزء واحد فقط من نمط معقد يتضمن التشبث ، والتأرجح ، وغير ذلك من السلوك غير الفمي . أضف إلى ذلك أن الامتصاص الخارج عن نطاق التغذية والذي يراه بعضهم دليلاً على الاستمتاع أو التلذذ الفمي ، قد تبين أنه يتم تعلمه إلى حد كبير عن طريق الربط بين الامتصاص والتغذية . وقد أوضح عدد من أصحاب التحليل النفسي المحدثين ، من أمثال إريك هـ . إريكسون ، أن هذه الفترة الأولى من الحياة هي مدخل الطفل إلى العلاقات الاجتماعية ، وأن التعلم الهام في هذه الفترة هو في أن يثق الفرد أو لا يثق

بغيره من أفراد الإنسان . والواقع أن اللذة الفمية ، ولو أنه قد يكون لها صلة بما ينشأ من بعد ذلك من علاقات جنسية ، تبدو ثانوية بالنسبة لتكوين العلاقة الاجتماعية مع الأم .

كذلك ثارت مشكلة مماثلة بالنسبة للمرحلة الشرجية عند فرويد ، وهي : هل ما يديه الطفل من اهتمام بأمور التدريب على ضبط الإخراج ذو طبيعة جنسية بالمعنى المعقول ؟ إن من المتفق عليه الآن بين المختصين بالنمو من علماء النفس أن التدريب على ضبط الإخراج لا يزيد عن أن يكون جانباً واحداً من عملية التطبيع الاجتماعي العام للطفل في هذه السن . كما أن هناك جوانب أخرى كثيرة من سلوك الطفل تتعرض للضبط الاجتماعي - مثل ارتداء الملابس ، والتوجه إلى الفراش في الموعد المناسب ، وكف العدوان نحو إخوته ، وهكذا . والطفل قد يثور على هذا التقييد لسلوكه الذي يسعى به إلى تحصيل اللذة ، كما أن ميدان القتال الرئيسي قد يقع أو لا يقع في مجال التدريب على ضبط الإخراج .

على أن أكثر المفاهيم أهمية في نظرية فرويد عن تطور النمو النفسي الجنسي هو عقدة أوديب . فأما بالنسبة للصبي ، فإن الخوف من الأب يقال عنه إنه امتداد للغيرة الجنسية حول الأم . وقد حرص عالم الأنثروبولوجيا ب . ك . مالينوفسكى B.K. Malinowske على أن يجتبر صحة الزعم بأن عقدة أوديب أمر عالمي وذلك في دراسة للسكان البدائيين لجزر تروبريانند Trobriand . وقد تبين له وجود عداء قليل لدى الصبي في تروبريانند نحو والده وعداء كثير نحو الخال . وظهر أن خال الولد يتحمل المسئولية الأولى في تأديب الولد وتربيته وميراثه ، على حين أن الأب كان يلعب دور الرفيق اللطيف المحبوب . في هذه الحالة لا يمكن للغيرة الجنسية أن تفسر لنا العداء نحو السلطة . وفي فيينا إبان العصر الفيكيتوري حيث عاش فرويد ، كان الأب ، بالطبع ، يلعب دور المؤدب الصارم ودور المنافس على الأم . ولذلك يبدو ، على أساس من دراسات مالينوفسكى ، أن دور الأب في التأديب هو الذي يستثير معظم العداء عند الولد .

ومن المتفق عليه بصفة عامة أن فرويد كان يصف شيئاً له أهميته الكبرى عندما تحدث عن فكرة عقدة أوديب . قد لا تكون عقدة أوديب جزءاً فطرياً من دافع الجنس الآخذ في النضج ، وإنما قد تشير عقدة أوديب إلى موقف أسرى مشترك عام نجد فيه للغيرة حول الحب والمودة . وللاهتمام بالسيطرة ، ولبعض العوامل الأخرى ، من الأهمية ما للمشاعر نحو المحارم . ثم تتوقف الصورة الخاصة التي تتخذها عقدة أوديب على شخصية الوالدين وما يكون بينهما من تفاعل أكثر من توقفها على النضج البيولوجي للطفل .

وقد تعرضت آراء فرويد عن عقدة أوديب عند الأنثى وما تضمنته من تأكيد لحسد القضيب لمعارضة شديدة من جانب أعضاء الجناح الحضاري من مدرسة التحليل النفسي . فإن هؤلاء المحدثين من أصحاب التحليل النفسي ، وإن كانوا يتفقون مع فرويد على أهمية العلاقات الأسرية ، يرون أن فرويد نظر إلى الأمور الجنسية نظرة ضيقة بيولوجية . وهم يقولون إن هذه الأمور تكسب معناها من خلال القيم الحضارية المرتبطة بها . ولذلك ، فإنهم يرون في حالة حسد القضيب عند الأنثى أن الغيرة الأساسية لا تتركز حول الملامح الخاصة بتشريح الذكر ، وإنما تتركز الغيرة حول الدور الاجتماعي الممتاز والحرية الزائدة التي تطلع على الذكور في حضارتنا . والواقع أن الذكور من الأطفال يحظون بمزايا أكبر من الإناث في مجتمعات كثيرة . صحيح أن الغيرة الناشئة عن هذا التفضيل قد تتخذ صورة رمزية في الأحلام والتخيلات هي حسد القضيب^(١) ، ولكن الدافع الأساسي هنا هو الرغبة في المساواة الاجتماعية .

ثم إن التطور التدريجي والمستمر للسلوك الجنسي عند الناس في المجتمعات البدائية وعند القردة يتعارض تعارضاً حاداً مع مفهوم فرويد عن فترة كمون لدى البشر تمتد فيما بين سن السابعة والحادية عشرة ولا يتوقع خلالها أن يظهر شيء من السلوك الجنسي الصريح . فقد بينت مشاهداتنا للحضارات المنتشرة في العالم أنه

(١) أى تمنى البنت أن يكون لها قضيب مثل الولد (المترجم) .

ليست هناك فترة كمون عالمية . ومع ذلك نقول : لعل مشاهدات فرويد عن مجتمعه في فيينا كانت صحيحة . وأنه يمكن تعميمها لتسحب على مجتمعاتنا نفسه . وحتى بهذه الصورة ، يبدو أن الأمر يكون نتيجة للكف الحضارى بدلاً من أن يكون تراجعاً بيولوجياً في النضج .

كما أن السلوك الجنسي لدى الراشد والتوافق الزوجى أمور تتأثر وتتعدل إلى درجة كبيرة بما يسود في المجتمع من اتجاهات نحو الجنس . أما في العصر الفيكتوري فقد كان الدافع الجنسي يلقي شيئاً كبيراً من الكف . وأما في بولينيزيا Polynesia فإن الاتجاهات نحو الجنس تتصف بالتححرر والتساهل . وأما في المجتمع الأمريكى الآن . فإن هناك قدراً كبيراً من الخلط ، والحيرة ، والتناقض الوجداني . ثم إن هذه الاتجاهات الحضارية تنعكس في مشكلات النمو الجنسي وفي مشكلات التوافق الجنسي في الزواج . كما أن من المهم أن نتذكر ونتنبه إلى أن العلاقات الزوجية هي ببساطة جزء واحد فقط من العلاقات المعقدة . وأن كثيراً من مشكلات التوافق بين الزوجين والتي تتصل بالطمأنينة الانفعالية ، والسيطرة والخضوع ، والاتكالية والاستقلالية ، والطموح المهني إنما تمتد لتصل إلى الجبهة الجنسية . ويسبب أن العلاقات الجنسية أمور خاصة حميمة ، نجد أن أعرق مشاعرنا نحو أنفسنا قد تأثرت كذلك - من قبيل إحساسنا بالكفاءة ، ورغبتنا في أن نكون على مقربة من أحد الناس الآخرين ، وقدرتنا على مواجهة النضج .

الدوافع الانفعالية

تخيل رجلاً يتجه بسيارته في شارع رئيسي ثم يجد سيارة أخرى تخرج مندفعة من شارع فرعي إلى شارعهم . الرجل يركبه الفزع ، ويشعر بإحساس غريب في قاع معدته ، وعضلاته يصيبها التوتر . ويكون التأثير على سلوكه درامياً - فهو يطاءً يقدمه على دواصة الفرملة بشدة ، ويدير عجلة القيادة بسرعة . ويسمع صوت صرير للفرامل يتبعه صوت مؤلم لتكسر الزجاج وتثني جوانب السيارة . ويجلس الرجل لحظة ثم يتحول الخوف إلى غضب - فإن هذا المعتوه قد أخافه ، وأفسد برنامج عمله ، وألحق الضرر بسيارته . ثم يكون للغضب آثاره الدرامية كذلك على سلوكه - فهو يصير بأسنانه ويتقدم نحو السيارة الأخرى . ثم يتبين له ، عندئذ ، أن السائق الآخر قد أصيب ، وأن الدم يسيل على وجهه . ويشعر الرجل برغبة في التقىء ، وبشيء من التأثم ، ويشعر قوى من التعاطف . ومرة أخرى يعبأ السلوك - وإذا بالرجل يقدم الإسعافات الأولية ويستدعى رجال الإسعاف .

نحن هنا نتحدث عن الانفعالات - وهي أرجاع أو استجابات قوية لها تأثير الدوافع على السلوك . فالانفعالات عبارة عن استجابات فسيولوجية وسيكولوجية تؤثر في الإدراك ، وفي التعلم ، وفي الأداء . على أن مجال الانفعال يزداد تعقيداً بسبب انعدام الاتفاق العام على تعريف أساسي لطبيعة المفهوم . من ذلك ، مثلاً ، أن بعض الناس يذهبون إلى أن الانفعال عملية مختلفة كل الاختلاف عن الدافع . كما يذهب فريق آخر إلى أن الانفعالات هي ببساطة صنف من أصناف الدوافع . كذلك يذهب بعض الناس في تعريف الانفعال من وجهة ذاتية - أي في ضوء المشاعر التي يجربها الفرد . بينما يرى البعض الآخر أن الانفعالات عبارة

عن تغيرات بدنية . ومعظم هؤلاء الناس يؤكدون الاستجابة بوصفها العنصر الرئيسي في الانفعال . وإن كان هناك آخرون يركزون على إدراك الموقف الذي يستثير الانفعال أو آثار الانفعال على السلوك العادى . وفى الفكر الفلسفى حتى القرن التاسع عشر ظلت مشكلة العلاقة بين الانفعالات التى يجربها المرء خبرة شعورية وبين التغيرات البدنية مشكلة بسيطة يسيرة نسبياً : فالمرء يجرب الانفعال خبرة شعورية ، والتغيرات البدنية تلزم عن ذلك وتتبعه .

وقد كان وليام جيمس William James ، ذلك السيكولوجى المشهور من جامعة هارفارد ، أول من تشكك فى هذا الرأى الكلاسيكى وتحداه حقاً . فكتب فى سنة ١٨٨٤ أن الخبرة الشعورية تعقب الاستجابات البدنية التى هى بمثابة استجابات تلقائية لمثيرات بيئية . وأكثر أجزاء الاستجابة البدنية أهمية نجدها فى الأعضاء الحشوية الداخلية - القلب ، المعدة ، الأوعية الدموية ، وما إلى ذلك . وهكذا نجد أن رؤية اللب تؤدي إلى اضطراب داخلى ندركه فيما بعد على أنه الخوف . وبدلاً من التفسير الكلاسيكى الذى يكون من النوع « أنا أشهد اللب ، أنا أشعر بالخوف ، جسمى يتهاى للهرب » ، يقدم لنا جيمس الترتيب التالى « أنا أشهد اللب ، جسمى يتهاى للهرب ، أنا أشعر بالخوف » . وقد أدرك جيمس ، بالطبع ، أن التعلم متضمن فى تحديد أنواع المثيرات التى تؤدي إلى الاستجابات الحشوية ، ولكن الشعور لا يأتى من إدراك المثير الخطير وإنما يأتى من الاستجابات الحشوية التى تعقب ذلك . ولما كان أحد العلماء الدانمركيين واسمه كارل لانج Carl Lange قد تقدم بنظرية مشابهة فى نفس الوقت تقريباً ، فقد عرفت الفكرة الأساسية بأنها نظرية جيمس - لانج فى الانفعالات .

وقد تعرضت نظرية جيمس - لانج منذ أول ظهورها تقريباً للنقد . من ذلك ، مثلاً ، أن التركائون لخص الأدلة التى تبين أن الحيوانات التجريبية والمرضى الذين تعرضوا لبتير الاتصالات العصبية لديهم بين الأحشاء والدماغ ظلوا يظهرون الغضب والخوف وغير ذلك من الاستجابات الانفعالية .

ثم إن هناك طريقة أخرى في التصدى لهذه المشكلة وهي أن نحدث التغيرات الحشوية المرتبطة بالانفعال ، من غير الاعتماد على المثبرات الخارجية ، ثم ننظر إن كان الشخص سيخبر الانفعال . ومن الممكن تحقيق هذا الهدف عن طريق حقن الفرد ببعض المواد الكيميائية المعينة التي تحدث التغيرات الجسمية . مثال ذلك أن الأدرينالين يزيد من معدلات دق القلب ويغير بعض العمليات الجسمية الأخرى . ولابد لنظرية جيمس - لانج من أن تتنبأ هنا بأن الأشخاص سوف يجربون الانفعالات مع حدوث هذه التغيرات الجسمية . لكننا نجد أن الأفراد لا يجربون انفعالاتاً حقيقياً ، وإنما نجد أنهم يقررون أنهم يشعرون « وكأنهم » « خائفون » أو « وكأنهم » يتوقعون حادثة سارة طيبة .

ومن ناحية أخرى ، نجد أن العقاقير التي تعمل عملها في الأحشاء تؤثر في استجابة الشخص للمثبرات الخارجية . وقد حدث في إحدى الدراسات التي قام بها ستانلى شاختر Stanley Schachter وأعاوناه ، أن تم حقن الأفراد إما بمادة الأدرينالين ، أو بمادة مهدئة ، أو بمادة ضابطة هي محلول الملح الذى لآتأثير له على الأحشاء . ثم عرض على الأفراد فيلم سينمائي فكاهى . أما مجموعة الأدرينالين من الأفراد فقد وجدوا فى الفيلم كثيراً من المتعة ، ثم تلاهم فى الترتيب مجموعة المحلول الملحي ، بينما كانت مجموعة المهدئ أقل المجموعات حظاً من الاستمتاع . هذه التجارب توحى بأن الاستجابات الحشوية لها أهميتها فى إعداد الفرد للاستجابة للمثير الانفعالي ، ولكنها ليست كافية بذاتها لإحداث الانفعال الكامل .

وقد اقترح « والتر كانون » ، أحد كبار النقاد لنظرية « جيمس - لانج » ، تفسيراً بديلاً للانفعال والتغيرات الجسمية . وذلك هو النظرية « الثلاموسية » فى الانفعال ، التي ذهب إليها كذلك « بارد » P. Bard حتى أصبحت تعرف باسم نظرية « كانون - بارد » . ومؤدى هذه النظرية أن التنبيهات الحسية الواردة تمر من خلال الثلاموس الذى يقع عند قاع الدماغ قريباً من الهيبوثلاموس . وبحسب فكرة « كانون - بارد » تتلقى الرسائل الواردة ، أثناء عبورها فى الثلاموس ، نوعاً

من المسحة الانفعالية . والمعتاد أن يقوم اللحاء بكف الاستجابة الانفعالية في الثلاموس . فإذا لم يتحقق ذلك ، انطلق الانفعال . ويتألف هذا من تفريغ للثلاموس يصعد إلى اللحاء - وهذا التفريغ الصاعد هو الذى يؤدي إلى الخبرة الانفعالية الشعورية - ويهبط كذلك إلى الجسم في نفس الوقت - وهذا هو ما يؤدي إلى التعبير الحشوى والعضلى . والواقع أن نظرية كانون - بارد ، كما سنرى فيما بعد ، وعلى بساطتها الزائدة ، قريبة من التفكير النيوروفسيولوجى الراهن عن الانفعالات وعن أهمية ميكانيزمات الدماغ .

وعلى الرغم من أننا لم نتوصل بعد إلى حل نهائى لمشكلة العلاقة بين الخبرة الانفعالية والتعبير الجسمى ، إلا أن هناك فرضاً هو الأقرب إلى المعقول تقدمت به ماجدة آرنولد Magda Arnold . تقول هذه الباحثة ، أولاً ، إن معظم الاهتمام كان ينصب على النصف الثانى من التسلسل - الانفعال ، التعبير ، الفعل - ولم يكن ينصب بدرجة كافية على الإدراك الأولى . ثم هى توضح كذلك أنه ليس كل إدراك يؤدي إلى استجابة انفعالية ، بحيث يصبح من الضرورى وجود ميكانيزم ما لتقدير الموقف . ولذلك ، فإنها تقترح التسلسل الآتى :

- ١ - الإدراك - الاستقبال المحايد للمثيرات الخارجية (ومثال ذلك أن يرى قائد الطائرة من نوع قاذفات القنابل طائرة مقاتلة تقترب منه) .
- ٢ - التقدير - الحكم على المثير بوصفه طيباً نافعاً أو شياً ضاراً (كأن يتبين القائد أن الطائرة من طائرات الأعداء التى يمكنها أن تسقطه) .
- ٣ - الانفعال - ميل يشعر به المرء تجاه المثيرات التى حكم عليها بأنها طيبة أو بالابتعاد عن تلك المثيرات التى حكم عليها بالسوء (فيشعر القائد بالميل إلى الهرب) .
- ٤ - التعبير - نمط من التغيرات الفسيولوجية المنظمة نحو الاقتراب أو الانسحاب ، ويختلف من انفعال إلى انفعال ، وهو يصاحب ما يشعر به الفرد من ميل (تزايد دقات قلب القائد ، تتوتر عضلاته ، يتحول فمه إلى الجفاف ، يتصبب منه العرق البارد ، ويشعر وكأن هناك فراشات فى معدته) .

٥ - الفعل - قد يحدث الاقتراب أو الانسحاب إذا لم يتدخل انفعال آخر (فإن القائد قد لا يتمكن من الهرب فعلاً بسبب إحساس بالواجب ، أو لرغبة عنده في أن يحرز المجد ، وهكذا) .

ثم إن من الملامح الهامة في نظرية آرنولد أن الانفعال يتم تعريفه بمعنى الدافعية . ذلك أن الميل إلى الاقتراب أو الانسحاب هو صورة أساسية من الجانب التوجيهي للدافع ، على حين أن التغيرات الحشوية تعد بمثابة إعداد للجسم حتى يتمكن من تنفيذ السلوك . والواقع أن هذا قريب جداً من نظرية مالدوجال McDougall ، التي ذكرناها في الفصل الأول ، والذي يقال فيها إن كل دافع يصحبه انفعال خاص متميز .

وسوف يكون مبدؤنا في هذا الفصل أن نعد الانفعالات بمثابة صنف خاص من الدوافع . وعلى الرغم من أن الأحوال الداخلية المهيئة ، مثل اختلال الاتزان الحيوي ، لها أهميتها في الدوافع من قبيل الجوع ، إلا أن الانفعالات يرجع أكبر الفضل في استثارتها إلى المثيرات الخارجية المتعلمة منها وغير المتعلمة . كما أن التغيرات البدنية في الانفعال نجدها أكثر درامية منها في الحالات الدافعية الأخرى . لكن هذا التسلسل له صفة الدافعية بسبب ما يترتب عليه آخر الأمر من آثار في السلوك . وهكذا نجد أن الانفعال عبارة عن دافع تمت استثارته من الخارج وتصاحبه تغيرات بدنية هامة .

على أن خطتنا في هذا الفصل هي أن نتابع بصفة عامة مخطط آرنولد للتسلسل الانفعالي . ولذلك ، فإننا سوف نناقش ، في أول الأمر ، الاستثارة الانفعالية ، وهذا يغطي ما سمته آرنولد بالإدراك والتقدير . ثم نناقش بعد ذلك الاستجابة الانفعالية ذاتها - الخبرة الشعورية ، التغيرات البدنية ، وميكانيزمات الدماغ المتضمنة في الانفعال . وأخيراً ، ندرس آثار الانفعال على السلوك ، مع الاهتمام الخاص بالمقارنة بين الانفعال والدافع . وسوف نذكر خلال هذا العرض عدداً كبيراً من الانفعالات وبصورة مختصرة ، ولكننا سنتخذ من اثنين من الانفعالات

أمثلة رئيسية بالنسبة لنا - وهذان هما الخوف والغضب . ونحن لن نفعل ذلك لأن هذين الانفعالين أكثر أهمية من سائر الانفعالات الأخرى ، ولكن لأننا نعلم عنها أكثر مما نعلم عن الانفعالات الأخرى .

استثارة الانفعال

تستثار الانفعالات بواسطة طائفة متنوعة من أنماط المثيرات الفطرية ، والمثيرات المتعلمة ، والمواقف الاجتماعية . وبصفة عامة يمكن القول بأن أهمية التعلم والتسهيل الاجتماعي تزداد كلما ارتقينا في سلم التطور الحيواني - أى أن جانب التقدير في العملية يكون على درجة أكبر من الأهمية ، وذلك على حد قول آرنولد وبحسب مصطلحاتها . وهكذا نجد أن أنواعاً معينة من الحيوانات وحيدة الخلية تسبح بصفة تلقائية لتبتعد عن ضوء الشمس القوي ، على حين أن الإنسان قد يستثير خوفه أن تمر برأسه فكرة عابرة مؤداها أن الحياة ، في آخر الأمر ، لا معنى لها . وفيما يلي نتدبر المثيرات الفطرية ، والتعلم ، والتهديد الشخصى في الاستثارة الانفعالية .

الاستثارة الفطرية للانفعالات

يمكن استثارة انفعال الخوف عند الحيوان أو الطفل أو الإنسان الراشد بواسطة أى مثير شديد مفاجئ . وفي التجارب المختبرية كثيراً ما يستخدم الألم الناتج عن التنبيه الكهربى لاستثارة الخوف . وقد وجد جون واطسن أن الطفل يظهر عليه الخوف ، منذ الولادة ، كلما أحدثنا ضجة شديدة مفاجئة إلى جواره . كذلك يحدث الخوف لدى الطفل إن نحن انتزعنا غطاءه عنه بشدة أو أسقطناه فجأة لمسافة قصيرة . أى أن الذى يحدث الخوف هو الطبيعة المفاجئة أو غير المتوقعة للمثير ، بالإضافة إلى شدته .

ثم إن المثيرات التى تبعث على الخوف تتزايد فى العدد والتعقيد كلما ارتقينا في سلم التطور . وقد قدم لنا دونالد هب Donald Hebb الأمثلة الآتية : الفأر

يدخله الخوف بسبب الألم ، والضجة الشديدة المفاجئة ، والفقدان المفاجئ للسند ، والملابسات تلغربية . أما الكلب فإن هذه الأشياء تخيفه أيضاً ، ولكن بالإضافة إلى ذلك ، فإنه يخاف من البالونة إذا نحن جعلنا ننفخها ونزيد من حجمها . ومن رؤية سيدة في ملابس غريبة غير مألوفة ، وكذلك من الشخص الغريب . وأما القردة والنسائيس فإنه يخيفها عدد كبير من الأشياء - الجزرة ذات الشكل الغريب غير المألوف ، قطعة البسكويت التي تحتوى على دودة بها ، الدمية ، وهكذا . ثم إن كل حيوانات الشمبانزى التي بلغت مرحلة الرشد تقريباً تفرع إذا هى شاهدت نموذجاً بالحجم الطبيعى من الصلصال لرأس شمبانزى - بل إن بعضهم يصرخ ويجرى ليختبئ عن الأنظار . أى أن الغرابة تبدو وكأنها العامل المسئول .

وهنا يقول « هب » إنه على الرغم من أن هذه المخاوف ليست متعلمة بالمعنى المألوف ، إلا أنها تتطلب بعض التعلم كنوع من الخلفية . مثال ذلك أن الرضع من الشمبانزى يبدو عليها عند الشهر الرابع من العمر الخوف الشديد من الغراب ، وأن الرضع من بنى الإنسان يبدو عليهم الأمر نفسه فيما بين الشهر السادس والثامن من العمر . وهم يكونون عند الوصول إلى هذه السن قد تعلموا أو عرفوا الراشدين المألوفين بحيث يصبح الراشد الجديد غير المألوف على الإطلاق غريباً عليهم .

والغضب نوع آخر من الانفعال الذى يمكن أن تحدثه مواقف معينة على أساس فطرى . كما أن مشاعر الغضب كثيراً ما ترتبط مع العدوان - نوبات الغيظ ، المقاتلة أو العراك ، وتوجيه السباب والشتائم . لكن الأمرين ليسا شيئاً واحداً ، كما سنرى فيما بعد ، وقد يحدث كل منهما بصفة مستقلة عن الآخر . ومع ذلك ، فقد تمت مشاهدة العدوان الغاضب على عدد كبير من الفصائل الحيوانية بوصفه استجابة لبعض المواقف المحدودة .

ثم إن العدوان - بحسب بعض أصحاب النظريات وأبرزهم سيجموند فرويد Sigmund Freud - غريزة تبحث دائماً عن مخرج فى الميل إلى التدمير ، والحرب ، والسادية . والحياة الاجتماعية ، بحسب وجهة النظر الكثيرة

هذه ، تكون مفعمة حتماً بالكراهية والعداء . ولعل أفضل ما يمكن أن نتطلع إليه ، في المدنية والتحضر ، هو أن نجد مخارج غير ضارة لهذا العدوان الفطري - مباريات رياضية للحصول على الألقاب ، التنافس التجاري ، أو الصراع حول القوة السياسية .

وما على الإنسان إلا أن يفكر في تاريخ البشرية حتى يقتنع بسيادة السلوك العدواني والتدميري وانتشاره . ولكن مجرد انتشار وسيادة نوع من السلوك لا يمكن أن ينهض دليلاً على أنه غريزي . بمعنى أنه ميل يسعى دائماً إلى الظهور والتفريغ . وقد يكون العدوان الغاضب استجابة غريزية لبعض المواقف المحددة ، ولكنه لا يستثار إلا عندما تعرض المواقف نفسها .

وقد أظهرت مشاهدة الحيوانات الدنيا أنها لا تتقاتل أو تقتل إلا في ظروف معينة محددة - لتهرب من الأسر ، أو لتجنب الألم ، أو لتستأثر بالإناث ، أو لتدافع عن صغارها ، أو لتحفظ بحقوق الصيد في منطقة معينة ، أو لتحفظ لنفسها بمركز ممتاز في ترتيب السيطرة في جماعتها . بعبارة أخرى نقول : إن القتال ليس شيئاً يسعى دائماً إلى مخرج ، وإنما هو استجابة قد تحدث عندما يتعرض الحيوان لما يتهدهده أو يفضبه أو يحول بينه وبين الحصول على أهداف معينة .

وفي سنة ١٩٣٩ وجدنا جماعة من علماء النفس من جامعة ييل Yale يصوغون فرضاً يربط بين الإحباط والعدوان ، فرضاً يبدو أنه ذو اتصال بما ناقشه هنا من ذلك النوع الغاضب من العدوان . وقد عرفوا الإحباط بأنه إعاقة لسلسلة من السلوك الذي يكون من ورائه دافع ومن أمامه هدف يسعى إليه . والمثال على ذلك هو الطفل الذي يسمع جرس بائع (الآيس كريم) فيتوسل إلى أمه أن تشتري له شيئاً منه . فإذا قررت الأم أن الطفل قد اقترب موعد تناوله للغداء وترفض طلب الطفل ، يصاب الطفل بالإحباط ، وقد يشعر بالغضب ويتحول إلى العدوانية تجاه الأم . والإحباط بحسب هذا الفرض ، كثيراً ما يؤدي إلى العدوان الغاضب ، وبالعكس ، إن العدوان من النوع الغاضب الانفعالي كثيراً ما يمكن إرجاعه إلى الإحباط .

الاستثارة الانفعالية المتعلمة

رأينا كيف أن الرضيع لا يخيفه ، في أول الأمر ، إلا عدد قليل نسبياً من المثيرات . ولكنه ، بعد أن يكبر وينمو ، قد يخاف من عدد أكبر وأكبر من الأشياء . بل إن مخاوف الراشدين تكون أكثر تنوعاً وغمابة . والواقع أن هذه التغيرات ترجع ، إلى حد ما ، إلى عامل النضج . ولكننا ، مع ذلك ، نجد أن ازدياد بعض المخاوف الجديدة واستبعاد بعض المخاوف القديمة يتوقف على التعلم .

وأبسط صور التعلم هو العملية الشرطية . والمبدأ الأساسي هنا هو أن المثير ، الذي كان محايداً في أول الأمر ، إذا اقترن بمثير من شأنه أن يستثير استجابة ما بصورة فطرية ، يصبح مثيراً شرطياً يستثير الاستجابة ذاتها . ومثال ذلك أن النغمة الهادئة ليس من شأنها في العادة أن تستثير الخوف في حيوانات المختبر . ولكن لنفترض أن النغمة كانت تدق ، ثم تعقبها صدمة كهربية تثير الخوف . ولنفترض ، فضلاً عن ذلك ، أن النغمة والصدمة ارتبطتا بهذا الشكل عدة مرات . عندئذ نجد أن النغمة عندما تدق وحدها ، تؤدي إلى ظهور الخوف على الحيوان .

وقد بين جون واطسن منذ عدة سنوات كيف يتم تعلم الخوف البسيط . ذلك أن معظم الأطفال لا يخشون الجرذان ، ولا القثران ، ولا الثعابين ، ولا غير ذلك من الحيوانات الأخرى التي يراها الكبار كرهبة منفرة . وقد تبين أن «آلبرت Albert» ، وكان طفلاً في الشهر الحادى عشر من عمره ، لم يظهر الخوف من الفأر الأبيض ، ولكنه يخاف الصوت المرتفع الذى ينتج عن طرق قضيب من الحديد . وكان القضيب يطرق في كل مرة يمد آلبرت فيها يده ليلمس الفأر الأبيض . وتكررت المزاوجة بين الصوت المرتفع والفأر الأبيض سبع مرات أصبح آلبرت بعدها يفزع من رؤية الفأر فعلاً .

على أن المخاوف يمكن أن تمتد إلى مثيرات مشابهة أخرى عن طريق عملية التعميم . ومثال ذلك أن حيوان المختبر الذى أصبح يخاف من نغمة معينة قد يبدو عليه الخوف كذلك من بعض النغمات المختلفة ، حتى وإن كان الخوف لم يسبق له

أن ارتبط ارتباطاً شرطياً بهذه النفقات . وقد بين واطسن أن خوف ألبرت من الفأر الأبيض أصابه التعميم حتى شمل أشياء مشابهة من قبيل الأرنب الأبيض ، والكرة المصنوعة من وبر القطن ، والمعطف المصنوع من الفراء . لكن هذا الخوف لم ينتقل بالتعميم إلى المكعبات الخشبية الخاصة بالطفل ، ولا إلى الأشياء الأخرى التي لا تشبه الفأر الأبيض .

ثم إن المخاوف يمكن القضاء عليها أو استبعادها بواسطة عملية الانطفاء . والانطفاء يتحقق بأن يتكرر تقديم النعمة ، أو غير ذلك من المثيرات التي كانت محايدة في الأصل ، من غير أن تصحبها الصدمة . وينتهي الأمر بأن تتوقف النعمة عن إحداث الخوف . لكن الانطفاء ، مع ذلك ، لا يمكن تحقيقه بصورة مفاجئة . فلو أنك ألقيت بالشخص الخائف إلى حمام السباحة لما أدى ذلك إلا إلى زيادة مخاوفه . ولذلك ، فإن أحسن الوسائل للقضاء على المخاوف وإزالتها هو أن تعرض الشخص تدريجياً للمثير الخفيف وأن تحل محل استجابة الخوف استجابة أخرى أكثر استرخاء . ومثال ذلك أنه عند القضاء على خوف الطفل من الأرنب ، أخذت ماري كوفر جونز Mary Cover Jones تقدم الأرنب إلى الطفل في الطرف الآخر من الغرفة ، بينما هو يتناول طعامه . والأكل لا يتسق مع الخوف وقد يحل محله . ولذلك ، فقد انتهى الأمر بأن تمكنت الباحثة من أن تقرب الأرنب من الطفل من غير أن تستثير خوفه . وأخيراً ، تمكنت من الاستغناء عن الأكل .

ولكننا نجد ، مع ذلك ، أن معظم مخاوف الأطفال يتم على الأرجح تعلمها بصورة أكثر من ذلك تعقيداً . فإن كثيراً من الأطفال يخشون أشياء لم يحدث من قبل أن كانت لهم بها خبرة مباشرة . وهذا قد يقوم على أساس من تقليد الطفل للأبوين في مخاوفها . وقد أظهرت إحدى الدراسات أن الأطفال يميلون إلى أن تكون لهم نفس المخاوف التي تكون لدى أمهاتهم . وقد كان هذا أوضح ما يمكن بالنسبة للخوف من الكلاب ، والحشرات ، والعواصف .

كذلك قد يتم تعلم المثيرات التي تؤدي إلى الغضب ، ولكن هذا المجال لم يخضع للدراسة المفصلة الواسعة بعد . وإنه لمن الواضح أن الطفل قد يستجيب

بالغضب لا مجرد أنه منع منعاً بدنياً من تحقيق رغبته في الخروج من المنزل ، وإنما مجرد أن أمه قالت « لا » . وقد تكون الاستجابة للتحريم اللفظي أمراً يتم تعلمه عن طريق إجراءات التعلم الشرطى . فإن الأم تردف كلمة « لا » باجتناب الطفل إلى داخل الدار وإغلاق الباب . وبذلك ينشأ الناس وقد تعلموا أن هناك أنواعاً مختلفة من الإشارات تؤدي إلى الإحباط . وإن فريقاً من الناس لتكون عندهم كل استجابة بخلاف الموافقة المتحمسة بكلمة « نعم » بمثابة إشارة للإحباط - فهم قد سئموا من كثرة ما قيلت لهم كلمة « ربما » .

التهديد الشخصى

المثيرات المادية الفطرية والإشارات المرتبطة بها لا تفسر لنا إلا جانباً فقط من المواقف التى تستثير الانفعالات عند الإنسان . ذلك أن الانفعالات قد يستثيرها كذلك ما يواجهه دوافعنا الشخصية والاجتماعية من تهديد . وسوف نناقش هذه الدوافع فى فصول تالية ، ولكننا الآن نكتفى بالقول بأن هذه الدوافع تدور حول تقدير الذات لدينا والأهداف الاجتماعية التى هى مهمة بالنسبة لنا بصفة شخصية . وأصحاب نظرية التحليل النفسى يشيرون إلى هذا المصدر للاستثارة الانفعالية حين يميزون بين الخوف والقلق . أما من الناحية الفسيولوجية فإنها متشابهان - كلاهما يتضمن تسارع دقات القلب والشعور بالفزع . ولكن الخوف مع ذلك يظن به أنه يتضمن نوعاً محدداً مادياً من التهديد ، على حين أن القلق يكون بمثابة استجابة أكثر عمومية للتهديدات الشخصية . وليسأل القارئ نفسه عما يسبب له القلق بصفة شخصية - الشك فى ذكائك ، أو فى أمانتك ، أو فى قدرتك الجنسية ، أو الهجوم على قيمك الخلقية أو الدينية ، أو اهتزاز ثقتك فى أصدقائك أو من تحب ، أو اهتزاز إيمانك بنفسك بوصفك إنساناً محترماً ؟ ذلك أن الناس تهددهم أشياء مختلفة ، ولكن مامن أحد منا إلا وتجد له بعض الأمور تهدده فتستثير قلقه .

وقد تمكن الباحثون و . فوجل W. Vogel وس . رايموند S. Raymond و . ر . س . لازاروس R.S. Lazarus من إثبات ذلك بصورة تجريبية . فقد درست

فقد درست مجموعتان من طلاب المدارس الثانوية وأظهرت إحداهما أن لديها دافعاً قوياً نحو التحصيل الأكاديمي . والثانية أن لديها دافعاً قوياً نحو الصداقة والاجتماعية . ثم عرضت المجموعتان بعدئذ لمواقف كانت تتهدد إما السعي الأكاديمي أو التقبل الاجتماعي . فأما المجموعة الأولى فأظهرت أكبر استجابة للعناء والشدة الفسيولوجية عندما كان تحصيلها مهدداً ، وأما المجموعة الثانية فقد كانت استجابتها الفسيولوجية أكبر كثيراً عندما كان تقبلها الاجتماعي مهدداً . أى أن الاستثارة الانفعالية توقفت على وجود مصدر يتهدد شيئاً له أهمية عند الشخص .

ومن التجربة السابقة يتضح أن استجابة الفرد للموقف الذى ينطوى على التهديد تتوقف على شيء من تقدير الشخص لطبيعة التهديد . وهذا من شأنه أن يعيدنا إلى ما قالت به آرنولد من تقدير الشخص للمثير عند استثارة الانفعال . وقد اتضحت أهمية هذا التقدير في تجربة قام بها الباحثون سبايزمان J.C. Spisman ، ولازاروس R.S. Lazarus ، وموردكوف A.Mordkoff ، ودافيسون L. Davison . وكان هؤلاء الباحثون قد استخدموا مثيراً انفعالياً على درجة كبيرة من القوة - هو فيلم سينمائي تعرض فيه احتفالات البلوغ عند قبيلة استرالية بدائية هي الأرنتا Arunta . والاحتفالات تتضمن إجراء عملية جراحية وفيها يجتمع عدة رجال عراة على الصبي لمسكوه ولتجرى له جراحة قطع القلفة^(١) الزائدة من القضيب بسكين من الحجر ، من غير استعمال مخدر وفي ظروف غير صحية . وكانت عدة دراسات قد أظهرت أن هذا الفيلم يستثير انفعالات شديدة قوية .

لقد كان هدف سبايزمان ورفاقه هو أن يحاولوا التأثير في الاستجابة الانفعالية عن طريق تغيير تقدير الموقف . وقد تم هذا باستخدام عدة تسجيلات صوتية متفاوتة المضمون . أما المجموعة الأولى فكانت تشهد الفيلم مع تسجيل صوتي يؤكد جانب العقل - بمعنى أنه كان الإجراء كله يوصف وصفاً غير انفعالي وبطريقة موضوعية وكأن المعلق واحد من المشتغلين بالأنثروبولوجيا يشهد إحدى

(١) القلفة هي الجلدة الزائدة التي تقطع في الختان (المترجم) .

العادات البدائية للطريقة . وأما المجموعة الثانية فقد استمعت إلى الفيلم بتسجيل صوتي يؤكد الإنكار وتكوين رد الفعل - بمعنى أن المعلق كان يؤكد أن العملية غير مؤلمة وأن صبيان هذه القبيلة كانوا يعدون هذه المناسبة مناسبة سارة - بهيجة . وأما المجموعة الثالثة فقد استمعت إلى تسجيل صادم كان المعلق يبرز فيه الجوانب المؤلمة . وأما المجموعة الأخيرة فكانت تشهد الفيلم صامتاً من غير تسجيل صوتي على الإطلاق . وقد أظهرت النتائج أن المجموعات الأربع اختلفت استجاباتها الفسيولوجية عند الذروة الانفعالية في الفيلم وهي إجراء الجراحة . فأما مجموعة الصدمة فقد كانت استجابتها أشد المجموعات ، ثم تليها مجموعة الفيلم الصامت ثم تأتي في آخر الترتيب مجموعتنا الحيل الدفاعية (التعقل) . والإنكار وتكوين رد الفعل) .

إن العلاج النفسي يستخدم لمساعدة العصبيين والذهانيين . وقد بدأنا أخيراً نفهم العلاج النفسي ، ولكن الأبحاث الحديثة تبين أنه يحدث أفضل التأثير مع الأشخاص الذين يشعرون بأن هناك ما يهددهم شخصياً ، وتبين أنه ينطوي على خفض لحدة القلق ، وعلى زيادة قدرة الفرد على التفكير بوضوح وعلى حل مشكلاته بصورة أكثر توافقاً . وهنا نجد عملية هامة شبيهة بالانطفاء - وهي أن الشخص يتحدث عن الأشياء المحرمة الممنوعة في جو التسامح الذي يسود العلاج .

على أن التهديد الشخصي قد يتخذ كذلك صورة إحباط لمسمى الفرد أو الجماعة نحو هدف ما ، ولذلك فإنه يحدث الغضب والعدوان . وقد توفرت بعض الأدلة على أن جانباً كبيراً من العدوان الغاضب في الحياة الاجتماعية - من الجرائم ، والثورات ، والعنف فيما بين الأجناس المختلفة ، وما إلى ذلك - له صلة بأنواع الإحباط الاقتصادي والاجتماعي والشخصي . والإحباط قد يكون واحداً من العوامل التي تؤدي إلى الحرب . وقد عزا بعض الناس قيام هتلر وماتلا ذلك من إراقة للدماء إلى الشروط المخزية التي تضمنتها اتفاقية الصلح بعد الحرب العالمية الأولى ، وإلى أنواع الإحباط الاقتصادي التي تسببت عن التضخم والكساد في

ألمانيا خلال العشرينات والثلاثينات . لكن هذا التفسير تفسير نظري إلى حد كبير لأن من الصعوبة بمكان أن ندرس ظاهرة معقدة مثل الحروب . ومع ذلك فقد تمكن الباحثون من دراسة العداوات فيما بين الجماعات على مقياس أصغر . وبصورة تجريبية .

فقد درس مظفر شريف Muzafar Sherif وزوجته كارولين شريف Carolyn S. الخلاف بين الجماعات في معسكر تجربي للأولاد في سن الثانية عشرة . وكان الأولاد قد تم تقسيمهم إلى جماعتين ، كل جماعة تتألف من اثني عشر طفلاً وتعيش مستقلة عن الجماعة الأخرى . وبعد مرور الوقت أصبحت لكل واحد من الجماعتين تماسكها وقيادتها ، مع قيام شيء من التنافس الودي بينها . ثم نظم لقاء بين المجموعتين من أجل التنافس الرياضي بشكل معين يؤدي إلى أن تخسر إحدى الجماعتين على الدوام . كما نظم الباحثان وسائل أخرى للإحباط . وكانت النتيجة هي العداء المر بين الجماعتين ، بما في ذلك من صخب هائل في قاعة الطعام المشتركة ، وإغارة كل جماعة على معسكر الجماعة الأخرى ، وحديث عن «الحرب» . وقد بدا أن الإحباط الجمعي ، بما تضمن من فقدان لتقدير الذات ، كان بمثابة العامل الجوهرى الحاسم . وكذلك حاول الباحثان أن يتقصا من حدة العداوة فيما بين الجماعتين . وقد ساعد على ذلك أن يتعاونوا على مواجهة فريق خارجي في ميدان الرياضة ، وإن كان هذا مؤدياً بالطبع إلى أن تنتقل العداوة إلى نطاق أكبر ونحو جماعات أخرى . أما أنجح الوسائل التي جربها الباحثان فكانت التعاون في العمل على مشاريع معينة . واليوم نجد أن كثيراً من المشتغلين بعلم النفس يهتمون اهتماماً شديداً بتخفيف التوترات الدولية وتجنب الحروب النووية . وقد تضمنت اقتراحاتهم زيادة التفاهم العالمى والتعاون بين الدول ، والخفض التدريجي للتسلح مع دعوة الدول الأخرى للقيام بالمثل ، والعمل على الإقلال من الإحباطات الاقتصادية والاجتماعية في الدول النامية ، تلك الإحباطات التي من شأنها أن تهيئ سكان هذه الدول للعدوان .

والخلاصة أن الاستجابات الانفعالية يمكن أن تستثار بصورة فطرية في عدة

مواقف - مثال ذلك أن الخوف تستثيره بصورة فطرية الضجة المفاجئة ، وأن الغضب يستثيره بصورة فطرية الإحباط . ثم إنه يمكن أن يتم تعلم مصادر أخرى للخوف والغضب عن طريق الإشراف أو عن طريق التقليد ، كما يمكن أن تمتد هذه الانفعالات لتشمل مواقف شبيهة عن طريق عملية التعميم . وأما المخاوف وأنواع القلق القديمة فيمكن القضاء عليها واستبعادها بعملية الانطفاء . وعند الإنسان نجد أن التهديد الذي يتعرض له الشخص مصدر هام للاستثارة الانفعالية - وهو نوع من الاضطراب يطرأ على تقدير المرء لذاته أو التعطيل للدافعية الاجتماعية . على أن التهديدات الشخصية تتوقف ، إلى درجة كبيرة ، على تقدير الفرد للموقف وعلى ارتباط الأمر بما لدى الفرد من دوافع اجتماعية .

الاستجابة الانفعالية :

ما الذي يحدث في الشخص عندما يعمل مشير خارجي على استثارة انفعاله؟ هناك ، كما رأينا من قبل ، تغيرات تطرأ على خبرة الفرد الذاتية وعلى جسمه كذلك . وفيما يلي نحاول أولاً أن نصف ونصنف الأنواع المختلفة من الاستجابات الانفعالية ، ونعتمد في ذلك إلى حد كبير على التقارير الذاتية أو الملاحظات العامة . ثم نصف بعد ذلك التغيرات الجسمية - الأنماط السلوكية الظاهرة أولاً ، ثم الوقائع الفسيولوجية الداخلية بعد ذلك . وأخيراً سوف نحاول أن نربط كل هذه التغيرات معاً عندما ندرس ميكانيزمات الدماغ المتضمنة في كل جوانب الاستجابة الانفعالية .

تصنيف الانفعالات

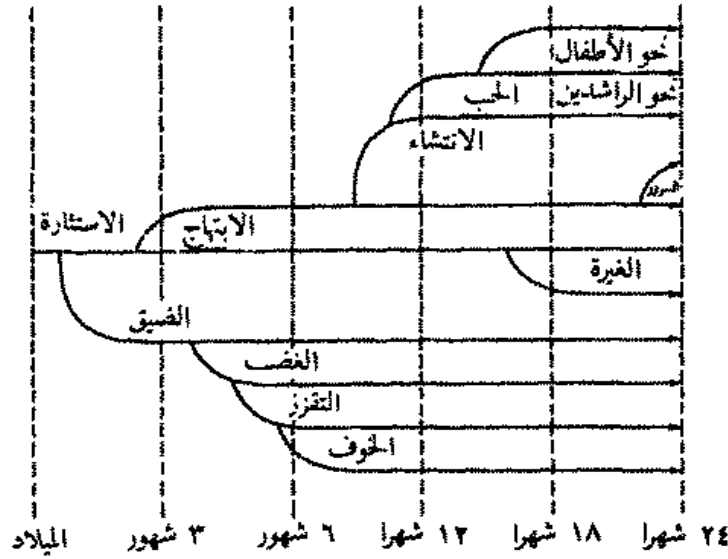
قائمة المشاعر والاستجابات التي ندرجها تحت مصطلح الانفعال تكاد أن تكون قائمة لا متناهية . ولعل بعض ما يرد إلى الذهن بسرعة هو: الخوف ، الغضب ، الفزع ، الرعب ، الألم ، القلق ، الغيرة ، الحجل ، الحرج ، التفزز ، الحزن ، الضيق ، الرفض . على أن هذه تميل إلى أن تكون انفعالات سلبية ،

ولكننا مع ذلك يمكن أن نضيف بعض الانفعالات الإيجابية : الحب ، الفرح ، الاستمتاع ، الحبور ، النشوة ، اللذة ، السعادة . ومن الواضح تماماً أن القائمة يمكن أن تمتد إلى ما لا نهاية ، وذلك بحسب مهارة الشخص في الاستبطان وسعة محصوله اللغوى .

لكن واجب العلم هو أن نتبين إن كان هناك أى نظام فى هذا الامتداد اللانهائى من الخبرة الانفعالية . ترى هل صحيح أنه لا يكون لدينا عند الميلاد من الاستجابات الانفعالية الأساسية إلا عدد قليل يظل ينمو ويمتزج بعضه ببعض على أنحاء مختلفة بفضل التعلم والنضج حتى يتحول إلى كل هذا الامتداد الواسع من الخبرة الانفعالية الذى نعرفه بعد أن نبلغ مرحلة الرشد؟ لقد كانت هذه فكرة العالم السلوكى جون واطسن الذى ذهب إلى أن هناك ثلاثة انفعالات أساسية عند الأطفال - الخوف ، والغضب ، والحب . ولكن الدراسات التالية أظهرت بعد ذلك أن الاستجابية الانفعالية عند الولادة تكون أكثر بساطة مما كان واطسن يظن .

فقد أظهرت مشاهداتنا للأطفال فى دور الأيداع من تتراوح أعمارهم بين الولادة والعامين أن الرضيع فى أول أمره إما أن يكون مستثاراً أو هادئاً . وأن المثيرات من أى نوع لا تستثير لديه إلا نمط استثارة عام واحد . ولكن هذا النمط العام من الاستثارة يعود فيتمايز ويتباين كلما نما الطفل ، وذلك كما يتضح من الشكل رقم (٥) .

فهل نظل هذه الاستجابات الانفعالية تتمايز وتتباين طوال الحياة لنحصل منها بعد ذلك على تلك الطائفة الهائلة من الانفعالات التى نجدها عند الراشدين ؟ الظاهر أن تكرار الانقسام الفرعى لا يمكن أن يفسر لنا أنواع المشاعر المختلطة التى نجدها عند كثير من الراشدين . مثال ذلك أن الشعور بالإثم قد يكون مزيجاً من الفرح والخوف - الاستمتاع المحرم . والظاهر هنا أننا بصدد انصهار لعدد من الانفعالات المتباينة المختلفة ، لا بصدد تمايز بسيط .



شكل ٥ - التمايز بين الانفعالات خلال فترة النمو المبكرة . وقد أظهرت ملاحظة الرضع وصغار الأطفال أن الانفعالات المحددة تنشأ عن تمايز عدد من الاستجابات الانفعالية العامة .

(نقلا عن K. Bridges. Emotional development in early infancy. Child Dev., 1932, 3, 324-341.)

وقد قدم لنا روبرت بلوتشيك Robert Plutchik نظرية عن المزيج الانفعالي . وفيها يفترض بلوتشيك أن هناك ثمانى استجابات انفعالية أساسية - التوقع ، الغضب ، الفرح ، التقبل ، الدهشة ، الخوف ، الأسف ، والتقرز . وهذه بمثابة استجابات جسمية نمطية يمكن أن نجد لها أصولاً أولية في الحيوانات الأدنى . وهى قد تعرضت للتغير بسبب التطور ، كما أنها قد تتطلب شيئاً من النضج من جانب الفرد . ثم إن الخبرة الانفعالية المركبة التى نجدها عند الراشدين من بنى الإنسان إنما تتحقق بالامتزاج فيما بين هذه الاستجابات الثمانية الأساسية ، وذلك كما يقول بلوتشيك .

كذلك يفترض بلوتشيك أن كل استجابة انفعالية أولية يمكن أن تختلف من حيث الشدة ، وبذلك تنتج عنها درجات مختلفة من الخبرة الانفعالية . فإن

دراستنا للألفاظ التي نستخدمها لوصف الخبرة الانفعالية تبين لنا أن استجابة أساسية مثل الخوف قد تتفاوت في الشدة من الإشفاق ، مروراً بالخشية والخوف والفرح حتى تنتهي إلى الرعب . وكذلك نجد لدينا الضيق ، والغضب ، والموجدة ، ونجد كذلك الهدوء ، والارتياح ، والاستمتاع ، والسعادة ، والفرح ، والانتشاء . ثم إن امتزاج الانفعالات المختلفة بمستوياتها المختلفة من الشدة يمكن أن يوضح لنا كيف نصل في آخر الأمر إلى هذه الطائفة الكبيرة المتنوعة من الخبرة الانفعالية . خذ لذلك ، مثلاً ، أن امتزاج الفرح الشديد بالخوف الطفيف قد يفسر لنا تلك السعادة التي يشوبها التأثم والتي قد نشعر بها عندما ننغمس في عمليات شراء متتالية متتابعة من الأسواق .

والواقع أن الحكم النهائي على نظرية بلوتشيك ، أو أى نظرية أخرى مماثلة لها ، لن يتيسر حتى تكتمل لدينا المعلومات عن تطور الاستجابات الأصلية الأولية وما يصاحبها من ميكانيزمات الدماغ . وقد أثر فريق آخر من المشتغلين بعلم النفس أن يسلكوا سبيلاً وصفيّاً في تصنيف الانفعالات . والمنحى الوصفي يقوم على عزل بعد أساسي واحد أو عدة أبعاد أساسية يمكن أن تصنف الاستجابات الانفعالية وفقاً لها . من هذه الأبعاد الأساسية نجد ثلاثة أبعاد أساسية تقدم بها عدة باحثين وهي : الشدة ، سار - غير سار ثم الاقتراب - التجنب .

أما بعد الشدة فإنه البعد الذي وافق عليه أكثر المشتغلين بعلم النفس . وقد سمي كذلك بمستوى الاستثارة أو التنشيط . وقد رأى دونالد لندزلى Donald Lindsley ، بناء على بعض الوقائع والبيانات الفسيولوجية ، أن معظم السلوك يمكن وصفه من حيث موضعه على بعد متصل من التنشيط يمتد من الموت ، فالغيبوبة ، فالنوم العميق ، فالنوم الخفيف ، فغالبية النعاس ، فالبقظة المسترخية ، فالانتباه المستيقظ ، فالانفعال المستثار . كما اقترحت إليزابيث دافى Elizabeth Duffy أن يستبد بمصطلح الانفعال كلمة مثل الاستثارة أو تعبئة الطاقة ، بل لقد غالى بعض الباحثين إلى درجة القول بأن الفرق الوحيد الحقيقي بين انفعال وآخر هو في درجة الاستثارة فقط .

لكن هناك ، مع ذلك ، أدلة قوية على أن الانفعالات تتمايز عبر أبعاد أخرى غير الشدة . فإن الانفعالات ، وإن اتفقت في مستوى الشدة ، قد تكون سارة أو غير سارة ، بحيث إن الفزع والانتشاء قد يكونان على درجة واحدة من الاستثارة . ولكنه ، مع ذلك ، يمكن التمييز بينهما بسهولة . ولقد أظهرت عدة دراسات أن بعد السار - غير السار ، أو شيئاً آخر مرادفاً لهذا البعد ، هو عامل مستقل عن مستوى الاستثارة . ومن بين الانفعالات التي هي أكثر استثارة يظهر الفرح . والدهشة . والأمل ، والانتشاء على الجانب السار ، ويظهر التقزز ، والخوف . والغضب . والفزع على الجانب غير السار . كما أن من بين الانفعالات التي هي أقل نفسياً من الاستثارة نجد شعور الأمومة السار والحزن غير السار .

وأما بعد الاقتراب - التجنب فهو يساوي ذلك التعريف الذي قدمته آرنولد للخبرة الانفعالية بأنها ميل يشعر به المرء نحو مشيرات معينة أو بالابتعاد عن مشيرات أخرى . وفي حالات كثيرة نجد الميل للاقتراب متجهاً نحو مشيرات تستثير المشاعر السارة . بينما يكون ميل التجنب متجهاً نحو الابتعاد عن مشيرات تستثير المشاعر غير السارة . ولكن هذا ليس هو الحال دائماً مع ذلك ، ولهذا وجدنا أن بعد الاقتراب - التجنب يختلف بوضوح عن بعد السار - غير السار . نجد لذلك ، مثلاً ، أن الغضب انفعال من النوع غير السار ، ولكنه قد يتضمن اقتراباً من الشيء بغرض المهاجمة . والازدراء انفعال له بعض الجوانب السارة ، ولكنه عادة ينطوي على ميل إلى التجنب .

وبصفة عامة ، نجد أنه يمكن تصنيف هذا التنوع المدهل من الانفعالات بحسب عدة مبادئ . كما أن الاستجابة الانفعالية العامة عند الميلاد تتعرض للتمايز أثناء تطور النمو . وأتينا عند بلوغ مستوى الراشدين يمكننا أن نتبين وجود عدة انفعالات أساسية تتألف بعدة صور مختلفة لينتج عنها انفعالات أكثر دقة وتخصصاً . وأخيراً نقول : إن الخبرة الانفعالية يمكن أن نصنفها على أساس عدة أبعاد من قبيل مستوى الشدة ، السار - غير السار ، والاقتراب - التجنب .

الأنماط الجسمية الظاهرة

منذ ما يقرب من مائة سنة كتب تشارلز داروين أول كتاب علمي هام عن الانفعال . وفيه رأى داروين أن الأنماط الانفعالية عبارة عن استجابات موروثة حقا كان لها نفعها البيولوجي في تطور الفصائل الحيوانية . وقد ركز على الأنماط العضلية الظاهرة التي يمكن ملاحظتها - من حركات وأوضاع جسمية . فالتكشير عن الأنياب ، وانتصاب الشعر ، والزجرجة التي ترتبط بالعداوة عند الحيوانات ، هي في حقيقتها طرق للاستعداد للهجوم والدفاع . ثم بقيت هذه عند الإنسان في صورة ضغط الأسنان وصريرها عندما نشعر بالعداء والكراهية .

ثم إن هناك أنماطاً انفعالية أخرى تبدو مناقضة للكراهية . بحيث نجد أن التعبير عن المحبة يكاد يناقض سلوك الكراهية . وهذا ينسجم مع مبدأ داروين عن التضاد . وإذا بنا نجد تصلب العضلات ، ووقوف الشعر ، وزجرجة الكلب العدواني تتحول إلى استرخاء لين ، وأرجحة للذنب ، وارتخاء للشعر ، وصوت لين للاستجداء والتحبب . والظاهر أن هذا السلوك يعبر به عن عدم وجود شيء يهدد الحيوان ، وبالتالي عن أن الاتصال الاجتماعي أمر مسموح به .

وأما عند الإنسان فإننا كثيراً ما نتعرف على الحالة الانفعالية عند الفرد بحركاته وأوضاعه . ولذلك ، ترانا نحكم على الشخص المتيسر أو المتململ بالتوتر . كما أن الحركات الكبيرة القوية قد توحى بالعداوة . والاسترخاء والحركات الرشيقة تجعلنا نفكر في المشاعر الإيجابية . وعند الإنسان نجد أن أهم التعبيرات العضلية الظاهرة عن الانفعال تحدث في منطقة الوجه . وإننا لنقرأ وجوه الناس حتى نستبين مشاعرهم أكثر مما نلاحظ سلوكهم الإجمالي العام . وقد اختلف المشتغلون بعلم النفس زمناً طويلاً حول دقة هذه القراءة . إذ أن الدراسات الأولى ألفت ظللاً كثيفة من الشك حول قدرة الناس على التبين الدقيق للانفعال على أساس من تعبيرات الوجه . والأدلة الراهنة تشير إلى أن الناس تستطيع أن تبين الأنماط

الرئيسية . وإن كان من الصعب أن نميز تمييزاً دقيقاً فيما بين تعبيرات الوجه عن الانفعالات المتشابهة .

وقد كلف هـ . شلوسبرج H. Schlosberg في دراسة حديثة له . بعض الأفراد بالنظر في صور لموديلات يعرضون تعبيرات مختلفة على وجوههم . ثم بتقدير هذه الصور على بعدين اثنين من الأبعاد : بعد السار - غير السار . وبعد الانتباه - الرفض (والانتباه - الرفض عند شلوسبرج يساوى بعد الاقتراب - التجنب) . وتبين أن هناك اتفاقاً طيباً في التقديرات . فأما الصور ذات التقديرات العالية في بعد السار وبعد الانتباه فإنها توحى بانفعالات مثل السعادة . وأما الصور غير السارة ذات الانتباه فتوحى بالغضب والاهتمام . وأما الصور التي أعطيت تقديرات عالية في السار والرفض فتوحى بالازدراء . بينما تلك التي أعطيت تقديرات عالية في غير السار والرفض فتوحى بالتقزز . وقد توصل شلوسبرج من بعد ذلك إلى أدلة تبين وجود بعد ثالث في تعبيرات الوجه هذه - مستوى التنشيط أو الشدة .

نرى إلى أي حد تكون تعبيرات الوجه مرتبطة ارتباطاً فطرياً بالانفعال ، وإلى أي حد تكون متعلمة ؟ إن الاطفال الذين أصابهم الصمم والعمى يميلون إلى أن تظهر لديهم نفس التعبيرات التي نجدها عند الأطفال الأسوياء في نفس المواقف وفي نفس مستوى العمر تقريباً . وهذا من شأنه أن يوحي بأنها أنماط فطرية . ولكن التعلم الاجتماعي له ، في نفس الوقت ، بعض التأثير على طريقة التعبير بالوجه عن الانفعالات . فالأمريكيون يعبرون عادة عن الدهشة برفع الحاجبين ، بينما نجد الصينيين يخرجون ألسنتهم .

والخلاصة أن الانفعالات يمكن أن يعبر عنها بحركات بدنية إجمالية وتعبيرات الوجه . وتعبيرات الوجه يمكن أن نصفها باستخدام أبعاد من قبيل الشدة والسار - غير السار ، أبعاد تقابل الأبعاد التي تصف الخبرة الانفعالية الذاتية . وعلى الرغم من أن هذه الأنماط فطرية متوارثة بدون شك عند الحيوانات الأدنى ، إلا أن

استجابات الإنسان تكشف كذلك عن وجود تأثير للتعلم الاجتماعي .

التغيرات الفسيولوجية الداخلية

كل من سبق له أن خبر الانفعال يدرك بوضوح أن أكثر التغيرات الجسمية أهمية هو التغيرات الداخلية . ترى هل تسارع دقات القلب والشعور بالانقباض والسقوط في أعماق المعدة مجرد علامات على شيء من الاضطراب أو سوء التنظيم الداخلي ؟ لا ، وإنما هي تبدو عمليات جسمية ذات معنى . وقد وسع والتركانون من فكرة داروين عن أن التعبير الانفعالي بمثابة عادات نافعة لها فوائدها وجعلها تشمل الاستجابات الداخلية أيضاً . ورأى كانون أن التغيرات الداخلية تمثل استجابة طوارئ من شأنها أن تعد الجسم للقتال أو الهرب .

على أن سلوك الأعضاء الحشوية الداخلية (من القلب ، والرئتين ، والمعدة ، والأمعاء ، وما إليها) يقع تحت سيطرة الجهاز العصبي المستقل . ولهذا الجهاز قسمان رئيسيان - الباراسمبتاوى والسمبتاوى وهما يعملان في اتجاهين أقرب إلى أن يكونا متضادين . فأما الباراسمبتاوى فيختص أساساً بوظائف الجسم النباتية أو المتصلة بأعمال التغذية العادية . فهو ينشط إفراز اللعاب والعصارات الهاضمة والحركات الدودية في القناة المعدية المعوية والهضم بصفة عامة . كما أن الجهاز الباراسمبتاوى يعمل على تهدئة وإبطاء التنفس ودق القلب ويساعد في وصول الدم إلى الأمعاء .

وأما الجهاز العصبي السمبتاوى فينهض للعمل عندما يواجه الفرد بعض الطوارئ . وكذلك يمكن النظر إلى التغيرات في وظائف الجسم على أنها تعد وتهيئ لبذل الجهود والإنهاك . فعملية الهضم تتجه نحو البطء ، وسيلان الدم يتجه نحو الدماغ والعضلات حيث تشتد الحاجة إليه . والقلب تزداد سرعة دقاته حتى يزود هذه الأعضاء بنصيبها من الدم بصورة أسرع . والتنفس تزداد سرعته حتى يأتي بقدر أكبر من الأوكسجين ، والكبد يطلق مدداً حاضراً من السكر المطلوب للطاقة

والنشاط . وكذلك تحدث تغيرات أخرى ذات وظائف تكيف بعيدة الاتصال من قبيل اتساع حدقة العين ، وانتصاب الشعر ، وازدياد العرق . ويقول كانون إن الجسم يكون بذلك متهيئاً للقتال أو الفرار .

وبالإضافة إلى الجهاز العصبي السمبتاوى ، نجد أن جهاز الغدد الصماء يلعب دوراً رئيسياً في استجابة الاستنفار هذه . وجهاز الغدد الصماء هذا تسيطر عليه الغدة النخامية ، ولكن طريقة العمل تتضمن عدة هورمونات تفرزها الغدتان الكظريتان (الأدريناليتان) . والهورمونات الأدرينالية لها تأثيرها في الدورة الدموية ، وفي الاحتفاظ بالأملاح ، وفي إنتاج السكر ، وفي السيطرة على الالتهاب . واستجابة الشدائد العصبية هذه يمكن أن تبدأها مئات من المثيرات التي تحدث الضرر المادى ، وكذلك المثيرات الانفعالية .

ثم إن الاستجابة للشدائد العصبية تتوقف كذلك على نوع الشدائد العصبية ، وهل هي مزمنة أم حادثة طارئة . وقد وصف هانز سليبا Hans Selye الاستجابة الأولية للشدائد العصبية بأنها مرحلة الاستنفار التي تكون التغيرات الجسمية خلالها متسقة مع فكرة الاستجابة للطوارئ . ولكنه إذا امتدت واستمرت الشدائد العصبية وجدنا الاستجابة تدخل مرحلة جديدة هي مرحلة المقاومة . وفي هذه المرحلة نجد الجسم يعوض عن موقف الشدائد العصبية ويحاول أن يوطن نفسه على العيش معها . إن جاز هذا التعبير . وخلال مرحلة المقاومة هذه يكون الجسم معرضاً للأذى إلى حد كبير ، ولذلك ، فإن أى زيادة في شدة الموقف العصبي قد تؤدي بالجسم إلى مرحلة أخيرة نهائية هي مرحلة الإنهاك .

على أن من أهم جوانب نظرية الطوارئ عند كانون هي أن الاستجابات الجسمية في طائفة متنوعة من الحالات الانفعالية - بما في ذلك الألم والجوع والخوف والغضب - تكون متشابهة في جوهرها . وقد عمل بعض المشتغلين بعلم النفس على توسيع هذه النظرية لتشمل كل الحالات الانفعالية - بحيث لم يعد هناك ما يفرق ويميز بين الانفعالات المختلفة غير مستوى الاستثارة العامة . على أن

هذه الفكرة قد تكون تأثرت بالتركيز الشديد على الانفعالات السلبية المستثارة ، بحيث إن استجابات الجسم عند الأمهات أثناء إرضاعهن لأطفالهن رضاعة طبيعية لا بد وأن تكون مختلفة بالتأكيد . ولكننا مع ذلك نجد أنه ، حتى بالنسبة للانفعالات السلبية المستثارة ، هناك أدلة وبراهين على وجود استجابات جسمية مختلفة .

إن انفعالات الغضب والخوف تمثل حالات المقاتلة أو الهرب التي ذهب إليها كانون . وقد كان ينظر إليها في أيام كانون على أنها متشابهة من حيث استجابة الجسم لها . كما كان يبدو أنها تقع تحت سيطرة هورمون الغدتين الكظريتين الذي يسمى بالأدرينالين . ولكن الأبحاث الحديثة أظهرت من بعد ذلك أن هناك على الأقل نوعين من هورمون الأدرينالين المهمة في الانفعال - الأول هو الأدرينالين والثاني هو النورأدرينالين . ولهذين الهورمونين تأثيرات مختلفة على الجسم ، كما يبدو أنها مرتبطان بانفعالات مختلفة . أما الأدرينالين فإنه أكثر ارتباطاً بالخوف ، بينما النورأدرينالين أشد ارتباطاً بالغضب . من ذلك ، مثلاً ، أن الحيوانات الوداعة المسالمة التي تروع بسهولة مثل الأرانب أكثر إفرازاتها من نوع الأدرينالين ، بينما نجد الحيوانات التي تقوم حياتها على مهاجمة غيرها مثل الأسود أو السباع فإن الغلبة عندها تكون لمادة النورأدرينالين .

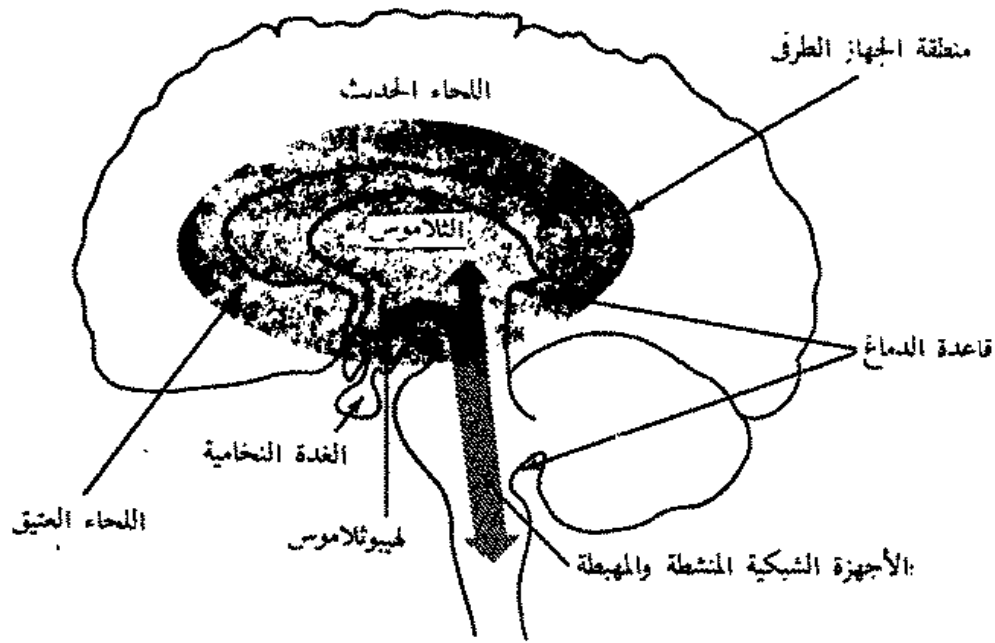
وقد تمكن الباحث دانييل فونكنشتاين Daniel Funkenstein من أن يبين أن طلاب الجامعات يستجيبون للعمل المحبط بثلاث صور مختلفة : فبعضهم يظهر الخوف ، وبعضهم يظهر الغضب الخارجى نحو المحربين أو الباحثين ، وبعضهم الثالث تبدو عليه استجابة الكتابة التي تتألف من التعبير عن غضب المرء من نفسه أو بعبارة أخرى من توجيه اللوم نحو الذات . أما الطلاب الذين عبروا عن الغضب الخارجى فقد ظهرت لديهم استجابة فسيولوجية تبين أن هورمون النورأدرينالين يتم إفرازه . على حين أن الاستجابة الأدرينالية كانت تبدو على الطلاب الذين يستجيبون باستجابة الخوف أو الاكتئاب .

وهكذا نستطيع أن نقول . إذن . أن الانفعال يتضمن استجابة فسيولوجية داخلية يتوسط فيها الجهاز العصبي السمبتاوى والغدد الصماء .. وأما الاستجابة للشدائد العصبية الطارئة فتتألف من استجابة طوارئ تهيئ الجسم للقتال أو الفرار ، على حين أن الشدائد العصبية المزمنة تؤدي إلى مرحلة مقاومة قد تؤدي إلى المرض النفسجسمي (السيكو سوماتي) . وعلى الرغم من أن بعض الناس يرون أن التغيرات الداخلية واحدة متشابهة في كل الانفعالات ، إلا أن هناك براهين وأدلة على أن هذه التغيرات الداخلية تختلف فيما بين الانفعالات ، أو فيما بين بعض الانفعالات على الأقل مثل الخوف والغضب .

ميكانيزمات الدماغ في الانفعال

نظرية كانون - بارد الثلاموسية في الانفعال تعيها البساطة المفرطة . ولكنها مع ذلك وجهت الأذهان إلى احتمال أن تكون الانفعالات بمثابة أنماط سلوكية معقدة تسيطر عليها ميكانيزمات في الدماغ . وقد تركزت أبحاث كثيرة في فسيولوجيا الانفعال على هذه الميكانيزمات المركزية لا على التغيرات العضلية أو المستقلة .

على أن هناك جهازين اثنين عامين في الدماغ يظن أن لهما صلة بالانفعال . أما الأول فيسمى بالجهاز الطرفي . وهو يتضمن أجزاء من الثلاموس والهيبوثلاموس ، وكذلك بعض المواقع القريبة المحددة من اللحاء - وهي اللب الداخلي للحاء ، لا الجزء الخارجي منه . وهذا اللب الداخلي قد تطور في وقت مبكر عن الجزء الخارجي ، كما أنه لا يكاد يختلف فيما بين الإنسان والقردة والثدييات الأدنى ، على حين أن الجزء الخارجي قد ظهرت عليه تغيرات تطورية هائلة . من أجل هذا ، يتجه الظن إلى أن اللب الداخلي هو المخ العتيق البدائي كما أنه يسمى باللحاء العتيق ، بينما يسمى الجزء الخارجي باللحاء الحديث . وفي الشكل رقم (٦) تتضح هذه المناطق من الدماغ .



شكل ٦ - مناطق الدماغ ذات الأهمية بالنسبة للدافعية الانفعالية . الجهاز الطرفي - بما في ذلك أجزاء من المحاء العتيق والتلاموس والمخيولاموس - يحتوى على ميكانيزمات للتعبير جسمياً عن الخوف والغضب وانفعالات أخرى ، وكذلك على مناطق للذة والألم وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجهاز العصبي المستقل وبجهاز الغدد من خلال الغدة النخامية . على حين أن الأجهزة الشبكية المنشطة والمهبطة تتحكم في المستوى العام للاستثارة في الدماغ وفي الجسم .

وبالاحظ ، كما سبق أن رأينا ، أن الجهاز الطرفي متصل بكثير من الدوافع الهوميوستازية وأنه يتضمن مناطق اللذة والألم . وهو مرتبط ارتباطاً شديداً كذلك بالاستجابات المستقلة والتغيرات الجسمية المتصلة بالانفعال . كما أن تنبيه الأجزاء المختلفة من الجهاز الطرفي تحدث الخوف والغضب وبعض الاستجابات الانفعالية الأخرى .

على أن الاستجابات لتنبيه الجهاز الطرفي يمكن أن تخضع للتعلم الشرطي وأن يكون لها تأثير الدوافع الذي يكون للانفعالات المستثارة بصورة طبيعية . فقد عمل الباحثون الباحثون « دجلادو » و « روبرتس » و « ميللر » N.E. Miller

J.M.R. Delgado, W.W. Roberts, على استثارة الخوف في القطط عن طريق التنبيه الكهربى للجهاز الطرفى لديها . وقد تمكنوا . بعد أن قرنوا بين نغمة معينة وبين تنبيه الدماغ ، من أن يستثيروا الخوف بالنغمة وحدها . ثم تمكنوا بعد ذلك من إظهار أن القطط يمكنها أن تتعلم إدارة عجلة (تدويرها) حتى تُخمد صوت النغمة . وهذا هو نفس السلوك الذى يصدر عن الحيوانات عند الخوف السوى الطبيعى .

وأما ميكانيزم الدماغ الآخر ذو الأهمية فى الانفعال فإنه الجهاز المنشط الشبكى . وهو يتضح أيضاً من الشكل رقم (٦) . وهذا الجهاز يقع عند ساق الدماغ ويمتد أماماً إلى الثلاموس والهيپوثلاموس . وهو يعمل ، بصفة عامة ، كجهاز إنذار غير محدد ، بمعنى أنه يستثير اللحاء ، ويسرر مرور الرسائل القادمة إلى الدماغ من البيئة ، كما يزيد من تنبه الجسم . كذلك يظن أن هذا الجهاز متصل بالشعور واليقظة ، والحالات الانفعالية المستثارة . وهو لا يوجه السلوك فى اتجاه واحد معين ، وإنما نجد أن له تأثيراً منشطاً عاماً على كل أنواع السلوك . كما أن الباحثين توصلوا حديثاً إلى بعض الأدلة على وجود جهاز تهييط (لا تنشيط) يؤدي إلى حالات من خفض الاستثارة ثم النوم .

على أن ميكانيزمات الدماغ هذه غير مفهومة بعد فهماً كاملاً ، ولكننا نعلم عنها ما يكفى لبيان أن الانفعال هو أمر يرجع إلى حد كبير إلى وظائف الدماغ . ولعل التفسير المعقول للوقائع التى تحدث أثناء الانفعال هو : أن أعضاء الحس فى الجسم تستجيب للمثير لتنتقل هذه المعلومات إلى الدماغ . ثم تشارك أجزاء مختلفة من الدماغ ، ومن بينها بصفة خاصة اللحاء وبعض أجزاء الجهاز الطرفى ، فى تقدير المعلومات الواردة ، وخصوصاً من حيث أنها تنبئ بشئ سار أو غير سار . ثم إن الاستجابة الانفعالية تتوقف على عدة ميكانيزمات ، فأما الجهاز الطرفى فيشرف ويسيطر على بعد السار - غير السار ، وبعد الاقتراب - التجنب ، وأما الجهاز المنشط الشبكى فيشرف ويسيطر على مستوى التنشيط ، أو بعد

الشدة . والظاهر أن الجهاز الطرفي هو الميكانيزم الذى يؤثر تأثيراً مباشراً كبيراً فى الاستجابات الحشوية من خلال الجهاز العصبى المستقل ومن خلال الغدة النخامية التى هى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالهيپوثلاموس . ثم إن التغيرات الحشوية قد تصبح مصدراً ثانوياً للمعلومات عن مشاعر الجسم ، وأن هذه المعلومات تعود من بعد ذلك فترتد إلى الدماغ . وهكذا نجد أن الخبرة الذاتية للانفعال تتحدد إلى درجة ما بفضل عملية التقدير المبدئية ، وإلى درجة ما بفضل المعلومات المرتدة من التغيرات الحشوية .

تأثير الانفعال فى السلوك

الانفعال يستثيره مثير خارجى ، فيستجيب الدماغ والجسم باستجابة انفعالية . فإذا يحدث عندئذ ؟ الأمر يتطلب التصرف ! وسلوك الشخص يتأثر ، ولكننا نجد هنا أيضاً خلافاً ذا تاريخ قديم حول الآثار المحددة للانفعال . أما بعض أصحاب النظريات فيرون أن الانفعال يختلف عن الدوافع بسبب أن الانفعال له تأثير سيقى على السلوك ، إذ يؤدى به إلى الطراب والاختلال . وأما بعضهم الآخر فيرون أن الانفعال يمكن أن يؤدى إلى انتظام السلوك كما تفعل الدوافع . كذلك قد يكون من الممكن أن كلاً من الانفعالات والدوافع إما أن يكون لها آثار تنظيمية أو آثار مفسدة للتنظيم . ونحن الآن نبدأ أولاً بمناقشة الخلاف بين التنظيم والاضطراب ، ثم نعود فننظر فى الخوف والغضب من وجهة نظر الدوافع .

الانفعالات - وهل هى تؤدى إلى التنظيم أم إلى الاضطراب ؟

الناس فى حياتهم اليومية العادية يرون فى الانفعال شيئاً مناقضاً للعقل . فالسائق الماهر قد يتحول إلى سائق خطر لو أنه اعتراه « الانفعال » . والمحامى الحاذق يعمل على أن يدفع بشاهد المعارضة إلى الضيق وبذلك يختلط عليه الأمر فتصبح شهادته متناقضة . ولعله من النصائح الطبية ألا يتخذ المرء قراراً رئيسياً فى حياته إلا وهو هادئ غير مستثار .

وقد درس تأثير الانفعال من حيث إفساد التنظيم في المواقف التجريبية .
من ذلك ، مثلاً ، أن سيمور ساراسون Seymour Sarason وبعض
أعوانه بحثوا في ما يشعر به أطفال المدارس من قلق نحو الاختبارات .
وانتهوا إلى وضع مقياس للقلق من الاختبارات تستخدم فيه الأسئلة من قبيل « هل
نحمل الهم كثيراً عندما نتقدم للامتحان ؟ » واستخدمت الإجابات لهذا الاستفتاء
أساساً يختار على حسب الأطفال أصحاب القلق شديد الارتفاع أو القلق شديد
الانخفاض من الامتحانات حتى يمكن التعمق في دراستهم . وتبين أن الأطفال من
أصحاب القلق المرتفع لا يحسنون صنفاً في الامتحانات التقليدية للقدرة العقلية .
والتعلم اللفظي ، والاستدلال الإبداعي . قد تتوفر المقدرة لدى هؤلاء الأطفال من
أصحاب القلق المرتفع ، ولكن الخوف من الفشل يزداد عندهم حتى يمنعهم من
أن يؤديوا أداءاً حسناً .

مثل هذه النتائج جعلت الباحثين بول ت يونج Paul T. Young ، ودونالدهب
Donald O. Hebb وغيرهما يستخلصون أن الانفعالات تختلف تماماً عن الدوافع .
ولكن هل صحيح أن الدوافع لا يمكن أبداً أن تؤدي إلى الاضطراب ؟ إن الحالات
الدافعة القوية قد تحدث الاضطراب في السلوك كذلك وتعرقل التكيف الحسن .
ولقد قامت البيئة التجريبية على ما للدافعية القوية من تأثير في إفساد التنظيم .
فقد تم تدريب الكلاب الجائعة على أن تمضي إلى مكان محدد لتحصل على
الطعام . وبعد ذلك منعت من الحصول على الطعام بأن أقيم في وجوها حاجز من
شبك السلك المعدني . فأما الكلاب الجائعة بدرجة طفيفة فتعلمت أن تدور من
حول الحاجز لتحصل على الطعام . ولكن الكلاب التي كانت شديدة الجوع
جعلت تضغط نفسها على الحاجز ، وتحاول أن تخترقه ، وهي تصدر أصوات
الضيق والاستجداء . أي أنها عجزت عن التراجع والبحث عن طريق آخر يوصل
إلى الطعام ، وأن سلوكها كان منمطاً ، ومضطرباً ، وغير توافقي . صحيح أننا
نستطيع أن نقول إن الدوافع القوية تولد حالة انفعالية ، ولكننا سنقول عندئذ
كذلك إن الانفعالات الطفيفة تولد حالة دافعية . فالأمر المهم هو أن التغيرات من

قبيل كل من الجوع والخوف يمكن أن يؤدي إلى الاضطراب في المستويات المرتفعة الشديدة .

لكن روبرت ليبر Robert Leeper كان ممن عارضوا بشدة الفكرة القائلة بأن الانفعالات تؤدي بالضرورة إلى الاضطراب . وهو يرى أن الانفعالات إنما تنظم السلوك وتوجهه كما تفعل الدوافع تماماً . وهو يضرب على ذلك الأمثال بأسرة عادت من رحلة ، فعلمت أن بالمدينة مجرماً مولعاً بإشعال الحرائق تمكن من تدمير عدة منازل في المنطقة . وأدى سماع هذا الخبر إلى ارتفاع مستوى القلق عندهم طبعاً . ولكن ماذا يكون له من أثر على السلوك ؟ أول شيء أنه يسهل عملية الإدراك الحسي - فقد رأوا أن غرفة أطفالهم بمثابة مصيدة للحريق . ثم نجد القلق يؤثر في السلوك اللفظي وفي العمليات الرمزية - وإذا بهم لا يكادون يتحدثون عن شيء آخر أو يفكرون فيه . ثم إن القلق يزيد كذلك من التعلم - فتراهم يطالعون الكتالوجات ويتعرفون على أنظمة استشعار الحرائق . ثم نجد أن بعض العادات الجديدة ، مثل شراء صفارات الإنذار ، وبعض العادات القديمة ، مثل إحكام غلق الأبواب ، يتم أداؤها . وأخيراً ، نجد القلق يعمل على تحديد أهداف الأفراد تحديداً قوياً - فهم لا يتحدثون عن الأشياء السارة وإنما عن الجرم المولع بإشعال الحرائق ، وينفقون أموالهم على صفارات الإنذار لا على أشياء أخرى . وهكذا نجد الدلائل تشير إلى أن كلاً من الانفعال والدوافع يمكن أن تؤدي إلى تنظيم السلوك وتسهيله في بعض الأحيان ، وإلى اضطرابه وفساد تنظيمه في بعض الأحيان الأخرى . وهذه بالطبع أمور محيرة تتطلب الحل . فهل هناك مبادئ عامة يمكن أن نخرجنا من هذه الحيرة ؟

لعل كثيراً من التناقض يمكن تفسيره عن طريق قانون يركيس - دودسن الذي تحدثنا عنه ووصفناه في الفصل الثاني . وهنا نجد لدينا عاملين هامين : قوة الدافع وصعوبة العمل . ذلك أن الدافع يؤدي إلى تسهيل السلوك حتى تصل قوة الدافع إلى نقطة معينة فيتحول بعدها تأثيره إلى إحداث الاضطراب . على أن موضع النقطة التي يحدث عندها التغير بالضبط يتوقف على صعوبة العمل ، بحيث نجد

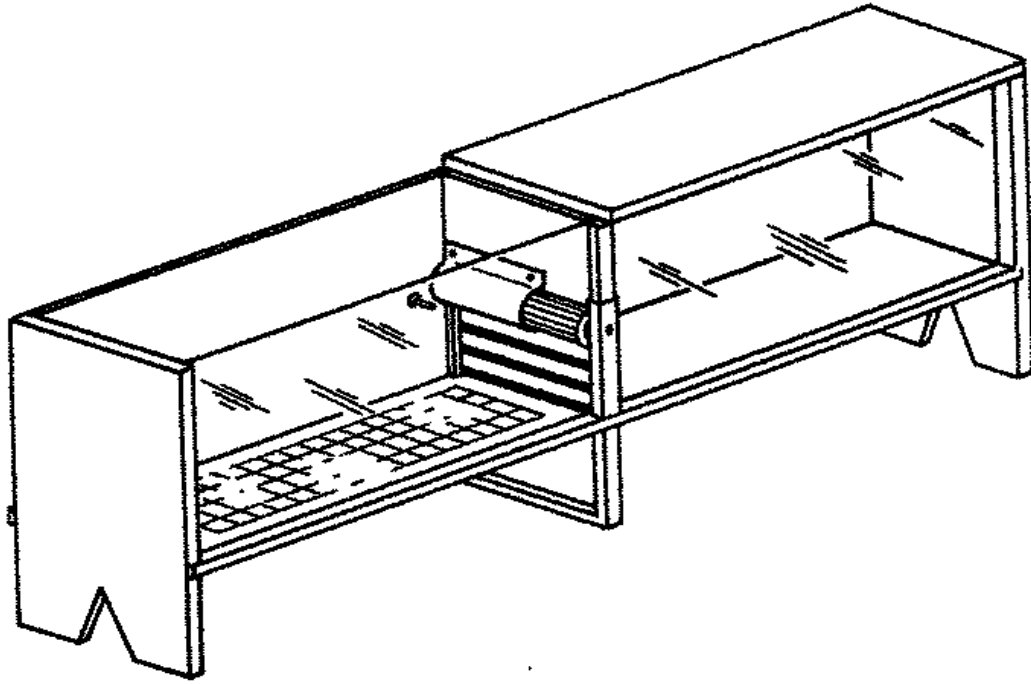
أن الأعمال الأكثر صعوبة يطرأ عليها الاضطراب عند المستويات الأدنى من الدافعية . والظاهر أن نفس المبدأ يفسر لنا كثيراً من آثار الانفعال على السلوك . وقد استعرض ريشارد س . لازاروس Richards S. Lazarus عدداً كبيراً من الدراسات المنصبة على آثار العناية الانفعالي على أداء الأعمال . وكان العناية الانفعالي يتم استحداثه عن طريق تنظيم مواقف الاختبار تنظيمياً يؤدي إلى فشل المفحوص ، أو عن طريق تعقيد العمل وزيادة صعوبته حتى يؤدي ذلك إلى تشتت انتباه المفحوص . وقد أوضحت الدراسات في جملتها أن العناية الانفعالي يؤدي ، إن كان بدرجة طفيفة ، إلى تسهيل الأداء ، وإن كان بدرجة عالية فيؤدي إلى اضطرابه .

وجملة القول أن الانفعال يؤدي إلى تنظيم السلوك أو إلى اضطرابه . وهو قد يؤدي إلى اضطراب السلوك الراهن ، ولكنه ، مع ذلك ، قد يؤدي إلى خلق صور جديدة من السلوك تكون موجهة نحو الأهداف . والمستويات الطفيفة من الانفعال تؤدي عادة إلى التسهيل ، بينما الانفعال العنيف يؤدي إلى الاضطراب . ثم إن بعض هذه الآثار يمكن أن يصفها قانون يركيس - دودسن . وفي كل هذه الآثار أو النتائج نجد أن الانفعال شديد الشبه جداً بالدوافع التي قد تؤدي هي أيضاً إما إلى تنظيم السلوك أو اضطرابه .

الخوف بوصفه دافعاً

في الإمكان تعليم الفرد أن يهرب من المثير المؤلم . من ذلك أن الطفل إن تألمت يده مرة بسبب الموقد الحار نجده بعد ذلك يسحب يده . وبفضل الإشراف أيضاً ، يمكن أن يتعلم الطفل أن يتجنب الموقد ، فينسحب راجعاً لمراى الموقد . وفي حالة التجنب ، لا يكون الدافع عبارة عن الألم ، وإنما يكون الدافع هو الخوف . فالخوف يستثيره منظر الموقد ، واستجابة التجنب تنقص الخوف . وقد تم إظهار هذا الأثر في عدد من الدراسات التجريبية ، وهذا يوحي بأن الخوف

يمكن أن يعمل بوصفه دافعاً إلى تعلم الاستجابات الجديدة . ولما كان الخوف هنا ليس استجابة غير متعلمة لمنظر الموقد ، قلنا في مثل هذا النوع من المواقف إنه بمثابة دافع مكتسب .



شكل ٧ - جهاز ميللر للدراسة الدافع المكتسب . وفيه يمكن توجيه الصدمة الكهربائية إلى الحيوان من خلال الأرضية الشبكية في القسم الأيسر الأبيض من الجهاز . والوصول إلى القسم الأسود الآمن إلى اليمين يتطلب إسقاط الحاجز الفاصل المغطى بشرائط بيضاء وسوداء أفقية . وهذا إنما يتحقق بأن يضغط المخرب على زرارة أو بأن يضغط الحيوان على الرافعة إلى الجانب الأيسر من القسم الأبيض أو بأن يدير الساقية أو العجلة التي تقع فوق الباب .

(نقلاً عن N.E. Miller. Studies of fear as an acquired drive: I. Fear as motivation and fear-reduction as reinforcement in the learning of new responses J. exp. Psychol. 1948, 38, 89-101).

وقد كان للعالم نيل ميللر فضل إجراء التجربة الأساسية التي توضح الدافع المكتسب . فقد درس ميللر اكتساب الخوف عند الفئران البيضاء في الجهاز الموضح بالشكل رقم (٧) . كانت الحيوانات قد وضعت أولاً في القسم الأبيض

الواقع على اليسار . ولم تظهر الفئران في أول الأمر شيئاً من الخوف من هذا القسم المحايد . ثم أعطيت الفئران صدمة طفيفة من خلال الأرضية الشبكية في القسم الأبيض . وكان ميللر يسمح للحيوانات بالهرب من الألم بعد أن يسقط الباب المتزلق الذى يفصل بين قسمى الجهاز ، وبذلك يسمح بالوصول إلى القسم الأسود الذى لم تكن فيه صدمة كهربية . وإلى هنا أظهرت التجربة ببساطة أن الفئران يمكن أن تتعلم الهرب من المثير المؤلم .

ثم مضى ميللر لبحث في الدافع المكتسب . فوضع كل فأر في هذا القسم الأبيض من غير أن توجه إليه فيه صدمة ، أى من غير أن يكون هناك الدافع الأولى للألم . ولنتذكر هنا أن الحيوانات لم تكن لديها استجابة حاضرة محددة لهذا القسم الأبيض في أول الأمر . لكنها الآن ، مع ذلك ، بدأت تظهر الخوف - فهي ترتعد ، وتجتث ، وتبرز - بمجرد أن توضع في القسم الأبيض . أى أن المثيرات في القسم الأبيض قد اكتسبت القدرة على استثارة الخوف بسبب الارتباط مع الصدمة . أى أنه تم تعلم الخوف من القسم الأبيض .

فهل تتوفر في هذا الخوف المتعلم تعريف الدافع من حيث أنه يدفع إلى تعلم جديد ؟ تحقق ميللر من صحة هذا بأن أبقي الباب المتزلق بين القسمين مغلقاً ، وبأن نظمه كهربياً بحيث يسقط ويفتح عندما يدير الفأر عجلة صغيرة فوقه . وكانت الفئران الخائفة تقوم باستجابات كثيرة ، ثم تصل آخر الأمر إلى أن تلمس العجلة الصغيرة وتحركها . فإذا سقط الباب هرعت الفئران إلى القسم الأسود . وفي المحاولات التالية ظلت الفئران تقوم باستجابة تدوير العجلة . أى أن الخوف دفع إلى تعلم استجابة جديدة ، وأن خفض الخوف الذى كان ظاهراً عند وصول الفأر إلى القسم الأسود ، كان له أثر الإثابة .

ثم درس ميللر ، بالإضافة إلى ذلك ، الخوف بوصفه دافعاً عن طريق فصل الارتباط بين العجلة والباب بحيث لا يعود تدوير العجلة يؤدي إلى سقوط الباب . وبدلاً من ذلك تم تركيب قضيب معين يؤدي الضغط عليه إلى انفتاح الباب .

وفي ظل هذه الظروف توصلت الحيوانات في آخر الأمر إلى أن تتوقف عن تدوير العجلة وتعلمت الضغط على القضيب . ومن أجل ذلك نجد أن الاستجابة المحددة ليست هي بذات الأهمية - وإنما العبرة بأن توصل الاستجابة إلى خفض الخوف .

كذلك قد يعمل القلق الذي يستثيره التهديد الشخصي بوصفه دافعاً . والناس تتعلم استجابات متعددة لتجنب بها القلق ، ولكننا نسمى هذه على المستوى الإنساني بميكانيزمات الدفاع . والكبت واحد من هذه الميكانيزمات . ذلك أن الشخص قد يعجز ، كما رأينا في الفصل الثاني ، عن تذكر مادة ارتبطت بخبرة مثيرة للقلق . ووظيفة الكبت يمكن أن نشهدها في الحالة المشهورة المسماة حالة آنا . التي عالجها برويسر Breuer أحد زملاء فرويد الأولين . كان على هذه المرأة الشابة أن ترعى والدها بالليل وبالنهار خلال مرضه الأخير الطويل . وذات مساء ، وهي تسمع صوت الموسيقى الصادر عن حفلة للجيران ، خامرتها ، للحظة ، الرغبة في أن يموت أبوها سريعاً . وارتفعت آنا كل الارتياح من هذا الحاضر العابر حتى إنها كبته في الحال . ومكثها الكبت من أن تحتفظ باعتقادها بأنها لا تحمل غير الحب لأبيها ، ومن أن تتجنب القلق المرتبط بتمنى الموت .

على أن القلق ، إذا لم يكن بالغ الشدة ، يمكنه أن يدفع إلى استجابات ناضجة توافقية . فالطالب قد يستجيب للدرجة المنخفضة في اختبار منتصف الفترة بأن يزيد من استذكاره وجدده واجتهاده . والرجل الذي ينفر منه بالفعل كل زملائه قد يتفحص سلوكه لينظر فيما يصدر عنه من أفعال تثير البغضاء والعداء . ومن الطبيعي أن هذا النوع من تفحص الذات ليس أمراً هيناً ، وأنه قد يتطلب العلاج النفسي . لكن هناك ، مع ذلك ، بعض الناس الذين يرون أن القدر الطفيف من القلق يمكن أن يكون قوة إيجابية بالنسبة للشخص تدفعه إلى الاستجابات الإبداعية والنمو الشخصي .

الغضب بوصفه دافعاً

كان الفرض الأصلي القديم قد صيغ في عبارات بالغة القوة تربط بين الإحباط والعدوان - كل إحباط لابد أن يؤدي إلى ميل للعدوان . وكل عدوان يمكن أن نرده إلى إحباط سابق . ولكننا الآن عرفنا أنه قد تكون للإحباط استجابات أخرى غير العدوان - مثل النكوص إلى السلوك الطفلي ، ومثل الانسحاب في تبلد وغير مبالاة ، أو سلوك هادئ ناجح يؤدي إلى حل المشكلة . والظاهر أن الخلط هنا يقع فيما بين استثارة الانفعال ، واستجابة الانفعال ذاتها . والاستجابة التي يدفع إليها الانفعال . ولعله مما يزيد الأمور وضوحاً أن نقوم بتعريف الإحباط بوصفه الحالة التي تستثير المرء انفعالياً ، وتعريف الغضب بوصفه الحالة الانفعالية المتدخلة ، وتعريف العدوان بوصفه واحداً من الاستجابات المتعددة الممكنة للغضب .

وقد استعرض جلدسون براون Judson Brown عدداً من الدراسات التي تبين أن إدخال الإحباط في موقف التعلم يزيد من قوة الاستجابة ويسهل الأداء . ففي دراسة قام بها آمسل A. Amsel وروسيل J. Roussel تم تدريب الفئران على أن تمضي في ممر طويل . وكان عند منتصف الممر صندوق هدف يُقدم للفئران الجائعة منه قرص من الطعام . وبعد أن تتناول الحيوانات هذا القرص كان يسمح لها بالاستمرار قديماً في النصف الثاني من الممر إلى صندوق هدف ثان يقدم لها منه قرص ثان من الطعام . وبعد أن تعلمت الحيوانات هذا التسلسل ، أدخل المجرى محاولات الإحباط التي تتألف من حذف أو استبعاد قرص الطعام من الصندوق الأول . وأظهرت النتائج أن الفئران ، عند استبعاد القرص من الصندوق الأول ، كانت تجرى أو تتقدم خلال النصف الثاني من الممر بسرعة أكبر مما كانت تفعل عادة . بعبارة أخرى ، يمكن القول إن الإحباط كان يزيد من الدافع لديها للوصول إلى صندوق الهدف الثاني .

لكنه من الصحيح أن الاستجابة العدوانية كثيراً ما يتعلمها المرء بوصفها

الاستجابة الملائمة لخفض الغضب أو لخفض حدة الدافع الذى أدى إليه الإحباط .

لقد بينت فلورنس جودإنف Florence Goodenough ، منذ عدة سنوات ، أن عدد مرات نوبات الغضب أو الانفجارات العدوانية عند الطفل يتناسب تناسباً طردياً مع عدد المرات التى يستسلم فيها الكبار له . بعبارة أخرى نقول : إن الطفل يثاب على هذا السلوك . والفئران يمكن تدريبها لتكون مقاتلة شرسة تهاجم غيرها من الفئران بدون استثارة ، إذا نحن عرضناها لسلسلة من النجاح السهل فى فترة مبكرة من الحياة - بنفس الصورة التى يدرب بها مدير مباريات الملاكمة ملاكماً محترفاً بأن يدبر له عدداً من المباريات السهلة . كذلك يمكن تدريب الفئران على أن تشب محبة للمسألة بأن نمسك بها لنلطفها ونربت عليها كلما أظهرت شيئاً من العدوان . وهكذا نجد أن العدوان يمكن أن يتم تعلمه بوصفه استجابة من الاستجابات .

والواقع أن العدوان ليس وسيلة فعالة كثيراً للحصول على الأهداف فى الحياة الاجتماعية . وهو إن أفاد بالنسبة للطفل مع والديه إن كانا مفرطين فى التسامح ، إلا أنه فى أغلب المواقف الاجتماعية يؤدي فى آخر الأمر إلى الانتقام . وقد وصف جون دولارد التأثير المتصاعد للعدوان فى الجماعة عندما يبدأ أحد أفرادها ، فينتقم منه الآخر ، فيعود الأول ليرد عن نفسه ، وهكذا . وهناك ما يوازي هذا ويشبهه بوضوح فى المنظمات الكبيرة ، والعلاقات الدولية ، بل وفى الدوائر الأكاديمية . والواقع أن هناك أساليب أكثر فعالية يمكن أن يستجيب بها الأفراد عند تعرضهم للإحباط - وهذه هى حل المشكلات ، وازدياد التواصل ، وكذلك التعاون الاجتماعى .

على أن الفرد قد يتعرض للإحباط ، ويشعر بالغضب ، ويتكون لديه الميل إلى العدوان ، ومع ذلك لا يظهر العدوان بسبب الكف . والكف قد يكون راجعاً إلى الخوف من العقاب أو الاستهجان الاجتماعى . وإن كثيراً من أطفال الطبقة

الوسطى في المجتمع الأمريكي ليتعرضون للكف الشديد الذي يمنعه من العدوان . كذلك قد لا يفيد الكف أحياناً إلا في زيادة الإحباط بحيث يصبح من المحتمل أن تظهر بعد ذلك انفجارات مفاجئة . ومثال ذلك أن حكومة جنوب أفريقيا استجابت للتمرد على التمييز العنصرى بقيود أشد صرامة حتى أصبح الموقف شديد القابلية للانفجار .

والعدوان حين يتعرض للكف لا يخفى ، وإنما يظل يبحث لنفسه عن مخرج . فقد يتم التعبير عنه بصورة غير مباشرة عن طريق الإيذاء المستتر أو عن طريق العناد . كذلك قد يتعرض العدوان لميكانيزم النقل ، فيعبر عنه تجاه فرد من الناس غير الشخص الذى كان سبباً في الإحباط . وهكذا قد ينحو الموظف الم غضب باللائمة على زوجته ، وقد يلوم العامل الأمريكى المحبط اقتصادياً غيره من مواطنيه اليهود أو الزنوج أو الأجانب على ما أصابه من شقاء .

كذلك ذهب أصحاب نظرية الإحباط والعدوان من أساتذة جامعة ييل إلى أن الفرد عندما يتم تعرضه للإحباط ، وتكون كل المخرج الممكنة للعدوان مسدودة سداً منيعاً تاماً ، فإن العدوان قد يستدير ليتجه نحو الذات في صورة كراهية للذات ، أو نقد للذات ، أو انتحار . ولنتذكر أن بعض الطلاب عندما تعرضوا للإحباط في تجربة فونكشتاين حولوا الغضب إلى الداخل وأصابهم الاكتئاب . لكننا مع ذلك لا نجد الناس جميعاً على هذه الشاكلة . والظاهر أن المسألة تتوقف على درجة لوم الشخص لذاته باعتباره سبباً في الإحباط . كما يبدو أنها تعتمد أيضاً على درجة إيمان الشخص المكتئب بأن سلوكه المكتئب سوف يحقق أهدافه فيما يتصل بغيره من الناس . على أن الشخص المكتئب قد يشعر ، من الناحية الإكلينيكية على الأقل ، أنه بذلك يعاقب الآخرين ، كما أن المتحر كثيراً ما يظن أن فعلته هذه ستقنع الآخرين بمدى شقائه . وهكذا ، نجد أنه حتى سلوك الاكتئاب والانتحار يمكن أن يعد بمثابة استجابات موجهة نحو هدف .

والخلاصة أن الإحباط يؤدي إلى دافع انفعالى نسميه بالغضب . وهذا الدافع

يكون موجهاً نحو التغلب على العقبات التي تعترض طريق الوصول إلى الأهداف ،
بدلاً من أن يكون موجهاً نحو التدمير لذات التدمير. كما أنه يمكن للفرد تعلم
الاستجابات التي تؤدي إلى الهدف الأصلي وتتقصر من كل من الدافع الأصلي
والدافع الناشئ عن الإحباط. وهذه الاستجابات تتضمن العدوان ،
والنكوص ، والاكتئاب ، وحل المشكلات .

السلوك المدفوع ذاتيًا

منذ أيام جعلت أشهد ابنتي البالغة من العمر سنة ونصف ، وهي تلعب في حديقة الدار . كانت منشغلة إلى حد لا يكاد يصدق ، جادة أشد الجدة ، تتجول يمينًا ويسارًا ، فتلتقط طائفة متنوعة من الأشياء - بعض الأغصان ، عدة أحجار ، بعض اللعب ، حذاء قديمًا كان ملقًا أمامها ، أداة من أدوات الفلاحة في الحديقة ، قطعة من الخيش ، بحلة قديمة ، والقطعة حين كانت تعبر أمامها . كانت ابنتي تتناول كل واحد من هذه الأشياء فتفحصه ، وتجربه ، وتبين مدى صلاحيته لأغراض متعددة ، ثم سمعت صوت ضحك صادر من عند الجيران فالتجھت نحو السياج الذى يفصل بيننا وبينهم لتتطلع إلى الأطفال الأكبر سنًا . ورأت أن تجرب لوح الترحلق ، ولما صعب عليها أن تصعد إلى اللوح ، تقدمت أنا نحوها لأساعدنها ، ولكنها ، فى نزعة استقلالها ، دفعت يدي فأبعدتني عنها . وأخيرًا نجحت وترحقلت والرضا والانتصار يبدوان فى نظرتها . مثل هذا السلوك وراءه دافع قوى بلاشك .

فما هى طبيعة الدافعية من وراء كل هذه الأنواع من الأنشطة ؟ ليس هناك من خلل هوميوستازى معروف ، وليس هناك من مشير يرفع من التوتر بالمعنى المألوف ، وليست هناك حالة هورمونية بسيطة . أى أن السلوك لا يبدو أنه يعتمد مباشرة على شىء من الدوافع الهوميوستازية أو الجنسية أو الانفعالية التى سبق لنا أن ناقشناها فيما سلف .

قد افترض أصحاب نظرية الغرائز التقليدية أن هناك أنواعًا معينة من الخبرات

الحسية والمناشط السلوكية تكون مبنية على أساس فطري ، وأن نشاط الاستكشاف واللعب وأنشطة أخرى غيرهما ينغمس فيها الكائن الحي لذات النشاط أو لأن هذه الأنشطة تنطوي على المتعة أو الإشباع . وقد تحدث كل من تشارلز داروين ، ووليام جيمس ، ووليام ماكدوجال عن الفضول وحب الاستطلاع بوصفه غريزة أساسية . ثم أضاف جيمس إلى ذلك اللعب .

وفي العشرينيات عندما قامت المعارضة ضد أصحاب نظرية الغرائز ، أخذ كثير من أصحاب علم النفس يشككون في الأساس الفطري لدوافع الفضول واللعب ونحوها . من ذلك ، مثلاً ، أن كمف E.J. Kempf ذهب إلى أن هناك ثلاثة افتقارات عضوية أساسية فقط - تلك المتصلة بالتغذية وبالجنس وبالحوف . وفي رأيه أن هذه هي الدوافع الأولية ، وأن كل الدوافع الأخرى تشتق منها . فالحيوان الجائع قد يتعلم البحث عن الطعام في كل الثنايا والحنايا . وبعد فترة يبدو هذا النشاط وكأنه دافع مستقل للاستطلاع ، ولكنه يكون من الممكن دائماً رده إلى الجوع ، كما يكون اعتماده عليه في آخر الأمر . وكذلك نجد أن الرغبة في اللعب والإبداع والنشاط يقال عنها إنها تشتق من دوافع أساسية أخرى .

ومع ذلك ، فقد حدث في السنوات الأخيرة تحول عن تفسير حب الاستطلاع وما يتصل به من سلوك بأنها دوافع مشتقة . فقد تبين أن نظريات الدوافع المشتقة ثبت عجزها وفسادها شيئاً فشيئاً . وأصبحت هناك أدلة تشير إلى أن بعض هذه الدوافع من النوع الفطري حقاً . وسوف نقوم في هذا الفصل بوصف نظريات الدوافع المشتقة أولاً ، ثم نقدم الأدلة الجديدة الدالة على وجود أنواع مختلفة من الدوافع المستقلة ، وأخيراً نناقش بعض المضامين النظرية لهذه النتائج .

مفاهيم الدوافع المشتقة

نحن إذا قلنا إن دافعا معيناً « مشتق » من دافع آخر فسيولوجي أساسي بدرجة أكبر ، لا نضيف شيئاً ذا بال . ولذلك ، فإن ما نحن بحاجة إليه هو تفسير

للعملية ... أعنى أن نصف طريقة الاشتقاق . وفيما يلي ندرس النظريات الثلاث الهامة التي تشرح لنا طريقة الاشتقاق . أما الأولى فهي فكرة سيجموند فرويد عن أن الدوافع الجنسية والعدوانية تتحول إلى دوافع حضارية عن طريق ميكانيزم الإعلاء. وأما الثانية، فهي فكرة جوردون ألبورت Gordon Allport عن الاستقلال الوظيفي والتي تصبح بمقتضاها بعض الدوافع منفصلة عن أصولها الفسيولوجية . وأخيراً ، نتعرض لنظرية نيل ميللر عن الدوافع المكتسبة والإثابات المكتسبة وكيف أنها تحاول تفسير كيف أن الدوافع الجديدة قد يتم تعلمها عن طريق ارتباطها بالدوافع الفسيولوجية والإثابات . وسوف نبين كذلك بعض أوجه الضعف في هذه النظريات .

الإعلاء

كان سيجموند فرويد أول أصحاب النظريات الهامة الذين ذهبوا إلى أن بعض الدوافع مشتقة من دوافع أخرى بيولوجية أساسية . على أن منجزات الإنسان الحضارية الراقية من علوم وفنون وأخلاق وأديان لم ينهر لها فرويد كثيراً . فقد رأى أن الإنسان بمثابة كائن بيولوجي تستعرب داخله قوى غريزية بدائية لا يعتقلها إلا غشاء رقيق من المدنية . وقد كانت المنجزات الحضارية ، بالنسبة له ، مجرد توفيقات أو صهامات أمان في ذلك الصراع المحتوم الذي لا يمكن تجنبه فما بين الدوافع الأساسية من جنس وعدوان من ناحية ، وقيود المجتمع ونواهي من ناحية أخرى .

والإعلاء هو تحويل النزعة بعيداً عن غرضها الأصلي إلى نشاط يكون مقبولاً إلى درجة أكبر من الناحية الاجتماعية . وهو يبدأ أولاً بوصفه دفاعاً ضد نزعة يحرمها المجتمع بأسره ، أو يحرمها الوالدان بصفة خاصة . ومثال ذلك أن كثيراً من الأطفال تكون لديهم الرغبة في أن يلعبوا ويلطخوا بغائطهم . والآباء ، بصفة عامة ، يستجيبون استجابة سلبية لمثل هذا النشاط . ومن وسائل حل هذا الصراع هو أن نحول النزعة إلى التلطيح والرغبة فيه إلى نشاط آخر من قبيل الطلاء بالألوان . ولذلك ، تجد الطلاء بالألوان أمراً محبوباً في مدارس الحضانة ، كما نجد

أن صغار الأطفال يستخدمون الطلاء بطريقة أقرب إلى التلطيخ . ولكن هذا لا يصبح حتى الآن بمثابة الإعلاء الحق الصحيح ، وإنما يكون أقرب إلى الإبدال البسيط . أما إذا استمر الطفل يبدى الميل إلى الطلاء الإبداعي بالألوان ، قلنا إن الطلاء أصبح يفيد بوصفه مخرجاً لتزعات الطفل ، ووجدناه ينسلخ في آخر الأمر من الميل الأصلي إلى التلطيخ والتلوين . ويقال عندئذ إن الميل إلى التلطيخ والتلوين قد تعرض للإعلاء ، فتحول إلى نشاط اجتماعي أرقى هو الطلاء بالألوان .

ومن الممكن إعلاء كل أنواع التزعات البدائية الجنسية والعدوانية . فالرغبة الطفلية في أن يعرض المرء على الناس جسمه يمكن إعلاؤها إلى التمثيل المحترف . والفضول الجنسي يمكن أن يتحول إلى البحث العلمي . والميل السادى قد يجد له في الجراحة مخرجاً نافعاً من الناحية الاجتماعية . وقد ذكر بريل A.A. Brill حالة مريض كان قبل العلاج يتعرض للمشاكل مع القوانين والشرطة بسبب ميله إلى استراق النظر أو التطلع إلى عورات الآخرين ، ثم تمكن بعد ذلك من أن يعلى نوازعه إلى وظيفة جديدة يبيع فيها الأدوات البصرية .

ولعل أقوى الانتقادات التى تعرضت لها فكرة الإعلاء هى تلك التى صدرت من داخل معسكر التحليل النفسى . فقد أنشأ هاينز هارتمان Heinz Hartman وأعوانه نوعاً جديداً من سيكولوجية الأنا ليستغنوا به عن تفسيرات فرويد لنشأة الميول ، والهوايات ، والعمل الإبداعي . ذلك أن ملاحظات الأطفال توحى بأن عددًا محدودًا من وظائف الأنا - من قبيل إمساك الأشياء باليد ، والمشي ، والإدراك الحسى ، والتفكير - تنشأ بطريقة مستقلة عند الطفل ، أعنى أنها لا تتوقف على الدوافع الجنسية والعدوانية . ولكنها قد تصبح ، فيما بعد ، مرتبطة بهذه الدوافع ، وذلك كما يصبح للأداء الرياضى للابن أهمية كبيرة عند الأب . وحتى عندئذ قد تتحول وظائف الأنا فيما بعد إلى وظائف مستقلة بصفة ثانوية ، وذلك كما ينمو الابن فلا يعود يعتمد على موافقة والده . وهكذا نجد أن من المحتمل إلى حد كبير أن يكون العالم ، والفنان ، وصاحب المهنة الراقية إنما يمارسون أنشطة إما أنها كانت دائماً خالية من

التزعات الجنسية أو العدوانية ، أو أنها أصبحت خالية من هذه التزعات .

الاستقلال الوظيفي

النظرية الهامة الثانية في اشتقاق الدوافع هي فكرة جوردون ألبورت عن الاستقلال الوظيفي . كان ألبورت تحت تأثير رد الفعل لنظريات كل من ماكندوجال وفرويد . فلم يؤمن بأن سلوك الإنسان الراشد إنما تدفعه بصفة تامة تلك الغرائز التي تكون ثابتة منذ الولادة كما يذهب إلى ذلك ماكندوجال ، ولم يسلم بفكرة فرويد عن أن ميول الكبار إنما تنشأ عن إعلاء للتزعات الطفلية الجنسية والعدوانية . ولكنه سلم بالفكرة القائلة بأن الرضيع إنما يدفعه عدد قليل من الدوافع الفسيولوجية البدائية ، ولكن دوافع الراشدين تصبح بوسيلة ما منسلخة عن هذه الأصول الأولى وتعمل مستقلة في السعى نحو تحقيق الأهداف المعاصرة - أى أنها تصبح مستقلة وظيفياً .

ولعل أشهر أمثلة ألبورت في هذا الصدد هو مثال البحار السابق الذى يحن إلى البحر . فقد يكون هذا الرجل قد عمل بحاراً في أول الأمر بسبب الحاجة إلى المال والرغبة في تحصيل الرزق . ومن هنا نقول إن سلوك الإبحار عنده كان يدفع إليه شيء بسيط هو الجوع . أما الآن ، فقد تجده من أصحاب المصارف الأثرياء ممن يستطيعون سد حاجتهم إلى الطعام أضعافاً مضاعفة . ولكنه ، مع ذلك ، يحتفظ بشوقه وحنينه إلى البحر ، بل وقد يعلق صور البحر في مكتبه ، أو قد يصل حبه للبحر إلى درجة أشد من أى وقت مضى عندما كان يزاول العمل بحاراً . وهكذا نجد أن حب البحر يصبح منسلخاً تماماً عن دافع الجوع الأول ، وأنه يظل قائماً بوصفه قوة في شخصية الرجل قد تكون أكثر شدة .

ولكننا نأتى هنا مرة ثانية إلى السؤال الجوهرى عن تلك العملية التي يتحول بمقتضاها الدافع الفسيولوجى الأساسى إلى عادات تصبح بمثابة دوافع ذات استقلال وظيفي . إن من الواضح الجلى أن الدوافع الفسيولوجية في الطفولة تؤدي إلى طائفة متنوعة من الاستجابات ، وأن عددًا قليلاً منها فقط هو الذى يصبح ذا

استقلال وظيفي . هنا نجد تفسيراً لألبورت يقول فيه إن العادات التي تكون في دور التكوين هي فقط التي تكون لها خصائص الدافعية . وعنده « أن الدوافع هي على الدوام نوع من السعى نحو نوع أو آخر من الاكتمال » . ولذلك ، فإن الطفل الذي يكون بصدد تعلم الكلام أو المشي أو ارتداء ملابسه يكون عنده ما يدفعه لهذا . شأنه في ذلك شأن الراشد الذي يسعى لاكتمال عمل ناقص لديه . ومع ذلك ، فإن هذا الميكانيزم لا يفسر لنا فيما يبدو تلك الدوافع المستقلة التي تستمر طوال الحياة والتي نحن بصدددها الآن . فإن الطفل لا يلبث في آخر الأمر حتى ينتهي من تعلم الكلام ، وما تلبث الأعمال أن تكتمل عادة . هنا يجب ألبورت بأنه على الرغم من أن المهارات العضلية يتم التمكن منها عادة ، إلا أن المهام الكبرى في الحياة - وهي الفن والعلم والدين - لا يمكن بحكم طبيعتها أن تصل يوماً إلى حالة الاكتمال أبداً . ولذلك ، وجدنا دائماً أن هناك دوافع في هذه المجالات باستمرار .

وقد تعرضت نظرية الاستقلال الوظيفي للنقد من كثيرين لعل أقدرهم وأقسامهم هو بيتر بروتشي Peter Berozzi . ويقول بروتشي : إن العملية التي يصفها ألبورت من أنها عادة تكتسب الاستقلال الوظيفي هي في حقيقة الأمر عادة تنتقل من دافع قديم إلى دافع جديد . فالعادة لا تتحرر تماماً من كل الدوافع ، وإنما تتحول إلى خدمة أسياد جدد . ويضرب لذلك المثل بالرجل الخيال الذي يتزل عن صهوة جواده ليمتطي جواداً آخر .

ويتفق بروتشي مع ألبورت على أن البحار السابق الذي يجب البحر لا يكون دافعه في ذلك شيئاً بسيطاً من نوع ما يتبقى من دافع الجوع . ولكنه يقول إن على المرء ألا يفترض أن عشق البحر قد أصبح منسلخاً عن كل الدوافع الأصلية إلا إذا كان قد افترض من قبل ذلك أنه لم يكن لديه من دافع إلا الجوع فقط في بداية الأمر . ويرى بروتشي أن البحار الشاب قد تكون دفعته دوافع أخرى أساسية مثل الدافع إلى الاجتماع بالآخرين ، والدافع إلى إثبات الذات ، والدافع إلى الاستطلاع . ثم نجده الآن ، بعد أن صار رجلاً بديناً في منتصف العمر يمتلك

مصرقاً ، ينظر إلى الصور البحرية من حوله . فتعود إليه الذكريات عن مزاحه الحشن السابق مع زملائه في السفينة ، والاستشارة التي كانت تنطوى عليها الأعاصير الشديدة وروائح الموانئ الشرقية وعطورها . وقد تظل لديه نفس الدوافع القديمة ، ولكنها تكون غير مشبعة بعد أن أصبح يحيا حياة روتينية ، تفصله عن الناس طبقات من السكرتاريين والموظفين ، وتحيط به حوائط خشبية مزخرفة تفصله عن مغامرات الحياة . ولذلك ، فلا عجب أن نجده قد أصبح ينح إلى البحر !

الدوافع المكتسبة والإثابات المكتسبة

أكثر المحاولات لتفسير اشتقاق الدوافع الثانوية من الدوافع الفسيولوجية خطأ من المنهجية هي نظرية نيل ميلر عن الدوافع المكتسبة والإثابات المكتسبة . وهي نظرية تختلف عن النظرتين الأخريين في أنها تولي اهتماماً عظيماً لميكانيزم الاشتقاق ، وفي أنها تسعى إلى التحقق التجريبي . والفكرة الأساسية هنا هي أن المثير المحايد الذي يزواج بينه وبين بداية دافع أولى ينتهى به الأمر إلى إثارة دافع بمفرده . كما أن المثير المحايد المرتبط بإثابة أولية يكتسب بعض القيمة الإثابية الخاصة به في آخر الأمر .

ولعلنا نذكر أن تجربة ميللر الأساسية عن الخوف بوصفه دافعاً مكتسباً سبق أن عرضناها في الفصل الخاص بالدوافع الانفعالية . كان ميللر قد ربط القسم الأبيض من الجهاز الموضح في الشكل رقم (٧) بالصدمة الكهربائية ، والهروب إلى القسم الأسود بالخفض من الألم . وبعد ذلك ، عندما وضعت الحيوانات في القسم الأبيض بدون صدمات أظهرت خوفاً مكتسباً . وكانت قد تعلمت أن تستجيب استجابة توصلها إلى القسم الأسود حيث كانت تثاب بخفض الخوف . وهكذا أصبح القسم الأبيض مصدراً مكتسباً لدافع الخوف ، والقسم الأسود أصبح يعمل بوصفه نوعاً مكتسباً من الإثابة .

وقد تمكنت دراسات قام بها ولف Wolfe وكذلك كاويز Cowles من إثبات أن من الممكن اكتساب إثابة مكتسبة على أساس من دافع إيجابي مثل الجوع . ذلك أن فيشات البوكر لا تكاد تكون لها قيمة عند الشمباتزى . ولكننا إذا علمنا هذه الحيوانات أن تضعها فى ماكينات البيع لتحصل على العنب ، أصبحت هذه الفيشات أنواعاً من الإثابة المرتفعة الكبيرة . بل إن الشمباتزى تستطيع أن تتعلم أن تجذب ذراعاً وأن تتخير الصندوق الصحيح من أجل أن تحصل على الفيشة ، حتى وإن لم تكن تستطيع أن تستبدل بالفيشات الطعام إلا عند نهاية الفترة اليومية . على أنه ينبغي الالتفات ، مع ذلك ، إلى أن القيمة الإثابة لفيشات البوكر تتوقف على درجة الجوع عند الشمباتزى والحصول على العنب من ماكينات البيع . ومن هذه الناحية تصبح الفيشات أشبه بالنقود - ولذا ذكر أن النقود هى أيضاً تفقد قدرًا كبيراً من قيمة المبادلة فى حالات التضخم الاقتصادى .

ولم تسلم نظرية الدوافع المكتسبة من النقد . فقد ذهب جردسون براون Judson Brown إلى أن الخوف وحده هو الذى تتوافر فيه الشروط اللازمة للدافع المكتسب . ذلك أن دافع الخوف يستثير مثير ، كما أنه استجابة متعلمة لهذا المثير ، وهو يسهل الاستجابة ، كما أن خفضه يعمل بوصفه نوعاً من الإثابة . ولكن هذا التحليل نفسه لا يمكن أن يمتد لينطبق على شىء مثل الدافع المكتسب إلى النقود أو الفيشات . صحيح أن المال يؤدى بدون شك وظيفة الإثابة المكتسبة . ولكن ما هو الدافع المكتسب الذى تعمل الإثابة على خفضه ؟ أعنى أنك لا تجد هنا مثيراً ، يكون شبيهاً بمثير الخوف ، ويستثير الرغبة فى المال . كما أن حرمان الشخص من المال ، من قبل أن يكون قد تعلم قيمته لا يخلق لديه « الدافع إلى المال » . ولذلك ، يرى براون أن القيمة الإثابة المكتسبة للعملة أو الفيشة تتوقف على دوافع أخرى مثل الجوع أو القلق .

وقد أثار نيل ميلر نفس المشكلة ولكن فى سياق مختلف عن ذلك قليلاً . ذلك أنه يبين أن كل الدراسات التى أثبتت وجود الدافع المكتسب إنما تعتمد على

دوافع سلبية مثل الألم . وعلى الرغم من أن الإثباتات المكتسبة يمكن أن تعتمد على دوافع إيجابية مثل الجوع ، إلا أننا لا نجد دراسة واحدة تبين لنا بوضوح وجود الدافع المكتسب على أساس من الجوع . بل إن ميلار نفسه قد عجز عن ذلك على الرغم من كثرة محاولاته . ومن ذلك ، مثلاً ، أن آرلو مايرز Arlo Myers بالاشتراك مع ميلار حاول أن يبين وجود الدافع المكتسب المرتكز على أساس من الجوع في نفس الجهاز المستخدم لإثبات وجود الخوف المكتسب . فقد وضعت الفئران في القسم الأبيض عند ما كانت جائعة ، وكانت تستطيع أن تدخل القسم الأسود بمجرد أن تلمس الباب الذي كان ينحدر عنده إلى أسفل تلقائياً . وفي القسم الأسود كان يسمح لها بأن تأكل قرصاً من الطعام . وأعطيت المجموعات المختلفة من الفئران أعداداً متفاوتة من محاولات التدريب هذه . (٧٠ أو ٣٠ أو ١٠ أو صفر من المحاولات) بحيث أصبحت إشارات القسم الأبيض مرتبطة بحالة الجوع ، وإشارات القسم الأسود بخفض الجوع .

ثم أجرى اختبار للكشف عن وجود دافع متعلم مرتكز على الجوع . وكان الاختبار موازياً للدراسة السابقة التي بحثت في الخوف المكتسب . في أول الأمر كانت الحيوانات تطعم وتسقى حتى الشبع والارتواء لعدة أسابيع . ثم توضع عندئذ في القسم الأبيض .. وهذا يشبه وضع الفئران في الجهاز من غير صدمات كهربية . ولم يكن الباب الموصل إلى القسم الأسود يمكن فتحه بمجرد اللمس ، وإنما كان لابد لفتحه من استجابة جديدة - هي الضغط على قضيب . فلو أنه كان هناك دافع مكتسب مرتكز على الجوع ، لأصبح من المتوقع أن تكون المجموعات التي حصلت على أكبر عدد من محاولات التدريب أسرع في تعلم الضغط على القضيب . كما أن المجموعة التي لم تحصل على محاولات تدريب لا يتوقع لها أن تظهر شيئاً من التعلم ، فإنه لم تكن لديها فرصة على الإطلاق لاكتساب الدافع . ولكن النتائج ، مع ذلك ، لم تظهر وجود اختلافات أو فروق بين المجموعات في تعلم الضغط على القضيب . أي أن المجموعات كلها تساوت في القدرة على التعلم . أي أنه لم يتم اكتساب دافع إضافي على أساس من الجوع .

وهناك جانب آخر طريف في تجربة مايرز وميللر هذه . ذلك أن المجموعة الضابطة - وهي تلك المجموعة التي لم يسبق لها أن خبرت الحصول على الطعام في القسم الأسود - تعلمت أن تضغط على القضييب من أجل أن تدخل في القسم الأسود . ولنتذكر أن هذه الفئران كانت دائماً في حالة شبع وري بحيث أنه لم يكن لديها من دافع الجوع أو دافع العطش شيء . هنا يقول ما يزر وميللر إن هذه الحيوانات كان يدفعها الدافع إلى « الاستكشاف » .

الدليل على السلوك المدفوع ذاتياً

رأينا كيف أن النظريات المختلفة التي تحاول تفسير الدوافع المشتقة - من الإغلاء ، والاستقلال الوظيفي ، واكتساب الدوافع والإثابات - بها جوانب ضعف وقصور . وإنه لمن الصعب أن نفسر قدراً كبيراً من سلوك الإنسان بهذه النظريات . لكن هذا لا يعنى أن الفضول ، والاستكشاف ، وما شابه ذلك لا يمكن تفسيره على أساس من دوافع مثل الجوع ، والجنس ، واستحسان الوالدين . فإن الفأر يمكن تدريبه على كثرة الاستكشاف بأن نضع له طعامه دائماً في أماكن جديدة غير ظاهرة . كما أن حدة الفضول الجنسي عند الطفل يمكن أن تزيد من حدتها بأن نجعل الأمر محرماً . واهتمام الولد بالرياضة يمكن تقويته باستحسان الوالدين له .

هنا ينبغي لنا أن نميز بين الدافع الخارجى والدافع الداخلى . فإنه ما من استجابة تقريباً إلا ويمكن أن يتم تعلمها وأداؤها على أساس من إثابة من قبيل الطعام أو الاستحسان ، بما في ذلك الاستكشاف واللعب . وفي أمثال هذه المواقف تكون الإثابة أمراً خارجياً بالنسبة للنشاط - أعنى أنه لا تكون هناك رابطة ملازمة فيما بين النشاط والإثابة . فالنشاط يتم أداؤه أو القيام به من أجل الحصول على الإثابة . ولكن الاستكشاف ، واللعب ، وأوجه النشاط الأخرى قد تكون أيضاً مثبية إثابة ذاتية - أعنى أن الفرد قد يزاوّل هذه الأنشطة لذاتها ، أو لما تتضمنه من لذة أو إشباع . فالإثابات الخارجية لا يمكنها أن تفسر لنا ذلك النوع من سلوك اللهو

الذى أظهرته ابنتي في حديقة الدار . وإنما كان أكثر هذا النشاط فيما يبدو من النوع المدفوع ذاتياً .

وفما يلى سوف نقدم الدليل على عدة أنواع جديدة من الدوافع - الحسية . والفضولية ، والنشاطية ، والتناولية ، والمعرفية . وهذه يبدو أنها مستقلة عن الدوافع الأخرى ، وهى لا يتم تعلمها على أساس من دوافع أكثر بساطة . كما أنها تنطوى على سلوك يتضمن دافعية ذاتية ، وسوف نسميها دوافع ذاتية .

الدوافع الحسية

النظريات الكلاسيكية فى الدوافع افترضت أن الكائن العضوى يسعى فى أساسه إلى التخفف من الاستثارة أو خفضها . نشهد هذا الرأى فى النظرية السلوكية عند كلارك هل ، وفيها نجد المثيرات الدافعة من داخل الكائن العضوى أو من خارجه توجه الكائن نحو النشاط إلى أن يتم العثور على وسيلة يستبعد بها الدافع . ومن هنا كانت الإثابة عبارة عن خفض الدافع وما يصحبه من مثيرات . كذلك نجد الفكرة ذاتها فى نظرية التحليل النفسى عند فرويد ، وفيها نجد وظيفة الدماغ عبارة عن خفض كل أنواع الاستثارة أو القضاء عليها . فالهدف النهائى هنا هو حالة من الرفانا - حالة ليس فيها من الاستثارة شىء .

لاشك ، طبعاً ، أن الناس تسعى إلى تجنب الاستثارة البيئية المفرطة والتوتر الداخلى . وما أن يقبل الصيف حتى نجد معظم سكان المدينة على استعداد لمغادرة ضجيج المرور ، وضغوط الأعمال ، ولغظ الحديث الذى يدور فى الحفلات من أجل الهدوء والسكينة فى الريف . ولكننا نجد أن الشخص الذى خرج فى إجازة لا يلبث - إن عاجلاً أو آجلاً - أن يسأم ويبدأ التفكير فى الاستثارة مرة ثانية - مشاريع جديدة ، أفكار جديدة ، أمور جديدة يتحدث عنها المرء . فالظاهر أن الناس لا تسعى إلى انعدام الاستثارة ولا إلى الاستثارة المفرطة ، وإنما تسعى إلى مستوى أمثل من الاستثارة على أن يتضمن شيئاً من التغيير .



شكل ٨ - واحد من المفحوصين في تجربة الحرمان الحسى . أما الأغلفة فوق اليدين فتمنع اللمس . وأما النظارات البلاستيكية فتسمح بالضوء المنتشر المبعثر ولكنها لا تمكن من إدراك الأشكال . وفي العادة تغطي الأذنان بواسطة مخدة من الأسفنج الرغوى ولكنها في هذا الشكل قد حل محلها جهاز التسجيل الكهربى لنشاط المخ . وعلى السقف جهاز لتكييف الهواء يمد الأصوات ويخفض من الإحساس بالحرارة . ويقوم المفحوص بتقرير مشاعره وتجاربه عن طريق الميكروفون .

(صورة مأخوذة عن Gateways to the Mind, Bell system science series film).

أما الرغبة الشديدة عند الناس في الاستشارة البيئية فتتضح بشكل صارخ في الدراسات التي أجريت على الحرمان الحسى في جامعة ماكجيل . فقد أتاحت لطلاب الكليات ما يبدو في ظاهر الأمر بمثابة الوظيفة المثالية . كانوا يُنقدون عشرين دولاراً في اليوم مقابل ألا يعملوا شيئاً - على الإطلاق ! كانوا يرقدون على سرير مريح في غرفة صغيرة كما يبدو في الشكل رقم (٨) . وكانت النظارات التي يضعونها على أعينهم لا تسمح بأن تدخل إليهم إلا ضوءاً منتشرًا مبعثراً . وكانت لفافات من الكرتون تغطي أيديهم لتمنعهم من اللمس . كما كانت

الأصوات تموه عليهم أو تغطي بواسطة طنين صادر من جهاز تكييف وغطاء للرأس من المطاط الإسفنجي . ولم يكن الطلاب يعملون شيئاً فيما عدا أنه كانت تقدم لهم فترات زمنية قصيرة للأكل ، وقضاء الحاجة ، والتعرض للاختبارات . ومع ذلك ، وعلى الرغم من كل النظريات ، وجد الطلاب أن حالة الزفانا هذه لا يمكن لهم أن يطبقوها أو يتحملوها . وأحسوا بالحاجة الشديدة إلى الاستشارة حتى أنهم كانوا يطلبون الاستماع إلى نشرة قديمة عن الأوراق المالية مرات ومرات . وعلى الرغم من أنه طلب إليهم أن يظلوا أطول فترة ممكنة بالنسبة لهم . إلا أن معظمهم لم يتمكنوا من تحمل الأمر لأكثر من يومين أو ثلاثة . وقد فضلوا أن يمارسوا أعمالاً أكثر مشقة ، وبأجور أقل ، ولكن في بيئة مثيرة .

وقد تعرض كثير من الأشخاص لخبرات غريبة خلال فترة الحرمان الحسي . في أول الأمر كانوا يحاولون التفكير في مشكلات شخصية وعقلية . ولكنهم بعد فترة عجزوا عن التركيز أو مواصلة تيار التفكير . ومرت بهم فترات من الخلط . والقابلية للتهيج . والعناء . وأخيراً بدأوا يخبرون الملاوس البصرية - كانت تظهر لهم نقط من الضوء . ثم أشكال هندسية ، وأخيراً مشاهد حية واضحة . وقد اختفت هذه التأثيرات بعد انقضاء التجربة .

دوافع الفضول

البحث عن المثيرات ليس أمراً عشوائياً . وإنما من الجوانب الهامة في الاستشارة التي تشد اهتمام الناس جانب المجددة أو الطرافة . والمجددة يمكن تعريفها وتحديدتها على أساس مقدار ما لدى الفرد من خبرة سابقة بالمثير . وفي بعض الأحيان يصعب علينا أن نحدد مدى جدة المثير لأننا لا نكون على علم بالخلفية الكاملة عن هذا الشخص . ومع ذلك . نستطيع أن نقول إن المثير يستثير الفضول في الحيوان أو الطفل أو الراشد بحسب جدته وطرافته . ولو أن المثير كان مفرطاً في الجدة ، أو لو أنه قدم إلى الكائن بدرجة مفرطة من الفجاءة لترتب على هذا أن يؤدي المثير إلى الخوف والتجنب بدلاً من الاهتمام به والإقبال عليه .

وقد نشر سلفاتورى مادى Salvatore Muddi تقريراً عن تجربة توضح لنا وجود دافع يدفع الناس إلى تحصيل قدر معتدل من الجدة. وذلك أنه سمح لبعض الأطفال فى مدارس الحضانة باللعب بمجموعة من ثمانى لعب كانت على منضدة. ثم سمح لهم بعد ذلك بأن يتخيروا واحدة من خمس مناضد من اللعب للعب الإضافى . وكانت إحدى هذه المناضد تحتوى على اللعب الثمانية نفسها (أى أن درجة الجدة هنا كانت صفراً بالمائة) . بينما كانت منضدة أخرى تحتوى على ست لعب قديمة ولعبتين اثنتين جديدتين (أى درجة الجدة هى ٢٥ بالمائة) . وأما الثالثة فكانت تحتوى على أربع قديمة وأربع جديدة (درجة الجدة خمسون بالمائة) . والتالية اثنتين قديمتين وست جديدة (جدة بنسبة ٧٥ بالمائة) . والأخيرة كلها لعب جديدة (جدة بنسبة مائة بالمائة) . وقد تخير الأطفال ، فى مجموعهم ، المناضد فيما بين ٢٥ بالمائة . ٧٥ بالمائة من الجدة . وتجنبوا حالات الإفراط فى الألفة أو فى الجدة . أى الألفة الكاملة والجدة التامة .

وعلى الرغم من أن الجدة هى أكثر الجوانب الباهرة فى المثير التى تدعو إلى الفضول ، إلا أن هناك جوانب أخرى لها أهميتها أيضاً . فلو أننا عملنا على تثبيت درجة الألفة لوجدنا الأطفال يشدد فضولهم بالنسبة للمثيرات التى تتصف بالشدة ، أو كثرة الألوان ، أو التعقيد . كما أن دانييل برلاين Daniel Berlyne أثبت أن لعنصر المفاجأة أهميته أيضاً . مثال ذلك أنه لو عرضنا سلسلة من التصميمات المثلثة ثم أعقبها تصميم دائرى ، لأثار ذلك قدراً أكبر من الفضول . كما أن الفضول يزداد عند عرض صورة غير متوقعة وغير متوافقة لأسد يحمل رأس فيل . وإن كان بعض الباحثين يرون فى كل هذه الجوانب نوعاً من الجدة .

على أن بعض هذه المتغيرات متضمن فى تقديرنا نحن الكبار للموسيقى والفن والشعر . ففى السيمفونية الرائعة تجد هناك تنوعات كثيرة على الأفكار الرئيسية ، وفقرات غير متوقعة وهى كلها تلتئم خلال الحركة . والفنان الحديث الكبير ، من أمثال بيكاسو ، يدخل عن قصد عامل الجدة ، والتنافر ، وعدم التوافق – بل وقد يزيد من ذلك إلى حد لا يقبله الشخص العادى . ومع ذلك ، فإن الدراسة الدقيقة

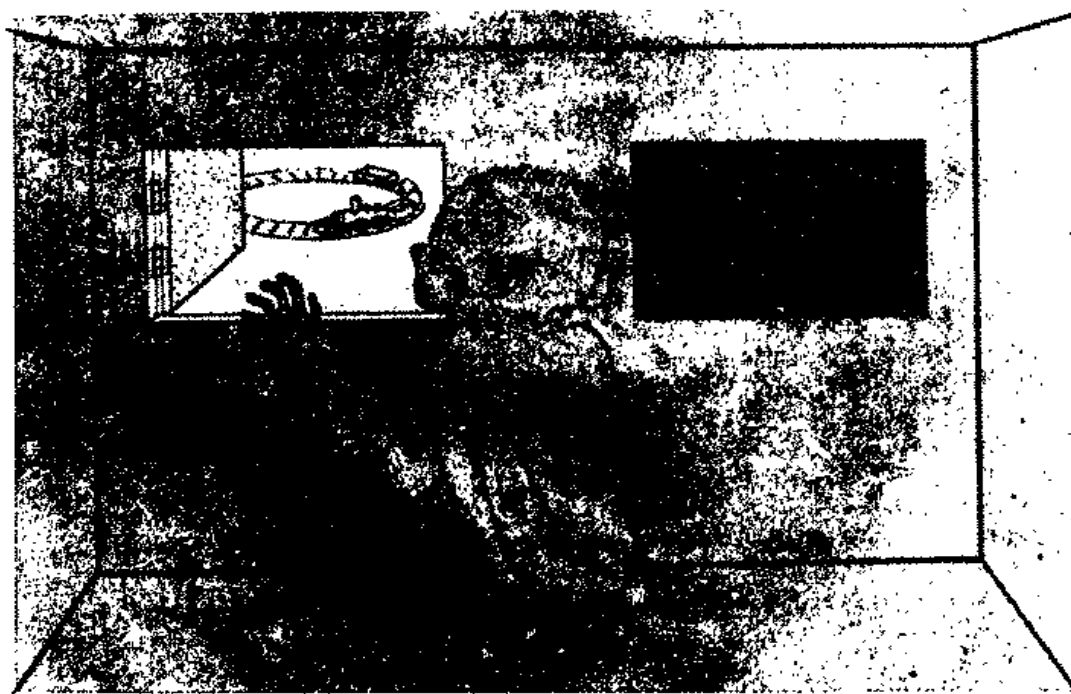
لعمل ليكاسو سوف تكشف لنا عن الانسجام والالتزام بشكل دقيق . ولتقرأ مقطوعة غنائية من عند شيكسبير لتلاحظ الالتزام في البيتين الأخيرين . كما أن الناس يمكنها بالتدريب السليم المناسب أن تجد في هذه الألعاب رفيعة المستوى القدر المائل من الإمتاع .

ثم إن كل الأشياء تصبح تافهة بغضبة بعد فترة . فما تلبث أن تسأم من تشايكوفسكى وتتحول إلى باخ . وهذه هي عملية التعود . ذلك أن الجودة تتناقص كلما تكرر العرض . وتقديم المثير المألوف إلى الطفل يؤدي إلى الضجر بل والنفور . وكلما ازداد حظ المثير من الجودة أو التعقيد ، طالت فترة التعود . وبعد أن يقع التعود ، ولا يتم عرض المثير فترة من الوقت ، وجدنا أن استعادة الإثارة قد تحدث . واستعادة الإثارة تتوقف على درجة الجودة التي كان يتمتع بها المثير في أول الأمر . ومقدار العرض ، والزمن الذي انقضى بعد آخر مرة عرض فيها المثير . والمثير قد يعود إلى مستواه الأصلي من إثارة الاهتمام . فإنه بعد انقضاء عشر سنوات نجد أنه حتى تشايكوفسكى قد يستثير فضولنا .

والفضول نجده عند الأطفال الصغار جداً . فقد لاحظ جان بياجيه Jean Piaget ، ذلك الرجل السويسرى العظيم الذى اشتغل بسيكولوجية النمو ، وجود الفضول عند ابنه لوران Laurent وهو لا يزال فى الشهر الثالث من عمره . إذ علق بياجيه « خشخيشة » فوق مهده مربوطة بحيط ، فأنفق لوران خمس عشرة دقيقة وهو يهزها ويقهقه ضاحكاً . ولم تكن هناك إثابات خارجية متضمنة فى هذا العمل .

كذلك درس روبرت بتلر Robert Butler وأعوانه الفضول عند القردة . وكان كل قرد فى هذه الدراسات يوضع فى صندوق مظلم خافت الإضاءة به نافذتان صغيرتان مغطتان . ويتضح هذا فى الشكل رقم (٩) . وكانت إحدى النافذتين مطلية باللون الأصفر ، والأخرى مطلية باللون الأزرق ، مع بقاء النافذة الصفراء مغلقة دائماً والزرقاء غير مغلقة . فإذا ضغط القرد على النافذة الزرقاء انفتحت النافذة مما يسمح له برؤية غرفة المختبر لمدة ثلاثين ثانية . ولم يقتصر الأمر على تعلم القردة لهذه

الاستجابة من أجل الحصول على الإثابة التي هي الاستكشاف البصرى ، بل إن القردة أظهرت نهماً شديداً لمثل هذه الإثابة بحيث أنها لم تكف تظهر شيئاً من التشبع أو الاعتياد . وقد اختبرت مجموعة من القردة لمدة عشر ساعات فى اليوم لمدة ستة أيام متتالية فأظهرت القردة استكشافاً بصرياً ثابتاً إلى حد معتدل بنسبة ٤٠ بالمائة من المرات .



شكل ٩- قرد من نوع الريزوس مع جهاز الاستكشاف البصرى . والقرد هنا يتعلم أن يدفع ليفتح نافذة غير مغلقة بالمزلاج ليرى ما هو خارج الغرفة لمدة ثلاثين ثانية .
(صورة صنعت على مقتضى الأوصاف التى وردت فى : B. A. Butler. Discrimination learning by Rhesus monkeys to visual - exploration motivation. J. Comp. Physiol. Psychol., 1953, 46, 95-98).

وتتوقف قوة هذا الدافع على طبيعة المثير البصرى . فقد كان فتح النافذة يتم بتكرار أقل عندما كانت الإثابة عبارة عن غرفة خالية منه عندما كانت الإثابة عبارة

عن غرفة فيها لعبة القطار الكهربى وهو يتحرك . كما أن أقوى درجات الإثابة كانت عبارة عن التطلع إلى قرد آخر . كما كانت الأصوات مثيية كذلك . فقد استجابت القردة لتستمع إلى القطار أو القرد ، ولكن بتكرار أقل من استجابتها لرؤية القطار أو القرد . ثم إنه ليست كل المثيرات مثيية . فإن القردة لم تتعلم الاستجابة من أجل أن تشهد كلبًا كبيرًا أو قردًا آخر يتألم .

ثم إن الفضول عند القردة يتوقف كذلك على مقدار الحرمان من المثير . فقد حرم بترل القردة من الخبرة البصرية لمدة مقدارها صفر ، ٢ ، ٤ ، ٨ ساعات . وكانت الإثابة عبارة عن التطلع لمدة مقدارها اثنتا عشرة ثانية إلى مستعمرة القروود . وتبين أن الاستجابة تزداد بازدياد طول فترة الحرمان حتى أربع ساعات ، ثم استقرت الزيادة بعدئذ . وتوضح هذه التجربة أن هناك نوعًا ما من الدافع الداخلى يدفع إلى طلب الإثارة الجديدة - ولعله مرتبط بوظائف الدماغ - وأن هذا الدافع تتزايد قوته بمرور الوقت .

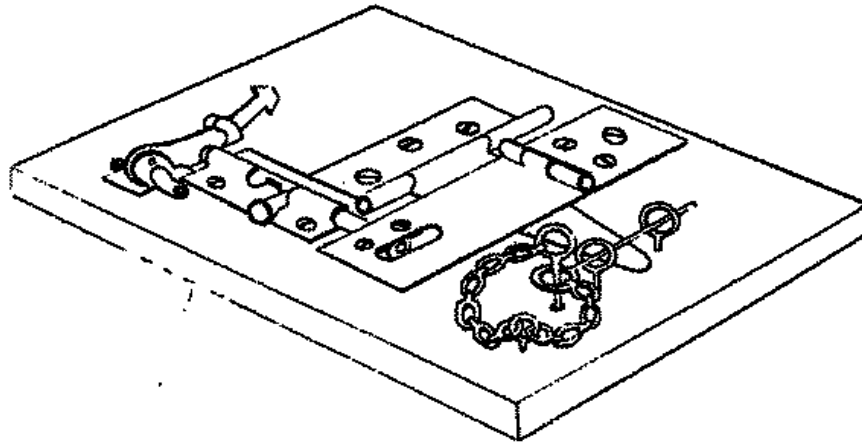
دوافع النشاط والتناول

بالإضافة إلى الدوافع إلى الإثارة الحسية والمثيرات الجديدة ، نجد عند الطفل الناشئ دافعًا يدفعه إلى عمل الأشياء - الجرى ، التسلق ، القفز ، الإمساك ، الإسقاط ، الفتح ، الإغلاق . وأبرز ما نشهد هذا يكون فى كفاح الطفل الصغير من أجل أن يمشى . ذلك أن الطفل يشد نفسه ليقف ، ويتعثربضع خطوات ، ثم يسقط ، ثم يشد نفسه ليقف مرة ثانية ، وليحاول ثانية . وهذا الكفاح العالمى العام لا ينال إثابة من أى نوع خارجى بسيط - بل الواقع أن الطفل يعانى الألم ، ويكون فى أول الأمر أقل نجاحًا فى الحصول على الأشياء مما كان عن طريق الجبو . كما أن استحسان الوالدين لا يبدو أنه العامل الحاسم فى تعلم المشى .

كذلك ينفق صغار الأطفال قدرًا كبيرًا من الوقت فى أنشطة تناول الأشياء باليد من قبيل وضع الإصبع فى الخاتم ، ثم نزع الخاتم من الإصبع . وقد تمكن هارى هارلو وأعوانه من إثبات وجود دافع إلى تناول الأشياء باليد عند القردة .

وفي هذه الدراسات يوضع لغز ميكانيكي من النوع الموضح في الشكل رقم (١٠) في قفص القرد . وقد تعلم القردة أن يفكوا هذا النوع من اللغز بالعمل الدائب . وازداد عدد الاستجابات الصحيحة على فترة من الاختبارات اليومية دامت اثني عشر يوماً حتى كادت القردة تصل إلى مستوى الكمال . ولا بد أن جودة المثير قد زالت من قبل ذلك ، بحيث يمكن القول إن الدافع الأولي كان الرغبة في إتقان حل المشكلة أو تناولها .

كما أن الاهتمام بالألغاز الميكانيكية يمكن أن ينخفض بالتشبع ، وذلك بعد أن تترك الألغاز في الأقفاص فترة طويلة من الزمن . وقد وجد هارلو في دراسة للتشبع بعد عشر ساعات أن عدد الأجزاء التي يتم فتحها في اللغز يتناقص . فالظاهر أن تأثير التشبع يشبه التعود على المثيرات الجديدة .



شكل ١٠ - لغز ميكانيكي من ستة أجزاء يستخدم لدراسة الدافع إلى التناول والاستكشاف عند القردة . والقردة هنا تتعلم حل الألغاز وفك أجزائها من غير أن يكون هناك دافع خارجي يدفعها إلى ذلك .

(نقلا عن H. F. Harlow. Learning and satiation of response in intrinsically motivated complex puzzle performance by monkeys. J. Comp. Physiol. Psychol., 1950, 43, 289-244).

في هذه الدراسات لم تكن تستخدم أية إثابة خارجية . ولكنه تبين بعد ذلك أن إضافة إثابة بالطعام على حل المشكلة لم يزد من كفاءة التعلم . والذي حدث . بدلاً من ذلك ، هو أن السلوك العام اختلف وتغير . كما أن الحيوانات التي كانت تثاب بالطعام استخدمت النغز لمجرد الحصول على الطعام ، وكان اهتمامها قليلاً بالتناول لذات التناول . ولعل هذا هو ما يحدث عندما نحول نشاطاً مثيراً إثابة ذاتية داخلية إلى استجابة تستخدم للحصول على إثابة خارجية . إن صفار الأطفال يتميزون بالرغبة الشديدة في تعلم عمل الأشياء . ولكن هذه الرغبة الجارفة الشديدة سرعان ما تضع بعد أن نعرضهم للتربية الرسمية المدرسية . وقد يكون من أسباب ذلك أن نشاط التعلم ، ذلك النشاط المثير لإثابة ذاتية داخلية يتحول إلى استجابة تستخدم في الحصول على تقديرات مرتفعة ، أو استحسان المدرسين والأبوين ، أو الوصول إلى الكلية حيث يمكن التعرف على زوج مناسب ، أو حيث يمكن تحقيق بداية مناسبة في مجال العمل .

الدوافع المعرفية

الدوافع التي وصفناها حتى الآن في هذا الفصل يمكن أن ننظر إليها على أنها تتضمن الاستخدام الممتع للجهاز الحسي والجهاز العضلي عند المرء . فلماذا ، إذن ، لا تكون هناك دوافع تتضمن استخدام جهاز التفكير عند الإنسان استخداماً ممتعاً ؟ والوظائف المعرفية هي تلك الوظائف المتضمنة في التفكير ، واستخدام الرموز ، وحل المشكلات . والأطفال يجدون في هذه الأنشطة متعة كبيرة - فهم يحبون الألغاز ، والأناشيد ، والألعاب العقلية . وهم يحبون أن يحلوا المشكلات ، وأن يلعبوا بالأرقام إذا لم تقف دونهم عوامل حضارية . بل إن الكبار المتعبين يستمتعون بحل ألغاز الكلمات المتقاطعة ، ولعب الشطرنج ، وحل المشكلات . كما أن كثيراً من العلماء ، والمهندسين ، ورجال الأعمال ، والأطباء ، والحرفيين وغيرهم يجدون المتعة الحقة في أعمالهم عندما تواجههم التحديات ويطلب منهم حل المشكلات الصعبة .

صحيح أن التفكير ، والتذكر ، وغير ذلك من العمليات المعرفية تعمل في خدمة دوافع من قبيل الجوع ، والقلق ، والحاجة إلى الاستحسان . وقد سبق أن قدمنا عددًا من الأمثلة على ذلك في الفصل الثاني . كما أن استخدام العقل قد يكون ممتعًا مشبعًا إشباعًا ذاتيًا . ولكن المتعة ، كما حدث بالنسبة لقردة هارلو ، قد تنتزع من العمليات المعرفية المدفوعة بذاتها ، إذا نحن حولناها إلى وسائل لخدمة غايات خارجية .

وقد تركز انتباه علماء النفس في السنوات الأخيرة على جانب محدد من الدوافع المعرفية . وعلى الرغم من أن هذا الجانب جانب واحد محدود فقط من العملية ، إلا أنه قد يحدد بداية عصر استكشاف للجوانب المختلفة من الدوافع المعرفية . هذا الجانب المحدد الذي نشير إليه هو الدافع الذي يدفع المرء إلى أن يكون منطقيًا ، متسقًا اتساقًا داخليًا ، حتى تكون العمليات الفكرية المختلفة متفقًا بعضها مع بعض . وقد قام ليون فستنجر Leon Festinger وأعوانه بتسمية هذه الفكرة إلى أكبر حد في نظريته عن التنافر المعرفي .

ذلك أن فستنجر يرى أن الأفكار المحددة أو أجزاء المعلومات التي تتوفر لدى الشخص قد تكون متناسقة أو غير متناسقة بعضها مع بعض . فإن كانت متناسقة ، وجدنا لدينا حالة من الانسجام ، أو الاتفاق ، ولم نكن بصدد أية مشكلة . أما إن كانت لدينا قطعتان من المعلومات غير متناسقتين ، أو متعارضتين تناقض إحداها الأخرى ، وجدنا لدينا حالة من التنافر تكون غير مريحة ، وتدفع الشخص إلى خفض التنافر واستعادة الانسجام .

ويضرب فستنجر المثل على ذلك الشخص الذي (١) يعلم أن التدخين ضار بالنسبة له ، ولكنه (٢) يستمر في التدخين . وكما يقول فستنجر (١) :

... إن الشخص الذي يستمر في التدخين ، وهو يعلم أنه مضر لصحته ، قد يشعر كذلك (أ) أنه يستمتع بالتدخين استمتاعًا كبيرًا يستحق من أجله تحمل الضرر .

(1) L. Festinger. A theory of cognitive dissonance: Stanford university press, 1957, p.2.

(ب) أن فرص تعرض صحته للضرر ليست بالخطورة التي يصورها الغير . (ج) أنه لا يستطيع دائماً تجنب كل احتمال للضرر . ومع ذلك لا يزال يعيش . (د) أنه حتى وإن توقف عن التدخين قد يتعرض للسمنة التي تكون مفسدة لصحته بنفس الدرجة . ولذلك يصبح الاستمرار في التدخين في آخر الأمر ، متسقاً مع أفكاره عن التدخين .

في هذا المثال نجد ظاهرة التنافر المعرفي قد دفعت إلى التبريرات . وقد أوردت جماعة فستنجر الدليل على صحة نظرية التنافر المعرفي في طائفة متنوعة من المواقف . مثال ذلك أن الشخص عندما يتوصل آخر الأمر إلى قرار يختار فيه واحداً من أمرين متقاربين ، قد يجد نفسه أمام حالة من التنافر . فالرجل الذي يشتري لنفسه سيارة من نوع معين ، بعد أن يكون قد تدبر عدة أنواع مغرية أخرى ، قد يعذبه الشعور بأنه كان من الأفضل شراء نوع آخر غير الذي اشتراه . وقد أظهرت إحدى الدراسات أن الرجل في هذه الحالة يحاول أن يخفض من حدة التنافر بأن يسعى جاداً لتحصيل المعلومات المنسجمة مع قراره ، وبأن يتجاهل المعلومات المتنافرة . وقد عرض على مجموعة من الناس الذين اشتروا حديثاً سيارة جديدة ، عدد من المجلات والجرائد التي اعتادوا شراؤها وقراءتها والتي صدرت من بعد شرائهم للسيارة . ثم طلب إليهم أن يبينوا أي إعلانات السيارات قد لاحظوها وأياها قد قرأوها . وأظهرت النتائج أن المجموعة قرأت من بين الإعلانات التي لاحظوها ، نسبة مقدارها (٦٥) بالمائة من تلك الإعلانات المتصلة بالسيارات التي سبق لهم شراؤها ، ونسبة مقدارها (٤٠) بالمائة فقط من الإعلانات المتصلة بالأنواع التي فكروا فيها ولكنهم لم يشتروها . مثل هذا التخير في استقبال المعلومات الجديدة ساعدهم على تعصيد القرار الذي اتخذوه وخفض مستوى التنافر .

من الواضح أننا هنا بصدد ظاهرة شديدة التعقيد . وأن هناك عوامل أخرى يتوقع لها أن تؤثر في الآراء والمعتقدات . ومع ذلك ، فإن الدافع إلى الوصول إلى الاتساق المعرفي الداخلي يبدو دافعاً واقعياً حقاً . والسؤال الهام المتبقى هو : إلى أي حد يكون هذا الدافع متعلماً ؟ مما لاشك فيه أن التعلم متضمن في اكتساب

الرموز المعرفية وأنظمة المعتقدات . ولكن جماعة فستنجر ، مع ذلك ، يؤمنون بأنه ، وإن كانت الأفكار أموراً مكتسبة ، إلا أن التنافر بين الأفكار دافع أساسي شأنه في ذلك شأن سائر الدوافع الأساسية الأخرى . الواقع أننا بحاجة إلى المزيد من الأبحاث في المستقبل حتى نتمكن من الإجابة عن هذا السؤال .

مفاهيم جديدة في الدافعية

اكتشاف - أو بالأحرى إعادة اكتشاف - السلوك المدفوع بدوافع ذاتية ترتب عليه أن يعود الباحثون إلى تدبر المفاهيم الأساسية في مجال الدافعية مرة ثانية . فالفكرة التي تقول بأن كل الدوافع تشتق من اختلال للاتزان الهوميوستازي الداخلي - وهي فكرة لا تفسر لنا بالفعل ، كما شاهدنا ، دوافع الجنس والجوع وماشابهها تفسيراً كاملاً - تواجه صعوبة كبيرة عند تفسير الدوافع الذاتية .

وقد جعلت هذه الصعوبة روبرت وودورث - أحد السيكولوجيين البارزين في هذا القرن - يرفض النظريات القائلة بأولوية الحاجات ، need-primacy theories ، مثل نظرية كلارك هل ونظرية سيجموند فرويد ، والتي تقصر الأهمية على الحاجات الداخلية . وقد اقترح وودورث ، بدلاً من ذلك ، نظرية في الدافعية هي أولوية السلوك ، وفيها يكون التركيز على الكائن العضوى الذى يتعامل مع البيئة . وبذلك تصبح الدوافع الذاتية من الفضول والتناول وغيرها ، مما وصفناه في هذا الفصل ، أمثلة على الدوافع التي تدفع المرء إلى تعلم التعامل مع البيئة .

وقد كتب روبرت هايت Robert White بحثاً هاماً ذهب فيه إلى رأى شبيه بذلك . وعنده أن كل الدوافع الذاتية المحددة بمثابة جوانب من دافع عام واحد هو الدافع إلى الاقتدار . وهذا الدافع إنما ينشأ في الدماغ فقط ، لا في اختلال الاتزان الحشوى ، وليست له استجابة استهلاكية محددة ، كما أنه لا يشبه خفض للتوتر أو خفض للاستثارة . والوظيفة البيولوجية للدافع إلى الاقتدار هي الوصول إلى الكفاءة في التعامل مع البيئة . والطفل المنغمس في اللعب

لا يكون على وعى بهذا الهدف البيولوجى . وكل ما هنالك أنه يلعب ويلهو ويحصل على المتعة فحسب . وشبيه بهذا النشاط الجنسى . فالوظيفة البيولوجية هى تكاثر النوع ، ولكن السلوك تدفعه فى الفرد رغبة فى تحصيل اللذة .

سبق أن رأينا أنه فى مدرسة التحليل النفسى يرفض أصحاب سيكولوجية الأنا من أمثال هاينز هارثمان وزملائه فكرة فرويد عن الإغلاء . وإنما ينظر الآن إلى وظائف الأنا بوصفها مستقلة فى أساسها . وحتى لو أنها ارتبطت بدوافع جنسية وعدوانية ، إلا أنها قد تعود فتصبح مستقلة فى وقت لاحق .

على أنه ليست هناك نظرية مما ذكرنا حتى الآن - أولوية السلوك . الدافع إلى الاقتدار ، أو استقلال الأنا - تتضمن أن هذه الدوافع الجديدة تحل محل الدوافع الهوميوستازية المستقرة أو الدوافع الجنسية . وكل ما هنالك أن هذه النظريات ترى أن الجزء الأكبر من النشاط اليومي (عند الطفل بصفة خاصة) تدفع إليه دوافع ذاتية بصورة ثابتة غير ظاهرة ، وأن الدوافع التى هى أكثر إلحاحاً مثل الجوع تكون لها السيطرة والبروز لفترات محدودة نسبياً .

والظاهر أن الدوافع الذاتية إلى الاستثارة والنشاط دوافع فطرية ، وأن التعلم ليس له فيها إلا دور ثانوى فقط . ولذلك ، فإن هذه الدوافع الذاتية تقدم بعض التأييد لذلك النوع من نظريات الدوافع الذى يقوم على استخدام مفهوم الغريزة . وكذلك نجد أنه لما كانت اللذة متضمنة فى الاستكشاف والتناول ، وأن الألم والخوف قد تستثيرهما المثيرات التى يتم تجنبها ، فإن نظريات الدوافع الجديدة القائمة على مبدأ اللذة تصبح متفقة تماماً مع الدوافع الذاتية هذه .

وقد رأى هارى هارلو أن الدوافع الذاتية ، شأنها شأن الدوافع الأخرى . تعتمد على مراكز فى الدماغ يتم تنبيهها عن طريق أعضاء الحس . وهو يرى أن الدوافع التقليدية ، مثل الجوع ، تنشأ عن استثارة للمستقبلات الداخلية (وهو يذكر هنا المستقبلات التى فى المعدة ، لكنه يمكن إضافة المستقبلات التى فى الهيپوثلاموس كذلك) ، على حين أن الدوافع الذاتية تنشأ عن المستقبلات

الخارجية مثل العين . وكلاهما قد يؤدي إلى تنشيط مراكز الدماغ . وقد سبق أن رأينا في فصول سابقة أن الدوافع الهوميوستازية ، والجنسية ، والأمومية ، والانفعالية تعتمد تمام الاعتماد على مراكز الدماغ . وأما الدوافع الذاتية فإنه لم يتم التعرف بعد على مراكز محددة في الدماغ بالنسبة لها . وقد ذهب رونالد ب لندزلى Ronald B. Lindsley إلى أن الجهاز المنشط الشبكي له اتصال بالأمر . كما أن الجهاز الطرفي قد يكون له اتصال كذلك مادامت الدوافع الذاتية تتضمن اللذة والألم . إن علينا أن نتنظر المزيد من الأبحاث لكي نفهم الأسس الفسيولوجية للدوافع الذاتية ، وإن كان من الجائز أن نتبين أنها شبيهة بالأسس الفسيولوجية للدوافع التقليدية .

كذلك قد يكون من الممكن أن تتمكن نظرية الدوافع التقليدية من تفسير هذه النتائج . فإن الاستجابة للمثيرات ليست أمراً خالياً من التمييز ، وإنما هي تتوقف ، إلى حد ما ، على حالة الدماغ - وبخاصة على مستوى الأداء الذي كان يعمل به من قبل أن نختبره اختبار الفضول أو النشاط . والظاهر ، كما يقول جردسون براون ، أنه من غير الصحيح أن يقال إن فضول قرودة بتلر يستثيرها المثير ، مادام أن القردة كانت تعتمد إلى فتح النافذة من قبل أن ترى المثير . وإنما قد تكون حالة معينة مثل « الضجر » هي « الدافع » من وراء بعض هذه الدوافع الذاتية . ولنتذكر أن قرودة بتلر كانت أكثر دافعية بعد الحرمان الحسي . ولذلك ، فإن صورة معدلة من نظرية الدافع بحيث تتضمن حالات الحرمان الخاصة هذه قد تتمكن من تفسير الدوافع الذاتية .

والآن ، وحتى نستدير بالمناقشة دورة كاملة ، نسأل : هل من الممكن أن تكون للدوافع الذاتية نتائج هوميوستازية في آخر الأمر ؟ بالتأكيد لا ، إن كنا نعني بالهوميوستازية وظائف الأحشاء . ولكن أليس من الممكن أن يمتد مفهوم الهوميوستازية ليشمل وظائف الدماغ ؟ إن هذا متضمن في كلام لندزلى عندما يقول: إن هناك مستوى معيناً من الاستثارة لا بد منه حتى يقوم الدماغ بأداء وظائفه

بصورة سوية . والاضطرابات المعرفية الناتجة أثناء الحرمان الحسى تؤيد ذلك أيضاً . كما أن هناك أدلة أخرى قدمها رونالد هب تبين أن الاستثارة والنشاط ضروريان في مرحلة الرضاعة من أجل النمو السوى للعمليات الإدراكية ، ولذلك ، يصبح من الممكن أن تكون ميكانيزمات الدماغ التى تتوسط الدوافع الذاتية وسيلة لضمان النمو الملائم للدماغ ولضمان حسن قيامه بوظائفه الأمر الذى يسهل التوافق مع البيئة .

وفي الختام نقول : إن ظهور السلوك المدفوع بذاته قد أثار عدة أسئلة حول النظريات التقليدية فى الدوافع . وأنه ظهرت مفاهيم جديدة - أولوية السلوك ، الدافع إلى الاقتدار ، واستقلال الأنا . وأن الدوافع الذاتية متسقة تماماً مع نظريات الغرائز واللذة فى تفسير الدوافع ، كما يمكن تفسيرها بصورة معدلة من نظرية الباعث . والدوافع الذاتية قد يتضح ، فى المستقبل ، أنها تتضمن ميكانيزمات للدماغ ووظائف شبيهة بتلك الوظائف المتضمنة فى الدوافع التقليدية .

الفصل السابع

مصادر الدافعية الاجتماعية

للتدبر حالة شاب التحق حديثًا بالكلية - عامر بالآمال البراقة والتوقعات العريضة . ما الذى جعله يقرر أن يقضى أربع سنوات من عمره وهو يقرأ الكتب ، ويكتب الأبحاث والتقارير ، ويستمع إلى المحاضرات ، وقد كان يملك أن يحصل على عمل ، وأن يتزوج ، وأن يجد الإشباع لكل دوافعه الفسيولوجية ؟ الالتحاق بالكلية لا يمكن تفسيره على أساس من الجوع ، أو العطش ، أو حتى الجنس .

إن من الممكن بالطبع أن يكون الطالب مدفوعاً بدافع فضول ذاتى - تعطش لا يرتوى إلى المعرفة . وهذا قد يكون صحيحاً بالنسبة لبعض الطلاب ، ولكن معظم الطلاب تعرض عندهم هذا الدافع الذاتى الداخلى للكف بفضل السنوات الطويلة المملة من الانخراط فى الدراسة ، أو بفضل مايسود فى المجتمع العام من عداو ونفور من الأعمال العقلية . ولذلك ، لا يمكن أن يكون فى الفضول الذاتى تفسير لهذه الرغبة الشديدة العارمة أحياناً فى الالتحاق بالكلية .

ولو أننا سألنا الشاب . نفسه لجاز أن يقول إنه يتظر منه أن ينخرط فى الكلية ويلتحق بها - وأنه سيغضب والديه إن لم يفعل . والواقع ، أن هذه الدعوى أقرب إلى أن تكون مروعة - أن يكون الدافع ناشئاً عن رغبات الآخرين . أو قد يقول الطالب إنه يريد أن يرتفع بمكانته ، وأن يصبح مديراً ناجحاً . ومن المؤكد أن هذا الهدف ليس لازماً لإشباع الجوع ، كما أنه ليس وسيلة لتجنب التعب لأن المديرين يجدون فى أعمالهم عادة مشقة أكبر مما يجد مرءوسوهم . لعلها الرغبة فى المال ؟ وهذا أمر هام ، ولكنه لا يفسر لنا السبب فى أن المليونير يستمر ويمضى فى

عمله ، ولا يملك أن يتوقف وكأنه مقهور على أمره ، لفترة طويلة من بعد أن .
يكون قد حصل من المال ما يكفي إشباع حاجاته الفسيولوجية بقية حياته أضعافاً
مضاعفة . هنا نجد شيئاً جديداً - المكانة ، أو المنزل ، أو تقدير الذات .

قد يقول الشاب ، في صراحة ، إنه إنما يريد أن يستمتع بوقته في الكلية .
ويكون قصده من هذا - بصفة أساسية ، أن يستمتع مع الناس - صداقات ،
حفلات المدينة الجامعية ، مباريات كرة القدم . وكيف نفسر ما يجده الناس من
نشوة ظاهرة عند فوز فريقهم في كرة القدم ؟ وقد يشكو الشاب فيما بعد أن
الفصول مزدحمة بالطلاب إلى حد أنه لا تتاح له فرصة « التعرف » على
الأساتذة . إن هنا نوعاً من الدافع الذي لم يجد الإشباع ، دافع يدفع إلى نوع
خاص من التفاعل الاجتماعي .

وكل هذه الدوافع تتضمن الناس - الاختلاط بهم ، والحصول على
استحسانهم ، والاستمتاع معهم ، والتنافس معهم ، والسعى إلى رفع تقدير المرء
لذاته معهم أو من خلالهم . هذا التفاعل مع الآخرين هو السبب في أننا نسمى هذه
دوافع اجتماعية . والسلوك الاجتماعي لا يمكن أن نفسره تفسيراً تاماً بالجوع ، أو
بالجنس ، أو بالألم ، أو حتى بالاقتدار . وفي الواقع ، أن الدوافع الاجتماعية كثيراً
ما تغطي بقوتها على الدوافع الأخرى - وذلك كما يحدث عندما يرمى الجندي بنفسه
على قبلة يدوية من أجل أن ينقذ أصدقاءه ، أو عندما يقسم الراهب أن يعيش حياته
بدون زواج ، أو عندما يقاوم السجن السياسي صنوف التعذيب .

فما هي طبيعة هذه الدوافع الاجتماعية ، ومن أين تأتي ؟ وهل هي دوافع
بيولوجية متوارثة ، أم أنها تنشأ من خلال خبرات التعلم عند الطفل عندما ينشأ في
مجتمع مؤلف من أناس آخرين ؟ فيما مضى كان يظن أنها دوافع غريزية فطرية .
مثال ذلك أن داروين كتب يقول : « إن الغرائز الاجتماعية تجعل الحيوان يجد
المتعة في صحبة أمثاله ، وأن يشعر بقدر معين من التعاطف معها . وأن يقوم بخدمات
متعددة من أجلها » . وعند الإنسان تؤدي هذه الغريزة الاجتماعية الأساسية إلى نشأة

المجتمع المتمدين وإلى قيام الأخلاق الاجتماعية . كذلك وضع وليام جيمس الميل إلى الاجتماع بالآخرين ، والتعاطف ، والحب ، والغيرة . والتقليد ضمن الغرائز الاجتماعية الأساسية . كما أن وليام ماكدوجال ، كما نذكر ، أدرج غريزة التجمع في قائمته . وفي كل هذه النظريات نجد أن ميل الإنسان إلى الاجتماع بينى جنسه ، وإلى أن يرتبط بهم بروابط المودة ، وإلى أن يتأثر باستحسان الآخرين واستهجانهم ، ينسب إلى نزعة بيولوجية غير متعلمة .

وعلى الرغم من أن الفكرة القائلة بوجود دافع اجتماعي أساسي تبدو معقولة بالبديهة ، فقد بدأ أصحاب نظريات الغرائز يفرعون وينوعون من هذه الفكرة ، ويفترضون عددًا متزايدًا من الغرائز الاجتماعية - من غير أن يكون لديهم على ذلك الدليل الحق . بل إنهم افترضوا غريزة اجتماعية خاصة لكل جزء من ذلك السلوك الاجتماعي المعقد . من ذلك ، مثلاً ، أن بعضهم أصر على أن هناك غريزة متوارثة تدعو الإنسان إلى أن يستر جسده عن غيره من الناس . وكان هذا القول معقولاً إلى حد كبير بالنسبة للرجال في العصر الفيكتوري ، ولكن علماء الأنثروبولوجيا استمروا يكتبون عن قبائل لا يشعر واحد منهم بالحاجة إلى الملابس . وأصبح من الواضح الجلي أن أصحاب نظريات الغرائز يحولون ما تعلموه من قيم حضارية إلى ضرورات بيولوجية . وأظهرت الأبحاث والنتائج الأنثروبولوجية أن الدوافع الاجتماعية تتفاوت تفاوتاً كبيراً من مجتمع إلى مجتمع ، وأنه لا بد من تعلمها لا توارثها .

وهكذا أخذ علماء النفس في العشرينات والثلاثينات يعارضون الأساس الفطري للدافعية الاجتماعية كما كانوا يعارضون الأساس الفطري للفضول وما شابه من الدوافع . ومرت ثانية ، وجدنا معظم أصحاب النظريات يزعمون أن الدافعية الاجتماعية مشتقة من دوافع أخرى أساسية بدرجة أكبر مثل الجوع ، والجنس ، والخوف . وذهبوا إلى أن تعلق الطفل بأمه ، على سبيل المثال ، إنما يتم تعلمه على أساس أنها هي التي تطعمه . وعلى ذلك يكون هذا النوع من الدافع الاجتماعي دافعاً ثانوياً أو مشتقاً . وبعبارة أخرى ، يصبح الإنسان مخلوقاً بيولوجياً

لا تدفعه إلا التوترات الحشوية ، ولا شيء عداها . ولكن ، لأنه يعيش في المجتمع مع غيره من الناس ويعتمد عليهم في إشباع متطلباته ورغباته العضوية ، فإنه تنشأ لديه حاجات اجتماعية ثانوية . وقد شهدنا في الفصل الأخير كيف أنه تبين أن مجموع الدوافع المتصلة بالفضول مستقلة عن الدوافع الهوميوستازية ، والجنسية ، والانفعالية ، كذلك نقول إن من الممكن أن يكون أصحاب نظريات الدوافع المشتقة قد تجاوزوا وغالوا ، وأن يكون هناك بالفعل أساس فطري بالنسبة لطائفة واحدة ، على الأقل ، من الدوافع الاجتماعية العامة غير المتمايزة .

وسوف نبين في هذا الفصل كيف تقوم النظريات المختلفة التي تقول باشتقاق الدوافع بتفسير السلوم الاجتماعي . ثم ندرس بعد ذلك الأدلة والبراهين على احتمال أن تكون هناك دوافع اجتماعية مستقلة عن الدوافع ذات الأساس الحشوي .

مفاهيم الدافعية الاجتماعية المشتقة

أصحاب النظريات الثلاث التي ناقشناها في الفصل الأخير - وهم فرويد ، وألبرت ، وميلر - وسعوا من تحليلهم للدافعية المشتقة وجعلوها تشمل الدوافع الاجتماعية . وقد سبق أن شرحنا المفاهيم الثلاثة - الإعلاء ، والاستقلال الوظيفي ، والدوافع المكتسبة . ورأينا أن الثلاثة كلها متشابهة كثيراً في واقع الأمر . والآن نصف بإيجاز كل واحدة من هذه النظريات .

لم يؤمن فرويد بأن هناك غريزة اجتماعية فطرية من شأنها أن تجمع بين الناس . ولكنه ذهب إلى أن ما يجمع بين الناس هو المشاعر الجنسية . وهذه المشاعر قد لا تبدو جنسية بصورة مباشرة ، وإنما هي قد تتعرض لشيء من الكف ، أو الإقلال ، أو التقويه . فهي تظهر في صورة... « العلاقات الودية بين الوالدين والأطفال ، تلك العلاقات التي كانت في أصلها جنسية تماماً ، ومشاعر الصداقة ، والروابط العاطفية في الزواج التي كان أصلها مستمداً من التجاذب الجنسي » .

بل إن تعلق الطفل بأمه ، في نظر فرويد ، تعلق جنسي في أساسه . والرضيع الصغير ، في المرحلة القمية ، يتعلم أن الأم هي مصدر اللذة القمية . كما أن الطفل يشعر بالقلق إن خشي فقدان أمه بعد أن تعلم أنها لازمة من أجل إشباع غرائزه .

ولكن تعلق الولد بأمه ، فيما بعد أثناء المرحلة القضيبية . يصبح جنسياً بالمعنى التناسلي . ولكن القلق من الخصاء يحتم بعد ذلك ضرورة القضاء على التجاذب الجنسي . فما الذي يحدث للدافع الجنسي هنا ؟ يذهب فرويد إلى أن جزءاً من الطاقة خدّم في عملية التوحّد مع الأب ، وأن جزءاً آخر منها يتم إعلاؤه إلى مشاعر الحنان الخالية من الجنس نحو الأم .

وبهذه الصورة يفسر لنا فرويد علاقة الصحبة التي تقوم بين الوالد وابنه . والود الذي يكون بين الأم وولدها بوصفها مشتقة من الدوافع الجنسية . كما أن التعلق العاطفي الذي يكون عند الفتاة الصغيرة نحو والديها ، وكذلك رغبتها في الأطفال أو حبها لهم تفسر كلها على أنها مشتقات من دافع الجنس . ويستمر فرويد في هذا الاتجاه . فالروابط بين أعضاء الجماعة مشتقة من المشاعر الجنسية في داخل الأسرة . والرابطة بين الزعيم والأتباع إنما تقوم على أساس من العلاقة بين الأب والابن ، على حين أن التعلق فيما بين أعضاء الجماعة بعضهم وبعض ، يمثل ما يكون بين الأخوة من علاقات .

إن أهم تساؤلات النظرية عن مفهوم تحوّل الغرائز هو إن كان التعلّق الاجتماعي الأساسي فيما بين الطفل وأمّه - والذي تنبع منه كل العلاقات الاجتماعية والميول الأخرى - يمثل نوعاً من الدافع الجنسي بعد أن تعرض للإعلاء . أعني : هل المشاعر من قبيل الحب ، والمودة ، والاتكال ، والحنان ، والتعلّق صور من الدافع الجنسي تعرضت للإعلاء . لقد انشّق كثير من أتباع فرويد الأولين عنه بسبب هذه النقطة بالذات . فقد رأوا أنه أخطأ في اشتقاق كل الدفء والمشاعر الإنسانية من الدافع الجنسي . أما ألفرد آدلر Alfred Adler فقد رأى أن الإنسان تدفعه الحوافز الاجتماعية أكثر مما تدفعه الدوافع الجنسية .

وذهب إلى أن الإنسان لديه رغبة أو ميل اجتماعي فطري إلى أن يربط نفسه بغيره من الناس . وأن هذه العملية تبدأ من العلاقة بين الرضيع وأمه ، لكنها تتسع بعد ذلك لتشمل العلاقات الاجتماعية ، والتوحد مع الجماعة ، والتعاطف مع سائر الناس . وأما إريك فروم Erich Fromm فقد افترض وجود دافع أساسي للاجتماع والترابط بالناس ، بينما تحدثت كارن هورني Karen Horney عن حاجة الطفل إلى الطمأنينة في علاقته مع والديه ، على حين أن هاري س . سليفان Harry S. Sullivan كان يؤكد على العلاقات الإنسانية . والشئ المهم في هذه الآراء هو أنها صدرت عن قوم من أصحاب نظرية التحليل النفسي ممن كانوا يتعاملون مع المرضى في العلاج النفسي كما كان يفعل فرويد . ولكنهم ، مع ذلك ، اختلفوا مع فرويد وذهبوا إلى القول بنوع من الدافع الاجتماعي الأساسي الذي يكون مستقلاً عن الدوافع الجنسية والعدوانية .

وأما الرجل الثاني من أصحاب النظريات ، وهو ألبورت ، فإنه يؤمن بأن حب الإنسان للتجمع أمر مكتسب . فإن حاجة الرضيع إلى الراحة البدنية التي يجدها عند أمه تؤدي في آخر الأمر إلى رغبته في الصحة « الاجتماعية ، والجمالية ، والعقلية » . التي يجبرها فيها بعد . وألبورت يجيب على من انتقدوا تصوره هذا - الذي ينكر وجود دافع اجتماعي فطري - بقوله : « إن وجهة نظره هذه هي أبسط وأوضح صياغة للحقائق الأمبيريقية التي نجدها في مجال الدوافع » ⁽¹⁾ . ولذلك ، فإنه من الواضح أن الحب ، وحب الاجتماع بالناس ، وغير ذلك من الدوافع الاجتماعية هي ، عند ألبورت ، بمثابة تحولات لدوافع فسيولوجية من قبيل الجوع والألم .

وكذلك يتشكك ألبورت في وجود « غريزة الوالدية » ويقول : إن كثيراً من الأمهات لا تجد لديهن التطلع إلى الإنجاب ، بل وقد تجدهن يكرهن أطفالهن بعد الميلاد . وقد لا تؤدي الأم واجباتها إلا لكي تتجنب انتقادات الجيران أو لتتق

(1) G. Allport, Motivation in personality : reply to peter A. Betrocci. Psychol. Rev., 1940, 47, 533-534.

عقاب القانون . ولكن هذه الدوافع الخارجية تجعل الأم تستمر في أداء عملها إلى أن تصبح رعاية الطفل ، من خلال التعود والتدريب . عملاً سارا ممتعا بالنسبة لها . ثم ينمو حبها لطفلها فتتسى الدوافع الخارجية السابقة .

وهنا يختلف بروتشى مرة ثانية مع ألبرت ، فيزعم أن هناك عدة دوافع اجتماعية أساسية . وهو لا يقبل ما زعمه ألبرت من أن حب الطفل لأمه إنما ينبع من رعايتها البدنية له ، ويؤمن ، بدلاً من ذلك ، أن له أساساً فطرياً . وهو يؤمن كذلك بأن هناك غريزة والدية . وأن هذه الدوافع الاجتماعية الفطرية قد يفسدها أو تقضى عليها بعض الخبرات عند شخص معين . ولذلك . فإن الحالات التي يذكرها ألبرت عن نسوة يكرهن أطفالهن قد نجد فيها خبرات سابقة من النبذ أو الكراهية . ويذكر بروتشى حالة امرأة كانت أمها ، وكذلك أبوها . يعاملانها معاملة وحشية . فنشأت المرأة وهي لا تهوى الأطفال ولا حتى الزواج لأنها كانت تخشى من أنها ستسوء معاملة أطفالها . كانت لديها الرغبة في أن تكون مصدراً للعطف والحنان بالنسبة لأطفالها ، ولكنها كانت محتبسة انفعالياً فلا تملك التعبير عن عواطفها . وفيما يختص بالدافع الأساسي إلى الحب ، يقول بروتشى إن الحب المبدئى نحو الأم يعبر عنه فيما بعد تجاه الزوجة والأطفال أو الأصدقاء . فالدافع كان دافعاً اجتماعياً فطرياً في أول الأمر ، ولكن أساليب التعبير عنه تغيرت بنمو الشخص ونشأته .

وأخيراً نسأل عن رأى ميللر في الدوافع الاجتماعية . يقدم لنا ميللر وجون دولارد أمثلة توضح كيفية تعلم الدوافع الاجتماعية على أساس من الدوافع المكتسبة والإثابات المكتسبة . مثال ذلك أن تعلق الطفل بأمه يتركز ، في نظرهما ، على أساس أنها هي التى تغذيه ، وتدفعه ، وتبعد عنه المثيرات المؤلمة ، وترعى دوافعه الأولية الأخرى . ويقول دولارد وميللر إن الأم تكون خلال السنة الأولى من الحياة مرتبطة بالإطعام في عدة آلاف من المناسبات . وهكذا تصبح الأم إثابة مكتسبة ، ويصبح حبها مشتقاً من الجوع ، والألم ، والدوافع الأولية الأخرى .

وبالإضافة إلى الحب ، يفسر دولارد وميللر الدوافع الاجتماعية من ميل إلى التجمع ، وحب الاجتماع بالناس ، واتكال على الآخرين ، واستحسان ، ومسايرة ، وتقليد ، وكبرياء ، وأمانة بوصفها أموراً متعلمة . وتتوقف قوة كل واحد من الدوافع المكتسبة على الظروف المحددة التي تم تعلمه فيها والتي قد تختلف باختلاف الأسرة ، والطبقة الاجتماعية ، والمجتمع . وبذلك يتمكن ميللر ودولارد من تفسير التفاوت الهائل الذي نجده بين الدوافع الاجتماعية . مثال ذلك أن المشاجرة أمر له قيمته بين أطفال الطبقة الدنيا ، بينما يستهجنه أطفال الطبقة الوسطى . وفي المجتمع الأمريكي نجد الميل إلى التنافس نوعاً سائداً مقبولاً من السلوك ، على حين أنه أمر مستهجن مستنكر في بعض الحضارات أو المجتمعات الأخرى .

لقد سبق أن رأينا أن الدليل على اكتساب الدوافع على أساس من الجوع دليل ضعيف . ولذلك ، فإنه من الصعب أن نرى كيف يمكن لهذه الدوافع الاجتماعية كلها أن تشتق بهذه الصورة . بل إن ميللر نفسه اقترح نظرية جديدة عن تصريف الدوافع في قنوات لكي تحل محل فكرة الدافع المكتسب في حالة الدوافع الإيجابية مثل الجوع . وسوف ندرس هذه الفكرة الجديدة فيما بعد .

الدليل على الدوافع الاجتماعية الفطرية

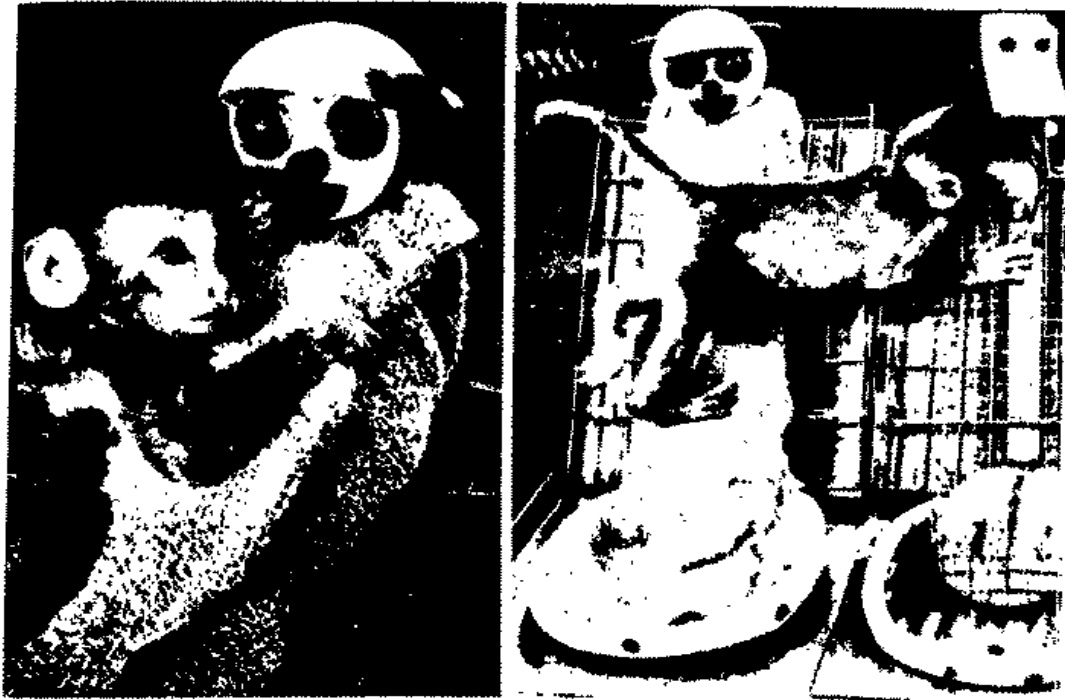
من السهل علينا أن نشهد ذلك التعلق الذي كنا نتحدث عنه بين الصغير والأم عند الإنسان وكثير غيره من الحيوانات الأخرى . فالأوزة الصغيرة تتبع الأوزة ، والقرد الصغير يتعلق ببطن أمه ، وطفل الإنسان يذفن وجهه في ثدي أمه . كذلك من السهل علينا أن نرى قوة تعلق الصغير بالموضوع الأم - بحيث أن الانفصال يؤدي إلى الخوف والذعر . ولكن الأمر أصعب من ذلك بكثير إن نحن أردنا أن نتبين إن كان الدافع من وراء هذا التعلق هو الجوع أو الحب . بل الواقع أنه من المستحيل أن نقرر هذا على أساس من الملاحظة الطبيعية وحدها .

ولذلك ، كان من الواجب أن نتحول إلى المنهج التجريبي لفصل به بين تأثير هذا وتأثير ذاك .

وهذا هو بالضبط ما تم القيام به في تجربة بالغة الأهمية أجراها هارى هارلو وأعوانه . فقد قرروا ، أثناء عملهم التجريبي العام مع القردة ، أن يقوموا بتربية بعض صغار القردة من غير أمهاتها بحيث يطعمونها من الزجاجات ويجعلونها تعيش وحدها في أقفاص فردية . ولكي يسهلوا على القردة الرضع حياتها في الأقفاص قاموا بتغطية أرض الأقفاص الصلبة بشيء من طبقات قماش المناشف ، وعندئذ تسنى لهم أن يشهدوا شيئاً طريفاً وهو أن القردة الرضع أخذت تتعلق وتتشبث بهذه الطبقات من القماش - كانت تتمسك بها وتغضب إذا انتزعت منها . وكان السلوك شبيهاً إلى حد ملحوظ بسلوك الطفل الصغير مع بطانيته أو لعبته التي « تمثل أمنه وطمأنينته » والتي لا بد له من أن يصحبها إلى سريره حين ينام . وبدا وكأن هناك حاجة مباشرة إلى « راحة التصاق » ليس لها اتصال بالتغذية .

ثم أراد هارلو وأعوانه أن يختبروا صحة هذه الملاحظة بطريقة تجريبية ، فقاموا بصنع اثنتين من الأمهات البديلات تبدو صورتها في الشكل رقم (١١) . أما الأولى فكانت تتألف من أسطوانة من شبك السلك المعدني بها فتحة لزجاجة الرضاعة في منتصف « الصدر » - وكانت تسمى هذه « بالأم السلك » . وأما الأخرى - وهي « الأم النسيج » - فكانت قطعة من الخشب لها نفس الشكل مغطاة بنسيج المناشف القطني . وكان يمكن كذلك أن توضع زجاجة الرضاعة في « الصدر » . ثم أضيف إلى كل واحدة من الأمين البديلتين وجه قرد بديع لم يكن له بالتجربة صلة .

أما في التجربة الرئيسية فقد وضعت القردة المولودة حديثاً في قفص يحتوى واحدة من الأمهات السلك وأخرى من القماش . وكانت التغذية تتم عن طريق الأم السلك بالنسبة لنصف المجموعة ، وعن طريق الأم القماش بالنسبة لنصف المجموعة الآخر . وكان السؤال الذي يتوقع التوصل إلى إجابة عنه هو : هل



شكل ١١ - قرد رضيع في قفص مع اثنتين من الأمهات البديلات . أحدهما مصنوعة من السلك والأخرى من النسيج . والرضيع ، وإن كان قد اعتاد تناول غذائه من الأم السلك ، إلا أنه يفضل أن يشبث بالأم النسيج .

(مأخوذ عن H. F. Harlow, Primate laboratory, University of Wisconsin. Photographs by Robert Sponholz).

سيكون لدى القردة الرضيع التعلق على أساس من التغذية أم على أساس من راحة الالتصاق؟ أما بحسب نظرية فرويد فإن التعلق ينبغى أن يتركز على الإشباع أو الاستمتاع الفمى المرتبط بالتغذية . وأما بحسب نظريات الاستقلال الوظيفي والدوافع المكتسبة ، فإن التعلق ينبغى أن يتركز على خفض الجوع المرتبط بالتغذية . بعبارة أخرى نقول: إن كل النظريات التى تتحدث عن دوافع اجتماعية مشتقة تنبأ فى مثل هذا الموقف بأن يتركز التعلق على خبرة الرضاعة .

لكن النتائج جاءت معارضة لذلك تماماً . فقد أنفقت القردة الصغار التى

كانت تتغذى من الأم النسيج كل الوقت تقريباً وهي متشبثة «بها» . دون أن تقضى شيئاً من الوقت مع الأم السلك . ومن الطبيعي أن هذه النتيجة كان يمكن التنبؤ بها على ضوء نظريات الدوافع المشتقة . ولكن تلك القردة التي كانت تتلق تغذيتها من الأمهات السلك قضت كذلك معظم أوقاتها فوق الأم النسيج . كانت تتسلق فوق الأمهات السلك لتغذى ثم تفر عائدة إلى الأم النسيج . لقد كان التعلق بالأم النسيج يحدث بصورة أسرع قليلاً عندما كانت التغذية مرتبطة بها . ولكن التعلق بالأم النسيج عند القردة التي كانت تتغذى من الأم السلك كان يصل إلى نفس الدرجة من القوة بعد أسابيع قليلة . صحيح أن الرضاعة قد توجه الاستجابة إلى راحة الالتصاق عند الأم النسيج بصورة أسرع قليلاً ، ولكن راحة الالتصاق هي ذاتها التي تشكل التعلق الأساسي بالأم البديلة . وهكذا نجد أن هذه الدراسات تؤيد القول بوجود دوافع اجتماعية فطرية ولا تؤيد النظريات التي تتحدث عن الدوافع الاجتماعية المشتقة .

والآن هل يمكن أن نسمى استجابة التعلق البسيطة هذه «بالحب» أو «المودة» ؟ إن من بين مانعنيه عادة عندما نتحدث عن حب الطفل لأمه ذلك الشعور بالأمن والحماية التي يجده معها . وقد ثبت وجود هذا الشعور عند القردة الرضع عن طريق تعريضها للمثيرات المخيفة ... غرفة مفتوحة غريبة من طبيعة أطفال القردة أن يجدها مفزعة ، أو لعبة في صورة عنكبوت جهنمي كبير . كانت القردة الصغار تهرع في هذه المواقف إلى الأم النسيج في فرح ، فتتعلق بها ، ثم تهدأ هدوءاً ظاهراً . حتى إذا استعادت طمأنينتها بدأت تستكشف في حذر ذلك المكان الغريب ، وهي تعود إلى قاعدتها من الأم النسيج بين الحين والحين . فمن منا لم يشهد ذلك عند الطفل الآدمي الذي يدخل بيتاً غريباً ؟ ولكن هذا الالتصاق المؤدى للطمأنينة لم تكن الأم السلك تزود القردة به ... حتى وإن كانت رضاعته قد قامت عليها . ومرة ثانية نجد هنا أن راحة الالتصاق بالجسم اللين المكتنز النسيجي ، لا المثير المرتبط بالتغذية ، هي التي تزود بالأمن والطمأنينة .

ثم نسأل هل يمكن أن ينشأ هذا التعلق بالأم النسيج في أى وقت من نشأة

القردة الصغار؟ الجواب يبدو أنه بالنفي . فلو أن القرد أتاحت له فرصة التعلق بالأم النسيج خلال فترة حرجة تبدأ من اليوم الثلاثين من العمر تقريباً وتمتد حتى اليوم التسعين ، لكان التعلق بها قوياً ، والشعور بالطمأنينة عميقاً . أما إن نشأ القرد الطفل في عزلة كاملة ، لمدة ستة أشهر تقريباً ، ثم أعطى الأم النسيج ، وجدنا تعلقاً جزئياً ينشأ لديه ، تعلقاً يتضعضع بسهولة عندما تتعرض القردة للخوف . كما أن هذه القردة التي تكون قد فاتتها الفترة الحرجة من التعلق كثيراً ما يظهر عليها السلوك « الاجترارى » عندما توضع في موقف غريب ومخيف . أعني أنها تظل تنجم وتترجع على وتيرة واحدة وبشكل ممل بدلاً من أن تمضى إلى الأم النسيج طلباً للطمأنينة .

وتظل هذه الآثار واضحة عدة سنوات ، كما أنها تؤثر في كل النمو الانفعالى عند القردة . ثم إن القردة التى تنشأ مع أمهات من السلك أو فى مجرد أقفاص من السلك يبدو عليها انعدام المودة ، ونقص فى القابلية للتعاون ، كما يبدو عليها العدوان المفرط ، والنقص الكامل فى الاستجابة الجنسية وذلك بالنسبة للقردة التى تنشأ فى ظروف سوية . على حين أن القردة التى تنشأ مع أمهات من النسيج يبدو عليها قدر أقل من العدوان ، وبعض القدر من الاستجابة الجنسية ، وإن كانت من نوع غير ناضج . ومن الواضح أنه على الرغم من أن الأمهات البديلات التى تكون من النسيج أفضل كثيراً من أمهات السلك ، إلا أن النمو الانفعالى يتحسن بدرجة أكبر كثيراً عن ذلك عندما ينشأ القرد مع أم حية حقيقية .

وقد وجد هارلو وأعوانه فى سلسلة حديثة من الدراسات ، أن خبرة مصاحبة القردة الصغار الآخرين قد تعوض إلى حد كبير عن غياب الأم الحقيقية . فقد سمح لعدد من القردة الرضع الذين ينشأون مع أمهات بديلات من النسيج بفترات يومية من التفاعل مع اثني عشر قرداً رضيعاً آخر فى غرفة لعب أشبه بالجمينيزيوم . وكان يبدو عليها اللعب السوى والنمو الجنسى السوى ، كما نشأت بينهم الروابط الودية . بل إنه ليتمكن لفرد من أفراد فصيلة حيوانية أخرى - كالإنسان على سبيل

المثال - أن يجد هذه القردة الرضع يجرء مما تمد الأم به من واستشارة لازمة للنمو
الوجداني السوى .

تري ما مدى قابلية هذه الدراسات الحيوانية للتطبيق على سلوك الإنسان ؟
الواقع أن هناك تطابقاً ملحوظاً فيها بين كثير من نتائج هارلو وبين دراسات
الأطفال الآدميين الذين حرموا من الأمومة السوية . فقد حدث منذ عدة سنوات
أن كتبت مارجاريت ريبيل Margaret Ribble تقريراً عن نحو ستمائة
طفل ، إما لم تكن لهم أمهات ، أو كانت لهم أمهات غير صالحات ، أو أنهم فقدوا
أمهاتهم . وأن هؤلاء الأطفال أصبحوا إما ميالين إلى الخُلقة ، أو الاكتئاب ، أو
الضعف الجسمي . كما أن بعضهم نشأت عندهم حالة تعرف بالضوى (أو الهزال
التدريجي) ، وفيها يظل الطفل يندوى ويذبل إلى أن يموت .

كذلك كتبت عدة تقارير عن هذه النتائج في عدد من الدراسات عن
الأطفال الذين وضعوا في ملاجئ الأيتام أو بيوت الإيداع . وقد كان الطعام
والرعاية الطبية مناسبين في معظم هذه الأماكن ، ولكن النقص في الأيدي العاملة
ترتب عليه أن الأطفال لا يتلقون شيئاً من الرعاية إلا للتغذية والتنظيف . وكان
كثير منهم يرقد ببساطة في أسرته لا يتلقون من الاستشارة المادية أو العاطفية إلا
القليل . أما الأطفال الذين لم يعرفوا لهم أمّاً خلال السنة الأولى من الحياة فقد بدا
عليهم الانسحاب والخلو من المشاعر العاطفية . وقد فقد كثير منهم بصفة نهائية
القدرة على أن ينشأ عنده التعلق بالناس . وأما الأطفال الذين عرفوا شيئاً من
الأمومة خلال السنة الأولى من الحياة ثم انفصلوا عن أمهاتهم ، فقد ظهرت
عليهم تغيرات عاطفية أكثر بروزاً . عندما انفصلوا عن أمهاتهم أول الأمر ، أصبح
هؤلاء الأطفال يملكهم القلق ويعمدون إلى البكاء ، ولكن هذه الاستجابة
تغيرت في آخر الأمر إلى الاكتئاب والبلادة . وأما الأطفال الرضع فيطراً عليهم
النحول وفقدان الوزن ويظهر عليهم التأخر العقلي واللغوي . فهم يحملون في
الفضاء ، وتظهر عليهم أعراض الاجترارية مثل التارجح الذي لا يتوقف ،
ولا يطبقون أن يحملهم أحد . كذلك يبدو عليهم أنهم قد فقدوا الاستجابة

الاجتماعية الأساسية ، وأنهم قد تحولوا إلى آلات لا تعرف العواطف . على أنه يحدث في بعض الأحيان أن يتمكن العلاج النفسى المكثف على يد شخص دافئ محب من أن يشد الطفل ليخرجه من انسحابيته .

وأما الأطفال الأكبر سناً الذين تربوا في هذا النوع غير العاطفى من المؤسسات فتكون لهم شخصيات من النوع المضطرب غير الاجتماعى . ولا تكون لهم إلا سيطرة قليلة على نوازعهم العدوانية ، كما تظهر عليهم صور متعددة من السلوك غير الناضج ، والجانح ، والمضاد للمجتمع . وهم لا يدخلون في روابط عاطفية وثيقة ، ويظلون على انسحابهم وانسلاخهم . بعبارة أخرى نقول : إن الأطفال الذين لا يتلقون المودة والحب خلال السنوات الحرجة الأولية لا ينشأ لديهم الدافع الاجتماعى الأساسى إلى الحب والمودة .

وقد استعرض . جون بولبى John Bowlby هذه الدراسات المتصلة بانفصال الطفل عن الأم من وجهة نظره المتأثرة بالتحليل النفسى ، فاستنتج منها أن تعلق الطفل بالأم أمرأولى وليس مشتقاً من أى دافع آخر . ويقول : إن العناصر التى يتكون منها هذا التعلق هى الميول الغريزية إلى الرضاعة ، وإلى البكاء فى طلبها ، والتشبث بها ، وتتبعها ، والبقاء إلى جوارها . كما أن انفصال الطفل عن الأم يؤدى فى نظره إلى ما يسميه هو « بالقلق الأولى » . وهذا القلق لا يتركز على الخوف من فقدان شخص تعلم الطفل أنه يحبه ويغذيه ، ولكنه قلق يقع ويحدث من قبل أن تقع هذه الخبرات ، قلق يمثل حاجة فطرية إلى الارتباط الاجتماعى .

إنه لا يزال هناك الكثير الكثير مما لا نعلمه بعد عن نشأة ونمو الروابط الودية . وإنه يبدو أن الاستشارة خلال فترة حرجة مبكرة أمر ضرورى لازم ، وإن كان الخلاف لا يزال قائماً حول طبيعة الاستشارة المطلوبة . وقد حاول بعض الكتاب تفسيرها ببساطة على أنها مسألة تعود إلى اللمس . ولكن هذا التفسير يبدو مفرطاً فى البساطة . ثم إنه قد تكون هناك اختلافات بين الفصائل الحيوانية . مثال ذلك أن ظاهرة الانطباع عند البط ، التى ذكرناها فى الفصل الأول ، تبدو أنها

صورة مشابهة للرابطة الاجتماعية الأولية . ولكنها تنبأ من الاتصال البشري والتتبع ، لا الاستثارة اللمسية . وفي الدراسات الحديثة التي قام بها هارلو نرى أن القردة الرضع تفضل الشكل الملفوف المستدير الذي يمكن الشفط به ، أو الأم البديلة المتأرجحة على اللوح المسطح المغطى بالنسيج والذي لا يمكن تحريكه . وعند الإنسان قد نجد أن القدرة على إخراج الأصوات لها من الأهمية ما للتدليل .

والآن نتجه إلى الجانب الآخر من العلاقة الاجتماعية الأولية فيها بين الطفل والوالدين - وخاصة الأم . مما لا شك فيه أن دافع الأمومة دافع قوى . فإن الأمهات من فصائل كثيرة تقاثل من أجل صغارها وتموت من أجلها أحياناً . ومع ذلك ، فإن هذا الدافع القوى لا يخدم غرضاً ديمويستازياً بالنسبة للأم ، بل وقد يعمل ضد بقائها واستمرار حياتها . ومن الطبيعي أنه يخدم تلك الوظيفة البيولوجية الهامة وهي بقاء الفصائل الحيوانية ، وإن كان يعمل بوصفه دافعاً اجتماعياً . أعني أن ما يستثيره لدى الأم هو وجود كائن عضوى آخر .

أفليس من الممكن أن يكون دافع الأمومة مجرد شيء ناتج عن رغبة - مرتكزة على أساس هورمونى - فى الإرضاع ؟ ويكون هذا شبيهاً بالنظريات التى تفسر حب الطفل لأمه على أساس الرضاعة - وبحيث تصبح عملية الرضاعة من ناحية ، وعملية الإرضاع من الناحية الأخرى هما اللذان يفسران حب هذا لذلك وحب ذلك لهذا . الواقع أن الرضاعة هامة ولكنها ليست كل شيء .

أما فى الحيوانات العليا ، فالظاهر أن الخبرات الانفعالية المبكرة للأم لها أهمية جوهرية فى تحديد سلوك الأمومة لديها . فقد تسنى لعدد من القردة التى رباهها هارلو فى دراساته من غير أم حقيقية أن تصبح هى نفسها أمهات فيما بعد . والعادة أن القردة الأم السوية بمجرد أن يولد صغيرها تراها تتناوله وتحضنه وترضعه ، كما يكون من الصعوبة بمكان أن تنتزع الرضيع من أمه عندئذ - ويقول هارلو إنك تكون فى حاجة إلى فريق بأسره من الرجال حتى تنتزع الرضيع من أمه . أما الأمهات القردة التى لم تعرف لها أمماً ، فإنها ، على خلاف سلوك الأمومة

القوى هذا . يظهر عندها الخلو التام من الاهتمام بالخلفة ، فهي تتجاهلها ، وتنفر من محاولتها الالتصاق بها ، بل وقد تعتدى عليها وتهاجمها . ويقرر هارلو أن معظم هؤلاء الرضع ماكانت لتعيش لولا أن القائمين على رعايتها من الحراس الآدميين كانوا يطعمونها بأيديهم .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن هؤلاء الأمهات غير الكفوآت كن سلّمات من الناحية الهرمونية وقادرات على الإرضاع . أضف إلى ذلك أن كل عناصر المثير كانت موجودة - بل إنه لوحظ أن الرضع كانت تقوم بمحاولات يائسة للالتصاق بالأمهات حتى بعد أن يتكرر ضربها لها . فكأن العامل الحاسم ، إذن ، كان هو الخبرة الاجتماعية للأم ذاتها خلال السنة الأولى من حياتها أو نحو ذلك . والظاهر أيضاً أن درجة الخبرة الاجتماعية ذات أهمية أيضاً . فإن القردة الرضع التي تربت على أمهات بديلات والتي سمح لها بالالتصاق بغيرها من القردة الرضع أو أفراد الإنسان قد أظهرت سلوك أمومة سليم . كذلك نجد أن خبرة الأم بالرضيع الأول قد تستثير في الأم بعض دافع المحبة ، وإن كان هذا الدافع لا يظهر بصورة مباشرة . فإن اثنتين من هذه الأمهات غير الكفوآت قد أُتيح لها أن تنجب طفلاً رضيعاً ثانياً وهما تظهران نحوه سلوك الأمومة . بل الواقع أن سلوك الأمومة لدى هاتين القردتين يبدو مبالغاً فيه ، وأنها تفرطان في حماية الرضيع فلا تسمحان للرضع بالتخلي عن الالتصاق الجسدى بهما إلا بعد فترة زمنية أطول مما تفعل الأمهات السويات .

كذلك نجد أن شعور الأمومة عند المرأة يتوقف على ماكانت قد حصلت من خبرات انفعالية في طفولتها . فإن الملاحظات الإكلينيكية على المستوى الآدمى تؤيد نتائج هارلو من أن الأمهات اللاتي تتعرضن هن أنفسهن للحرمان العاطفى كثيراً مايجدن صعوبة في التعامل مع أطفالهن . وبنفس الصورة قد تكون الأمهات المفرطات في الحماية تبحثن عن الحب أو تنشدهن لدى أطفالهن ، ولذلك فإنهن بذلك يقفن حائلاً بينهم وبين أن تنشأ عندهم عادة الاستقلال .

نشأة الدوافع الاجتماعية

حتى وإن سلمنا بالفكرة القائلة بأن هناك دافعاً أساسياً فطرياً اجتماعياً ينشأ خلال فترة مبكرة حرجة من الخبرة بعلاقة مودة . سوف نجد أنفسنا لا نزال عاجزين عن تفسير الدوافع الاجتماعية المعقدة . من الممكن أن يكون كثير من الدوافع الاجتماعية العامة - الميل إلى التجمع ، الصداقة ، العضوية في الجماعة - عبارة عن مجرد امتدادات للرابطة الأساسية بين الطفل وأمه . والظاهر . كما سبق أن رأينا ، أن هناك شيئاً قريباً من هذا له أهميته في نشأة دافع الأمومة . ومع ذلك ، فإن الروابط المبكرة تظل هي الأقوى . كما أن تعميم الروابط الودية لا يسير عشوائياً بدون قواعد . فالناس تشعر بأنها أشد قرباً من أعضاء الأسرة . وأنها أكثر قرباً من مجموعتها الحضارية الفرعية منهم إلى غيرها ، وأكثر قرباً إلى مواطنيهم منهم إلى غيرهم . ولسوء الحظ أنك لا تجد إلا قلة غير عادية من الناس يشعرون حقاً بالرابطة الوثيقة بينهم وبين البشرية عامة وكل معاناة البشر .

وقد قيل : إن هناك ثلاثة ميكانيزمات تفسر نشأة الدوافع الاجتماعية ، وأنها في جوهرها متشابهة . أما الأول فهو فكرة فرويد عن الشحنة النفسية . فقد افترض فرويد ضمن نظريته عن الليبيدو الجنسي ، أن قدرماً معيناً من الطاقة الليبيدية ترتبط بأى شيء يكون مشبعاً للرضيع . أما في أول الأمر فإن هذا الشيء يكون ثدى الأم ، وأما في آخر الأمر فإنه يكون الأم بأكملها وبوصفها شخصاً كاملاً . ثم إن هذا الارتباط يمكن أن يمتد بعد ذلك إلى الناس الآخرين القادرين على إشباع الدوافع الجنسية للطفل . وأما الميكانيزم الثاني فإنه النظرية الجديدة التي أوردها نيل ميلر عن التصريف المتعلم للدوافع في قنوات ، والتي أنشأها ليكمل بها نظرية الدوافع المكتسبة التي ذكرناها من قبل . ذلك أن ميلر يبين أن كل الناس يكون لديهم عند الولادة دافع للجوع غير متميز ، ولكنه تنشأ لديهم بعد ذلك تفضيلات مذاقية معينة وكراهيات محدودة تتوقف على التعلم الاجتماعي . ولذلك قد يتعلم أحدهم أن يستطيع أكل الحار . ولكن هذا الاستلطاف ليس دافعاً مكتسباً بعيداً عن دافع الجوع ، بسبب أن الحار يؤدي إلى خفض دافع الجوع .

ولذلك، فإن ميلر يشكك في أن أى فريق من الناس يمكن أن ينشأ لديهم استجابة لمذاق نشارة المنشب. أى أن الجوع أمر متضمن على الدوام. فليس هناك دافع آخر يشتبك بدافع الجوع، وكل ما هناك أن دافع الجوع ينصرف في قنوات معينة. وأما الفكرة الثالثة وهى التقنيّة^(١)، فإنها تكاد تتطابق مع فكرة فرويد عن الشحنة النفسية. وقد أكد جاردنر مورفى Gardner Murphy هذا المفهوم، ولو أنه يرجع الفضل في هذا المصطلح إلى طبيب الأمراض العقلية الفرنسى بيير جانيه Pierre Janet ويقول: إن الفكرة قديمة جداً في حقيقة الأمر. كذلك يورد مورفى الأمثلة عن اكتساب تفضيلات الطعام كما يفعل ميلر، ولكنه يضيف أمثلة عن نشأة التفضيلات الجمالية.

ولو أننا سلمنا بالدليل الذى تتضمنه الفقرات السابقة والذى يوحى بوجود دافع اجتماعى فطرى، لوجدنا أن الأفكار الثلاثة: الشحنة النفسية، ثم التصريف في قنوات، ثم التقنيّة يمكن أن تقدم لنا تفسيراً ممتازاً لنشأة الحب، والمودة، والشعور الاجتماعى. ذلك أن الطفل يولد ولديه دافع غير محدد لتحصيل بعض الخبرات الحسية الانفعالية المعينة التى لا يمكن توفيرها توفيراً كاملاً إلا عن طريق إقامة علاقة اجتماعية مع شخص آخر. وبالنسبة للقرود الطفل نجد أن قروداً طفلاً آخر أقدر على توفير هذه الخبرات من أم بديلة صنعت بعناية. ثم إنه بدون الخبرة الحسية الانفعالية اللازمة أثناء الفترة الحرجة المبكرة، قد لا يتم تقنيّة هذا الدافع الاجتماعى الأساسى تجاه الخارج. وليس هناك من يعرف إن كان هذا الدافع يحتقن ببساطة، أم أنه يتجه إلى الداخل فيؤدى بذلك إلى ظهور الطفل المنسحب الاجترارى. على أن الأم تتولى في الظروف العادية تزويد الطفل بهذه الخبرات الحسية الانفعالية، بحيث أن الدافع الاجتماعى الأول يتقنّى تجاهها. ثم إذا كبر الطفل، وجدنا قدراً أكبر وأكبر من هذه الخبرات الحسية الانفعالية تقوم بتقنيّة الدافع الاجتماعى تجاهها، وأمكنتنا عندئذ أن نقول إن الرابطة الودية قد قامت بين الطفل وأمه.

(١) التقنيّة Canalization هى إقامة قنوات جديدة لتوجيه سلوك ما إلى الإنطلاق خلالها (المترجم).

وأما نشأة روابط المحبة الأوسع - مع الأب . ورفاق اللعب . وانجتماعه بوصفها وحدة كاملة - فيمكن أن تتحقق بعد أن تضيف الخبرات الحسية العاطفية بالناس الآخرين قنوات جديدة للدافع الاجتماعى . ومع ذلك . فلا بد من أن يركز إقامة القنوات الجديدة على أساس من إشباع الدافع الاجتماعى الأساسى - أى أنها ليست مجرد تعميم للحب من الأم إلى الآخرين . فلو أن الأب ، على سبيل المثال ، لم يكن محبا ، حتى إلى حد أنه يرفض الطفل . لم نجد رابطة محبة تنشأ بينهما .

على أن النمو الاجتماعى للطفل لا بد وأن يتأثراً كبيراً بنوع القنوات التى ينصرف إليها الدافع الاجتماعى الأساسى . مثال ذلك أن الدراسات الحديثة التى أجراها آلبرت باندورا Albert Bandura توضح أن الطفل يميل إلى أن يتوحد مع ، أو ينسج سلوكه على منوال ، هؤلاء الناس الذين أظهروا الحب له . بحيث إن الولد الصغير الذى يكون أبوه تابلاً ، قد يجد صعوبة فى تقليد سمات الذكور . أما إن كانت هناك ، على خلاف ذلك . رابطة حب قوية بين الأب والابن ، جاز أن يعتمد الأب إلى التهديد بسحب حبه ، أو أن يلوح بشيء يسير من عدم الرضا حتى يتمكن من توجيه سلوك الابن . وهكذا يستطيع الأب أن يشكل ميول ولده ، وهواياته ، ونشاطه الرياضى ، واختياره المهنى ، واختياره لأصدقائه ، وكثيراً من جوانب السلوك الاجتماعى الأخرى .

ثم تتسع عملية التفتية فيما بعد حتى نجد طفل المدرسة قد أخذ يتأثر بالقيم السائدة بين رفاق اللعب ، والطالب فى الكلية قد أخذ يتأثر بتوقعات زملائه فى الجمعيات الجامعية التى يشترك فيها ، والراشد الكبير يتأثر لعضويته فى طبقة اجتماعية معينة ، أو جماعة عنصرية خاصة ، أو حزب سياسى ، أو تنظيم دينى ، أو رابطة مهنية ، أو بيئة اجتماعية . وقد درس أصحاب علم الاجتماع والأنثروبولوجيا أنظمة القيم فى الجماعات والحضارات المختلفة حتى أصبحنا نعرف شيئاً عن نوع السلوك المتوقع . ولكننا إن أردنا أن نعرف عن فرد معين كيف

سيسلك فعلاً في موقف معين ، كان لابد من معرفة تاريخ تقنيات الدافع الاجتماعي الأساسي عنده .

الدافعية الاجتماعية والذات

الصورة لاتزال ناقصة . ذلك أن الطفل يظل يتأثر بتوقعات الوالدين حتى وإن كانا غير موجودين من حوله ليستحسننا أو ليستهجنا . والكبار قد يظل عندهم سلوك معين من بعد أن يكون الوالدان قد ماتا بزمان طويل . ذلك أن الدوافع الاجتماعية ذات مسحة شخصية ، بمعنى أن الشخص يشعر وكأن هذه الدوافع صادرة من داخله هو ، أعني أن هناك عملية استدخال تقع . فالدوافع تكون عادة متصلة بالشخص نفسه : « أنا أريد استحقاق جماعتي » ، « أنا في حاجة إلى الإنجاز » ، أو « أنا أشعر بالحقارة لو أنني فعلت هذا العمل أو ذاك . »

وقد رأى ألبرت ، حتى يزيد من نفع مفهوم الاستقلال الوظيفي عنده ، أن الأنشطة التي « تكتسب صبغة شخصية » ، أو « تتعلق بالذات » هي وحدها التي تميل إلى البقاء . وقد أظهرت تجارب عدة أن أفراد الإنسان يتحسن أداؤهم في الأعمال إن كانت هذه الأعمال متعلقة بذواتهم . مثال ذلك أنه لو كانت التعليمات تقتصر على أن الباحثين القائمين على التجربة يريدون أن يجربوا بعض الاختبارات الجديدة ، وجدنا المفحوصين يميلون إلى التكاسل والخمول . وأما إن كانت التعليمات تنص على أن العمل يقيس الذكاء ، والشخصية ، والنضج ، أو شيئاً آخر مهماً بالنسبة للمفحوص ، وجدناهم ينشطون ويجدون . أي أن العمل أصبح « متعلقاً بذواتهم » وأصبح له معنى خاص شخصي بالنسبة لهم .

وقد استحدثت عدة تعبيرات لتفسير هذا العامل الداخلي الذي تبدو له أهمية كبيرة في الدافعية الاجتماعية . أما المصطلح « الأنا » فإنه شائع . ولكنني أفضل مصطلح « الذات » لأنه أكثر شيوعاً عند المشتغلين بعلم النفس والعلوم الاجتماعية من أصحاب الاتجاهات النظرية المختلفة . ومع ذلك ، فليس كل المشتغلين بعلم النفس متفقين على أن مصطلحاً مثل الذات ضروري . بل الواقع أن بعضهم يرفض

هذا المصطلح على أساس أن الذات أمر لا يمكن ملاحظته ملاحظة مباشرة . وإنما هي أمر يتم الاستدلال عليه . لكننى ، مع ذلك ، أرى أن مفهوم الذات ، أو شيئاً شبيهاً به ، أمر جوهري لفهم الدوافع الاجتماعية .

وقد سبق لأصحاب نظرية التحليل النفسى ، بصفة خاصة ، أن أكدوا أن الرضيع فى أول الأمر قد لا يستطيع أن يميز بين نفسه وبقية العالم ، بين جسمه وجسم أمه ، بين الخيال والواقع . ثم يتكون المفهوم لديه ببطء ، عن طريق التفاعل مع البيئة المادية إلى درجة ما وعن طريق التفاعل الاجتماعى ، وهذا هو الأهم . ويقول هارى س . سليفان Harry S. Sullivan ، وهو أحد أصحاب نظريات التحليل النفسى الحضاريين ، إن الذات تنشأ عن انعكاس تقديرات الأشخاص المهمين فى البيئة الاجتماعية . فإن كانت الأم دافئة محبة أخذ الطفل يفكر فى نفسه تفكيراً إيجابياً (أنا الطيب بتعبير سليفان The Good ME) . وأما إن كانت غاضبة أو رافضة نابذة فإن الطفل يشعر بالقلق ويفكر فى نفسه تفكيراً سلبياً (أنا السىء The Bad me) . وهذا يوحى بأن مفهوم الذات يعتمد إلى حد كبير على الدافع الاجتماعى الأساسى إلى الحب ، ذلك الدافع الذى ناقشناه من قبل .

إننا نستمع إلى تقديرات على الدوام من هذا النوع أو ذاك طوال حياتنا . «حمادة شقى» ، «هذا ولد طيب» ، «هو ولد شاطر» ، وهكذا . وفى بعض الأحيان لا يسمع الطفل هذه التقديرات ، وإنما تراه يشعر بها عندما لا تقول الأم شيئاً ، وتكتفى بإظهار التقزز من أنه يلوث الطعام أو يعبث بأعضائه التناسلية . ولما كان حب الأم ، وحب الآخرين أمراً شديداً الأهمية للطفل تراه لا يقتصر فقط على تعلم ما يفعل وما لا يفعل حتى يكتسب رضاها ويتجنب سخطها ، وإنما تراه كذلك يكتسب مفهومه عن نفسه ومفهومه عما ينبغى له أن يكون عليه على نفس هذا الأساس . فهو فى أول الأمر يكون مطيعاً ، مثلاً ، لأن ذلك يرضى أمه ، ولكنه من بعد ذلك يطيع لأن جزءاً من مفهومه عن نفسه أنه إنسان مطيع . فى

أول الأمر يؤدي العصيان إلى خوف الطفل من أن يفقد حب أمه . ولكن الطفل فيما بعد ، حتى وهو بعيد كل البعد عن أمه ، يثور عنده القلق بسبب العصيان ، لأن العصيان لا يتسق مع فكرته عن نفسه من أنه ولد مطيع . أى أن تقدير الطفل لنفسه ، أو توقيره لذاته ، ينبع من علاقات المحبة المبكرة لديه ، ويتحول فيما بعد إلى قوة دافعة شديدة .

على أن الناس تتفاوت تفاوتاً هائلاً في مدى توقيرهم لأنفسهم . من الناس من ينشأ وهو يرى نفسه طيباً في أساسه جديراً بالاحترام ، ومنهم من يرى نفسه غير كفء . ثم إن معظم الناس تحرص على أن يظل توقيرها لذاتها على أعلى مستوى ممكن . فإننا نتجنب الناس الذين « يتهددوننا » ، أعني هؤلاء الناس الذين يميلون إلى أن يسيبوا انخفاض توقيرنا لأنفسنا . بل إننا قد نتذكر التعليقات المتعلقة التي نحصل عليها بسبب أعمالنا الدراسية أكثر مما نتذكر التعليقات السلبية . وقد فسر أرنست هلجارد كثيراً من الميكانيزمات الدفاعية المشهورة التي تحدث عنها فرويد بوصفها وسائل للاحتفاظ بتوقير المرء لنفسه عن طريق خداعه لذاته . مثال ذلك أننا قد نعمد إلى تبرير السلوك العدواني بقولنا إننا إنما نحتج على الظلم الاجتماعي .

كذلك أمكن إثبات أهمية توفير الذات بالوسائل التجريبية . من ذلك على سبيل المثال ، أننا درسنا في إحدى التجارب مستوى التطلع عند المراهقين من أصحاب التوافق الحسن وأصحاب التوافق السيء . وكان العمل عبارة عن عملية مضاهاة بسيطة لرموز الاختزال مع حروف الألفباء . وكان المفحوصون يسألون في نهاية كل محاولة أن يقدروا المستوى الذي يرون أن أداءهم سيصل إليه في المحاولة التالية - وتقديرهم هذا هو « مستوى التطلع عندهم » . والمعروف بصفة عامة أن الناس في هذا النوع من المواقف يميلون إلى أن يقدروا أهدافهم في المحاولة التالية بحيث تكون أعلى قليلاً من التقدير الذي حصلوا عليه حديثاً في محاولتهم الأخيرة . إن معظم الطلاب من أصحاب التوافق الحسن كانوا كذلك . وأما المراهقون من أصحاب التوافق السيء فقد أظهروا نوعين منحرفين من التقدير

للأهداف - كانوا إما أن ينقصوا من تقديرهم للنجاح في المحاولة التالية . أو أن يضعوا لأنفسهم أهدافاً مفرطة في الارتفاع إلى حد غير واقعي . بعبارة أخرى . نقول : إن الخوف من الفشل كان كبيراً إلى درجة أنهم هبطوا بمستوى التطلع عندهم حتى يمكنهم أن يضمنوا النجاح ، أو أنهم كانوا يعرضون عن مشاعر القصور عندهم بأن يضعوا مستويات لم يكن لديهم أمل كبير في بلوغها . أى أن هؤلاء المراهقين من أصحاب التوافق السيء كانوا فيما يظهر يحاولون مستميتين أن يحفظوا على أنفسهم توقييرهم المهتر الضعيف لأنفسهم .

ولذلك ، فإننا نرى أن الرغبة في الاحتفاظ بالتقدير الإيجابي للذات تعمل بوصفها دافعاً قوياً . وأن هذه الرغبة مشتبكة بكثير من الدوافع الاجتماعية التي سوف نناقشها فيما بعد . وهي تساعدنا على أن نفهم السبب في أن بعض الناس تراهم يتحملون المشاق الجسيمة ، والجوع ، والألم بسبب ما عندهم من اعتزاز بالذات . ومن المهم أن نذكر أن مفهوم الذات إنما ينشأ عن العلاقات الأسرية الهامة في الطفولة ، وأنه على الأرجح يتأثر تأثراً أولياً بذلك الدافع الأساسي إلى العلاقات الاجتماعية الذي ناقشناه فيما سلف . وهكذا نجد أنك إذا هددت توقيير الرجل لذاته فإنما تهدد توقعاته بأنه إنسان له قيمته ، جدير بأن يُحَب ، وبأن يعنى به في أوقات الشدة ، وبأنه يشغل مكانة آمنة كريمة في المجتمع الذي يتألف من إخوانه من الناس .

الدوافع الاجتماعية وهي تؤدى عملها

إذا كان الأصل الذى تنشأ عنه الدوافع الاجتماعية لا يزال موضع خلاف نظرى ودراسات غير قاطعة ، فإن الاتفاق يكاد يكون تاماً على أهمية الدوافع الاجتماعية فى سلوك الإنسان . ذلك أن الدوافع الاجتماعية ، سواء أكانت فطرية أم متعلمة ، أم فطرية ومتعلمة ، تسيطر على معظم سلوكنا العادى اليومى . وفى هذا الفصل الثامن سوف يدور اهتمامنا بصفة أولية على الدوافع وهي تؤثر فى السلوك . وعلى الرغم من أننا سندرس الظروف الاجتماعية التى تنشأ فيها هذه الدوافع ، إلا أننا لن نهتم بالسؤال عما إذا كانت فطرية أم مكتسبة .

ونبدأ فنسأل : ماهى هذه الدوافع الاجتماعية ؟ لقد قدم المفكرون والباحثون عدة قوائم لها ، كما أن من الممكن تقديم عدة قوائم أخرى . ولعل من أكثر القوائم تأثيراً تلك القائمة التى قدمها هنرى ا . موراي عن « الحاجات نفسية المنشأ » . والحاجات نفسية المنشأ ، أو الدوافع الاجتماعية على حد تعبيرنا ، لم يتم التوصل إليها تعسفاً . وإنما تمت دراسة عدد صغير من الناس الأسوياء دراسة مكثفة أشد التكثيف باستخدام المقابلات ، والاستخبارات ، وبعض الاختبارات النفسية التى صممت بصفة خاصة لذلك . ومن بين هذه الاختبارات نجد اختبار تفهم الموضوع الذى يستخدم الآن استخداماً واسعاً كأداة لدراسة الشخصية . واختبار تفهم الموضوع يتألف من سلسلة من الصور للناس فى مواقف مختلفة . ويطلب إلى المفحوص أن يستخدم خياله ويكتب قصة عن كل صورة . ثم يمكن استنتاج الدوافع الاجتماعية من القصص المتخيلة ومراجعتها بالأدلة الأخرى . وعلى أساس من هذا النوع من التحليل المكثف لأناس أحياء فعلاً ، تمكن موراي من

تقديم قائمة مبدئية من عشرين دافعاً اجتماعياً . وهذه نيجدها موضحة في الجدول رقم (١) ومعها تعريفات مختصرة .

الجدول رقم (١) قائمة الدوافع الاجتماعية عند موراي

الدافع الاجتماعي	تعريف مختصر له
الانتضاع Abasement	أن يخضع المرء في سلبية إلى قوة خارجية . أن يتقبل الإصابة أو اللوم ، أو النقد ، أو العقاب . أن يستسلم . أن يستكين لقضائه . أن يعترف بالدونية ، أو بالخطأ ، أو بأنه لم يحسن صنعا ، أو بالهزيمة . أن يعترف ويكفر . أن يلوم نفسه ، أو يقلل من شأنها أو يشوه نفسه - أن يسعى إلى الألم ويستمتع به ، أو بالعقوبة ، أو بالمرض ، أو بالمكروه .
الإنجاز Achievement	أن يحقق شيئا صعباً . أن يتمكن من ، أو يسيطر على ، أو ينظم أشياء مادية ، أو بعض أفراد الإنسان ، أو الأفكار . أن يقوم بهذا بأكبر سرعة ممكنة أو بأكبر قدر ممكن من الاستقلال . أن يتغلب على العقبات ويبلغ مستوى مرتفعاً . أن يتفوق المرء على نفسه . أن ينافس الآخرين وينبذهم . أن يرفع المرء من اعتباره لنفسه بأن ينجح في ممارسة بعض المواهب .
الانتماء Affiliation	أن يجذب المرء إلى شخص آخر وأن يستمتع بالتعاون معه أو بالتبادل معه (ويكون هذا الشخص الآخر شبيهاً بالمرء أو محباً له) . أن يدخل السرور ويتودد إلى شيء محبوب . أن يتمسك بصديق ويظل مخلصاً له .
العدوان Aggression	أن يتغلب على مقاومة بالقوة أو العنف . أن يقاتل . أن ينتقم للإصابة أو ضرر . أن يهاجم ، يصيب ، أو يقتل شخصاً آخر . أن يقاوم شخصاً آخر بعنف أو أن يعاقبه .
الاستقلال Autonomy	أن يتحرر المرء ، أن ينفذ عن نفسه القيود ، أن يخلص من الأسر أو الحبس . أن يقاوم القهر والتقييد . أن يتجنب أو يتخلى عن الأنشطة

العمل المضاد Counteraction	التي تملأها السلطات المسيطرة . أن يكون المرء مستقلاً وحراً حتى يسلك وفق هواه . أن يكون غير مرتبط . غير مسئول . أن يتحدى الأعراف . الاقتدار أو التعويض عن الفشل بإعادة السعى أو المحاولة . أن يحاول المرء إزالة الإغانة باستئناف التصرف . التغلب على الضعف . وكبت الخوف . مسح الإهانة بالعمل . البحث عن عقبات وصعوبات من أجل التغلب عليها . أن يحتفظ المرء باحترامه لذاته وبكبريائه على مستوى عال .
الدفاع Defendance	الدفاع عن الذات ضد الهجوم والنقد واللوم . أن يخفى المرء أو يبرر فعله سيئة . أو فشلاً ، أو إهانة . الدفاع عن الأنا .
الإحترام Deference	الإعجاب بأحد الرؤساء وتأييده . أن تمتدح أو تكرم أو تؤين . أن تستلم عن طيب خاطر ورضى لتأثير شخص أنت مرتبط به . أن تناسى بنموذج وتحتذيه . أن تسير التقاليد .
السيطرة Dominance	أن تسيطر وتتحكم في يمشك الإنسانية . أن تؤثر في سلوك الآخرين أو توجهه عن طريق الإيحاء ، أو الإغراء ، أو الإقناع . أو إصدار الأوامر . أن تثنى الشخص عن شيء أو تقيده أو تمنعه من شيء . أن تترك انطباعاً . أن يراك الآخرون ويسمعوك . أن تستثير الآخرين أو تروعهم أو تدهشهم أو تخلب ألبابهم أو تسليهم أو تصدمهم أو تغريهم .
العرض Exhibition	أن تتجنب الألم ، أو إصابة البدن ، أو المرض أو الموت ، أن تهرب من موقف خطير . أن تتخذ الإجراءات الاحتياطية .
تجنب الأذى Harmavoidance	أن يتجنب الإهانة . أن يغادر المواقف المخرجة أو يتجنب الظروف التي قد تؤدي إلى التحقير أو السخرية أو الاستهزاء أو عدم اكتراث الآخرين . أن يمتنع المرء عن التصرف بسبب الخوف من الفشل .
تجنب الدونية Infavoidance	أن تقدم التعاطف وتشبع حاجات شيء عاجز : رضيع أو أي شيء يكون ضعيفاً ، عاجزاً ، متعباً ، غير محارب ، مشوهاً ، أو مغلوباً على أمره ، مهيناً ، وحيداً ، منبوذاً ، مريضاً ، محتلاً عقلياً . أن تقدم المساعدة لمن كان في خطر . أن تغذى ، أو تساعد ، أو تعضد ، أو تسرى عن ، أو تحمي ، أو تواسي ، أو تمرض ، أو تبرى .
الحنو Nurturance	

التنظيم	أن ترتب الأشياء . أن تحقق النظافة ، أو النظام ، أو الاتزان ، أو الاتفاق . أو الترتيب ، أو الدقة .
Order	
اللعب	أن تتصرف بقصد « اللهو » من غير قصد آخر . أن تميل إلى الضحك وإطلاق النكت . أن تسعى إلى الاسترخاء الممتع بعد الإجهاد . أن تشترك في الألعاب ، أو الرياضة ، أو الرقص ، أو حفلات الترفيه أو لعب الورق .
Play	
الرفض أو النبذ	أن تفضل نفسك عن شيء غير مرغوب فيه أو منفر . أن تستبعد أو تتخلى عن ، أو تلفظ ، أو لا تكثر بشيء وضع . أن تتعالى على شيء أو تهجره .
Rejection	
الحسية	أن تسعى إلى الانطباعات الحسية وتستمتع بها .
Sentience	
الجنس	أن تنشئ علاقة عشق وتمضي فيها . أن تمارس المباشرة الجنسية .
Sex	
طلب المساعدة	أن تجد لحاجاتك شخصاً متفاهماً يعينك على إشباعها . أن تجد من يمرضك ، أو يعضدك ، أو يسندك ، أو يكتنقك ، أو يحملك ، أو يحبك ، أو ينصح لك ، أو يوجهك ، أو يتسامح معك ، أو يعزبك ويسريك . أن تظل قريباً من شخص مخلص يحملك . أن تجد لنفسك سنداً دائماً .
Succorance	
الفهم	أن توجه الأسئلة العامة أو تجيب عنها . أن يكون لك اهتمام بالنظريات .
Understanding	أن تتأمل ، أو أن تصوغ صياغة نظرية . أو أن تحلل . أو أن تتوصل إلى التعميمات القائمة .

(مأخوذة عن : C. S. Hall and G. Lindzey. Theories of personality. New York: wiley, 1957) .

ولو أنك تفحصت قائمة موراى بعناية وجعلت تطبقها على أصدقائك ونفسك ، لوجدت أنها بمثابة وصف حساس إلى درجة فائقة لأنماط الدوافع في الحياة العادية اليومية . تخيل أنك خرجت من أحد الامتحانات الصعبة ، وأنت وزملاءك جعلتم تسترجعون الخبرة وتحللونها . سوف تجد أن بعض الزملاء يهاجمون الأستاذ على أنه وضع امتحاناً صعباً غير عادل (العدوان) . وأن نفرأ آخر منهم اتخذوا من الدرجة مؤشراً على قصورهم وعجزهم (الانقضاء) . وأن آخرين عزموا ببساطة على أن يعملوا

يجد أكثر في المستقبل (العمل المضاد Counteraction) . بينما يرفض بعض الآخريين أن يعترفوا بالدرجة أو قد تجدهم يكذبون بشأنها (الدافع) . أو قد يتخلى بعض الطلاب عن هذا المقرر (تجنب الدونية) . وفي مثل هذا الموقف . قد يقدم بعض الطلاب بضع كلمات قليلة من التعاطف والتشجيع (الحنو) لآخريين يبدو أنهم في حاجة ماسة إليها (طلب المساعدة) . وبالطبع سوف ترد إلى الذهن أمثلة أخرى عديدة .

قد يكون من الممكن عند هذه النقطة أن نناقش كل واحد من هذه الدوافع الاجتماعية قليلاً . ولكننا بهذا لن نوفى أى دافع من هذه الدوافع حقها . ولذلك ، فإننا سوف نتخير اثنين من هذه الدوافع لنناقشها بشيء من التفصيل . وهذان الدافعان - الإنجاز والانتماء - لم يقتصر الأمر على أنهما قد درسا دراسة أكثر تفصيلاً من الدوافع الأخرى ، وإنما نجد لهما أهمية خاصة متميزة . ومع ذلك ، وعلى الرغم من أن هذا الفصل سيكون أكثر تشبّعاً بهذين الدافعين وهما الإنجاز والانتماء ، لا بد لنا من أن نلتفت إلى أن هذين الدافعين يمثلان على الأقل عدة دوافع كثيرة . وسوف تتمكن في المستقبل من استكشاف بقية الدوافع الأخرى بنفس الصورة والتفصيل .

الدافع إلى الإنجاز

كان دافيد ماكليلاند وأعوانه أكثر من توسعوا في دراسة الدافع إلى الإنجاز . كما كانت طريقة البحث في الدافع إلى الإنجاز امتداداً لمنهج موراى في اختبار تفهم الموضوع . في العادة تعرض أربع بطاقات لاختبار تفهم الموضوع بجهاز العرض على شاشة أمام المفحوصين ، ثم يطلب إليهم أن يكتبوا قصة في خمس دقائق مسترشدين بعدة أسئلة . والصورة إما أن تختار أو أن تصنع خصيصاً لتوحى بأفكار الإنجاز . وبعد ذلك تقدر القصص ويتم تقويمها بحسب مضمون الإنجاز فيها .

وقد عرف ماكليلاند الإنجاز بأنه الأداء في ضوء مستوى الامتياز أو مجرد

الرغبة في النجاح . وعند تقدير الدافع إلى الإنجاز تتم قراءة كل قصة ثم يتخذ قرار عام حول وجود أو عدم وجود خيال الإنجاز فيها . فإن كان خيال الإنجاز موجوداً ، يكون علينا عندئذ أن نحكم بوجود أو عدم وجود مكونات محددة للإنجاز ، مثل التعبير عن رغبة في الإنجاز (على سبيل المثال « هو يريد أن يصبح طبيباً ») ، ووصف النشاط الموصل إلى النجاح (« هو سيذل قصارى جهده ») ، أو توقع الوصول إلى الهدف (« هو يفكر في اليوم الذي سيصبح فيه مشهوراً ») . ثم تقدر الدرجات لهذه المكونات ونحوها ، وتجمع الدرجات بعد ذلك ليتم التوصل إلى مؤشر رقى لقوة دافع الإنجاز عند فرد معين . والمقياس أقرب إلى أن يكون معقداً ، ولكنه مع التدريب يمكن أن يصل الطلاب إلى التمكن منه والاتفاق فيه .

وإليك مثلاً لقصة تتضمن مغزى عن الإنجاز القوى . والقصة كانت استجابة لصورة يظهر فيها ولد صغير في المقدمة ومشهد خيالى لعملية جراحية في الخلفية .

هذا الولد الصغير يحلم باليوم الذي يكون قد أكمل فيه تعليمه وأصبح طبيباً عظيماً مشهوراً . وربما تبرز هذه الصورة شخصاً قد اشتهر بالفعل بسبب أبحاثه . وقد سأله أبوه أو أحد أقربائه عما يريد أن يفعله عندما يكبر ، وهو يحاول أن يطلعهم على الصورة العقلية التي يحملها في ذهنه عن نفسه بعد ثلاثين سنة . الولد يفكر في المتعة والإثارة الكبيرة التي يجربها الطبيب عندما يجري جراحة دقيقة يستنقذ بها حياة إنسان . الولد سوف يمضى إلى الالتحاق بالكلية ليصبح في آخر الأمر طبيباً مشهوراً في العالم بأسره^(*) .

من الواضح جداً أن هذا المفحوص يعبر عن رغبة قوية في الشهرة والنجاح . وقد ينكر المفحوص مثل هذا الدافع القوى إلى الإنجاز لو أنه سئل عنه صراحة ، ولكنه قادر على أن يكشف عنه في موقف الخيال هذا . كذلك قد لا يكون طموحه بالضرورة في اتجاه الطب ، وإنما في مجالات التجارة ، أو الأدب ، أو الخدمة الاجتماعية . فإن المضمون الطبي للقصة تمليه الصورة ، ولو أن المفحوصين

* From J.W. Atkinson (ed.) *Motives in fantasy, action, and society*. Princeton, N.J.: Van Nostrand, 1958.

الآخرين قد يركزون على الخوف من عملية جراحية أو على مشاعر التألم من أن شخصاً ما قد أصيب .

هل يؤدي الدافع إلى الإنجاز إلى تسهيل التعلم والأداء؟ لتذكر أن هذا هو واحد من التعريفات الجوهرية للدافع . والواقع أن عدداً كبيراً من الدراسات قد أظهر أن من كان ذا دافع قوى إلى الإنجاز يتعلم الاستجابات بصورة أسرع وأحسن من أصحاب الدافع المنخفض إلى الإنجاز . ولكنه مع ذلك لا يمكن الحكم بأن الأفراد من أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز يكون أداؤهم أفضل بطريقة تلقائية في كل الأعمال . فإنهم قد لا يتفوقون في الأعمال المملة الروتينية التي لا تتطلب على شيء من التحدى . ولذلك ، كان من اللازم أن يستشار الدافع إلى الإنجاز عندهم .

وهذا هو ما أظهرته بوضوح دراسة أجرتها إليزابيث فرنش Elizabeth G.French . فقد كلفت طلاب كلية للقوات الجوية أن يقوموا بعملية ترميز بسيطة في ظل ظروف مختلفة ثلاثة : أما في ظروف الاسترخاء فقد قيل للمفحوصين إن المحرب يريد أن يتحقق من بعض الاختبارات ، وأما في ظرف الاندفاع إلى العمل فقد قيل لبعض الطلاب الآخرين أن الاختبار يقيس الذكاء وأن النتائج قد تؤثر في مستقبلهم المهني ، وأما المجموعة الثالثة فقد تم تحفيزها ودفعها بعوامل خارجية عن طريق مكافأة تعطى للخمسة الأوائل وهي أن يسمح لهم بالخروج قبل الآخرين بساعة كاملة يقضونها في نشاط حر . كذلك كان الدافع إلى الإنجاز قد تم قياسه بصورة لفظية من اختبار ماكيلاند ، كما كانت كل مجموعة من المجموعات الثلاثة قد قسمت إلى فئة من أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز وفئة من أصحاب الدافع الضعيف إلى الإنجاز .

وتبين نتائج دراسة فرنش أنه لم تكن هناك فروق ملحوظة في مجموعة ظرف الاسترخاء بين فئة الدافع القوى وفئة الدافع الضعيف - لم يكن هناك ما يتحدى فئة الدافع القوى إلى الإنجاز . وأما في المجموعة الثانية عندما كان الأمر يتصل بالذكاء والمستقبل المهني ، فإن أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز أحسوا بما يستثيرهم فتحسن أداؤهم . وأما أطراف النتائج فلعلها تلك التي ظهرت في مجموعة الإثابة الخارجية ، إذ تبين أن أصحاب الدافع الضعيف إلى الإنجاز استجابوا قليلاً

لإغراء الساعة الحرة ، بينما لم يستجب لذلك أصحاب الدافع القوى . وتؤيد دراسات أخرى هذه النتيجة - وهى أن أصحاب الدافع القوى لا يسهل حفزهم بالجوائز الخارجية ونحوها . وإنما هم يحسنون صنعا عندما يحصلون على متعة الإنجاز بعد القيام بالعمل بمستوى مقبول فى ضوء معايير للتفوق .

فما هى الصفات الأخرى لأصحاب الدافع القوى للإنجاز ؟ هم أميل إلى الثقة بالنفس وإلى تفضيل المسئولية الفردية ، وإلى تفضيل المعرفة المفصلة بنتائج أعمالهم . وهم يحصلون على درجات مدرسية طيبة . تراهم نشطين فى مناشط الكلية والبيئة ، يتخيرون الخبراء لا الأصدقاء ليشتركوا معهم فى الأعمال ، ويقاومون الضغط الاجتماعى الخارجى . وهم يستمتعون بالمخاطرة المعتدلة فى المواقف التى تتوقف على قدراتهم الخاصة ، لا المواقف التى تركز على الحظ الصرف والتى لا يكون لهم فيها يد أو تأثير مثل المراهنات على سباق الخيول .

وبصفة عامة ، نجد أن أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز تتوفر فيهم صفات كثيرة من النوع الذى تجده لدى رجل الأعمال الطموح صاحب الرأس الصلبة . ولذلك ، فلا عجب أن تراهم يؤثرون المهن من نوع سمسار الأسهم أو مديري المصانع . وقد جعلت هذه العلاقة ماكلياند يؤمن بأن أصحاب المشاريع - المنظمين ، والمخاطرين ، وبناء الاقتصاد فى العالم - إنما يكون دافعهم الأساسى الأول هو الرغبة فى الإنجاز .

وهنا نجد أن نظرية ماكلياند تسير عكس الافتراض السائد عند معظم رجال الاقتصاد ، وعند رجل الشارع ، من أن أصحاب المشاريع إنما يحفزهم « دافع الربح » . ولكن ماكلياند ، مع ذلك ، يقول إن النهم إلى المال ليس مقصوداً على أصحاب المشاريع . ومثال ذلك أن المرابين (أو مقرضى الأموال) فى الهند هم على التأكيد من حب المال والرغبة فى الربح بمنزلة الرأسماليين البريطانيين فى القرن التاسع عشر ، ولكن من غير أن تكون لهم نفس خصائص « بناء الامبراطورية » . وأصحاب المشروع يحرثون أموالهم مرة أخرى فى توسيع المشاريع والأعمال . أضف

إلى ذلك أن ماكليتلاند يرى نفس النوع من سلوك أصحاب المشاريع لدى مديري المصانع في البلاد الشيوعية حيث يكون الدافع إلى الربح أقل مما يمكن . ومع ذلك ، تجد المديرين الشيوعيين يسعون جاهدين إلى الانتشار والانتساع وإلى الإنتاجية وإلى النجاح .

ويذهب ماكليتلاند إلى أن أصحاب المشاريع إنما يدفعهم دافع أساسى أولى هو الدافع إلى الإنجاز . وهم إنما يأبهون للأرباح والدخل الخاص لأن هذه الأمور تستخدم في قياس كفاءة المرء واقتداره . أى أن المال يصبح رمزاً للنجاح . ويقدم ماكليتلاند الدليل على أن المديرين في بلاد متفاوتة مثل الولايات المتحدة ، وإيطاليا ، وبولندا الشيوعية يحصلون على درجات عالية في الدافع إلى الإنجاز . فأصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز إنما يبتغون التقدير بالأسلوب المحسوس الملموس وهو المال جزاءً على جهودهم من أجل الإنجاز .

فكيف ينشأ لدى الفرد الدافع إلى الإنجاز ؟ يبدو أنه يتوقف على قيم الوالدين وعلى مدى الاهتمام والتأكيد الذى يكون لسيهما عن مثل هذا الشيء . مثال ذلك أن ماريون ونترىوتوم Marion Winterbottom قامت بقياس الدافع إلى الإنجاز عند مجموعة من الأولاد في الثامنة من العمر في بيئة صغيرة في الولايات الوسطى من الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم ربطت بين ذلك وبين ماذكرته أمهاتهم عن الأساليب التى استخدمت في تنشئتهم وتربيتهم . ووجدت أن أمهات الأولاد من أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز كن يتطلبن الاستقلال والتمكن في سن أكثر تقدماً مما فعلت أمهات الأولاد من ذوى الدافع الضعيف إلى الإنجاز . ومثال ذلك أن الأولاد من أصحاب الدافع القوى إلى الإنجاز عندما بلغوا السابعة كانت الأمهات قد بدأن يطالبن الأولاد بمعرفة شوارع المدينة وأحيائها ، وبأن يحاولوا بعض الأمور الجديدة الصعبة بمفردهم ، وبأن يتحلوا بالنشاط والحيوية وكثرة الطاقة ، وبأن يتخيروا أصدقاءهم بأنفسهم ، وبأن يوفقوا في المباريات والتنافس . كذلك كان هؤلاء الأمهات لا يفرضن إلا القليل من القيود على تصرفات الأولاد ، وإذا فرضن قيوداً طالبن أولادهن بالتمكن منها في سن مبكرة .

كما أن هؤلاء الأمهات كن يحسن تقدير المستويات التي يبلغها الأولاد ويشبهن عليها بالاحتضان والقبلات . على حين أن أمهات المجموعات ذات الدافع الضعيف كن أكثر تقييداً ، ولم يكن يشجعن الاعتماد على الذات حتى ظل الأولاد أكثر اعتماداً على الأسرة .

الدافع إلى الانتماء

الانتماء دافع اجتماعي هام آخر . وهو يختلف تماماً عن الدافع إلى الإنجاز ، ويكاد أن يكون مناقضاً له تماماً . والشخص الذي لا يكون لديه أساساً إلا الدافع إلى الإنجاز قد يقدم للمجتمع إسهامات هامة ، ولكنك قد لا ترتاح كثيراً للحياة معه . ولكن هناك أناساً آخرين أكثر اهتماماً بالعلاقات الإنسانية . ولتذكر أن الأفراد الذين يكون دافعهم الأساسي إلى الإنجاز يفضلون العمل مع الخبراء من أجل أن يتموا الأعمال . أما أولئك الذين يكون الدافع إلى الانتماء قوياً لديهم فيفضلون العمل مع الأصدقاء أو مع الرفاق المخلصين حتى وإن تأثر العمل تبعاً لذلك . ومن الواضح أن هنا فرقاً أساسياً عند تحديد الأشياء التي هي أكثر أهمية .

وقد تضمن الجدول رقم ١ ذلك التعريف الذي أورده موراى للدافع إلى الانتماء ، وهو يشير في أساسه إلى رغبة المرء في أن يكون مع الناس في علاقة حب وصداقة . وقد تم تعريف الدافع إلى الانتماء تعريفاً يتناسب مع تقدير قصص اختبار تفهم الموضوع بأنه « اهتمام من جانب شخصية أو أكثر من الشخصيات في القصة بأن تقيم ، أو تحافظ على ، أو تستعيد علاقة ود إيجابية مع شخص آخر . » كما وضعت طريقة لتقدير الدرجات في الانتماء شبيهة بتلك الطريقة التي استخدمت في الدافع إلى الإنجاز . وهذه الطريقة تتضمن التعبير عن الرغبة في علاقة صداقة ، والخوف من النبذ ، والأنشطة المتجهة نحو إقامة علاقة ، والسعى إلى تحصيل العلاقة الوثيقة بوصفها هدفاً . على أن بعض قصص اختبار تفهم الموضوع المعينة أفضل من غيرها في استخراج قصص الانتماء . وإليك مثلاً لقصة من قصص هذا الاختبار تتضمن مادة كثيرة توحى بالدافع إلى الانتماء :

« اثنان من طلاب الكلية الأصدقاء لم يقابل أحدهما الآخر منذ فترة طويلة . ثم مقابلة بالصدفة وسرور بأن يلتقي الواحد بصاحبه . أو لعله يوم عودة الحريين أو يوم الدفعات القديمة . لقد كانت بينهم صداقات حميمة وثيقة في الكلية . ولعلهم الآن يستعيدون الذكريات . سوف يمضون الأسمية معاً ثم يخططون للقاءات أخرى في المستقبل . »

وقد تبين من عدة مواقف أن قياس الانتماء باختبار تفهم الموضوع قياس فعال مرض . فمن ذلك ، مثلاً ، أن شبلي وزميله فيروف T.E. Shipley and J. Veroff طبقا استخباراً سوسيوامترياً على أعضاء بيت من بيوت المدينة الجامعية . وكان كل عضو من أعضاء هذا البيت يكلف بتقدير شخصية كل واحد من زملائه في السكن من حيث العدوانية ، والصداقة ، والخلاص ، والحب ، والتعاون ، ونحو ذلك . وقد طبق الاستخبار في المسكن بعد أن يطلب من كل عضو أن يقف بدوره حتى تقوم الجماعة بتقديره . وكان يظن أن هذا الموقف قد يثير الخوف من احتمال النبذ ، كما يثير الدافع إلى الانتماء . ثم أعقب ذلك مباشرة تطبيق اختبار تفهم الموضوع وتقدير الاستجابات من حيث الدافع إلى الانتماء . وتبين أن هذه المجموعة التجريبية ، إذا قورنت بمجموعة أخرى لم تطالب بالاستجابة للاستخبار السوسيوامترى ، عمدت إلى كتابة قصص تتضمن قدراً أكبر من مضمون الانتماء .

والآن كيف يؤثر الدافع إلى الانتماء في الأداء ؟ أما الفرد الذي يشتد عنده الدافع إلى الإنجاز وتقوى عنده التزعة الفردية فإنه يعمل بجهد واجتهاد أكثر إذا وجد نفسه منغمساً في المشكلة . وأما الفرد الذي يشتد عنده الدافع إلى الانتماء أولاً فإنه قد لا ينغمس ويتحمس كثيراً لإنجاز العمل وإنهائه . فإن للناس أهمية عنده تفوق أهمية العمل . بل الواقع أن مثل هذا الشخص قد يجد من الصعب عليه أن يظل في غرفته بمفرده لكي يدرس ويستذكر . وإنما يفضل أن ينضم إلى جماعة تناقش أمراً أو أن يخرج في نزهة مع صديق . فهل هناك أية مواقف يؤدي فيها الدافع إلى الانتماء إلى تسهيل أداء العمل ؟

(1) From Atkinson. Ibid.

أجرت إليزابيث فرنش دراسة قامت فيها بمقارنة أداء العمل عند الأفراد من أصحاب الدافع إلى الإنجاز بأدائه عند الأفراد من أصحاب الدافع إلى الانتماء وذلك في ظل نوعين من الظروف . كان العمل بالنسبة لمجموعة من أربعة أشخاص عبارة عن إعادة تكوين قصة قصيرة من عشرين جملة أو عبارة . وكان لدى كل عضو من الجماعة خمس وحدات مكتوبة على بطاقات ، وكان يسمح له بأن يتحدث الآخرين عنها ولا يسمح له بأن يعرض عليهم البطاقات . وكان نصف المجموعات يتكون من أناس من أصحاب الدافع القوي إلى الإنجاز ، ونصفها الآخر من أفراد ذوي دافع قوي إلى الانتماء .

وأما الظرفان التجريبيان فقد تألفا من معلومات تغذية مرتدة مختلفة . ومعنى هذا أن كل مجموعة كانت تطالب بالتوقف عدة مرات أثناء العمل ليتم إخبارها بمدى إجادتها للعمل الذي تقوم به . وكان يقال لنصف مجموعات الإنجاز ونصف مجموعات الانتماء أنهم يؤدون العمل بكفاءة واقتدار . كما كان ينوه ويشاد بالأشياء التي يحسنون صنعها ، أى أن التنويه والإشادة كانت تنصب على أداء العمل . وكان هذا الظرف يسمى بالتغذية المرتدة المتصلة بالعمل . وأما بقية مجموعات الإنجاز والانتماء فقد أعطيت ما يسمى بالتغذية المرتدة المتصلة بالمشاعر . أعني أن ما قيل لهم كان ينصب على الانسجام الاجتماعي في المجموعة . كان يقال لهم إن المجموعة كانت تعمل في انسجام ويمتدحون أنهم أتاحوا لكل منهم فرصة المشاركة والإسهام ، وأن صبرهم يتسع لسماع الاقتراحات الضعيفة ، وأن مناقشاتهم كانت ودية ، وهكذا . ومن الواضح جداً أن هذين النوعين من التغذية المرتدة كانت لهما آثار مختلفة .

وقد تم تقدير الدرجات للمجموعات على أساس عدد العبارات التي وضعت في مكانها الصحيح ، مع إعطاء درجات إضافية للانتهاء من العمل في حدود الزمن المسموح به . وأظهرت النتائج أن المجموعات ذات دافع الإنجاز كان أحسن أدائها مع التغذية المرتدة المتصلة بالعمل . على حين أن المجموعات ذات دافع الانتماء لم يحسن أدائها بالتغذية المرتدة المتصلة بالعمل ، وإنما بالتغذية المرتدة

المنصبية على المشاعر. وبذلك يتضح أن المعلومات المرتبطة ارتباطاً محدداً بالعمل تكون مفيدة أو دافعة بالنسبة للأفراد المتوجهين نحو الإنجاز لا الأفراد المتوجهين للانتماء. وأما الأفراد من ذوى الدافع إلى الانتماء فإنهم يحسنون الاستجابة للمعلومات المتصلة بالجوانب الإنسانية من الموقف، وذلك على خلاف أصحاب الدافع للإنجاز. وتقول فرنش أيضاً إن المناخ العام في كل من نوعي المجموعات كان مختلفاً اختلافاً ملحوظاً واضحاً. أما مجموعات الإنجاز فكانت حريصة على إكمال العمل، وتتنافس بعنف. وأما مجموعات الانتماء فكانت أكثر هدوءاً وأقل توتراً، يبدو على أفرادها ميل كل واحد منهم ميلاً ودياً إلى صاحبه وإلى الجرب.

والآن نسأل كيف ينشأ الدافع إلى الانتماء؟ وهل هناك شيء يقابل التدريب على الاستقلال الذي يقدم للأطفال من أصحاب الدافع القوي إلى الإنجاز؟ مما يؤسف له أن ما نعلمه عن نشأة الانتماء أقل من ذلك بكثير. هناك بعض الملاحظات العامة تشير إلى أن آباء الأطفال من ذوى الدافع إلى الانتماء يزيد اهتمامهم وتأكيدهم على العلاقات الأسرية الوثيقة وعلى الالتزام بسلطة الوالدين. كذلك يبدو أنهم يشجعون الاتكال بدلاً من الاستقلال. ولكن هذه الحقائق، مع ذلك، لم تتأكد بعد، ولم يصبح مقطوعاً بصحتها حتى الآن.

ثم إن هناك بعض الشواهد على أن الانتماء مرتبط بالقلق. فقد استخدم ستانلى شاختر Stanley Schachter أداة غير اختبار تفهم الموضوع لقياس الانتماء، وأظهر أن زيادة القلق تميل إلى زيادة الدافع إلى الانتماء. كانت مجموعات من الطالبات قد طلب إليهن أن يشتركن في تجربة وقبل لهن أنهن قد يتعرضن لصدمات كهربية أقرب إلى أن تكون مؤلمة. ثم عرض عليهن جهاز كهربى بشع المنظر، وقيل لهن إن التجربة لن تبدأ إلا بعد فترة تأخير مقدارها عشر دقائق، وأنهن يستطعن خلال هذه الفترة أن ينتظرن وحدهن أو مع الجماعة. وكانت هذه هي مجموعة القلق المرتفع. وأما في مجموعة القلق المنخفض فلم يعرض الجهاز الكهربى، كما تمت طمأنة المفحوصات إلى أن الصدمة ستكون طفيفة لاتحدث ألماً. وأما حقيقة الأمر فكانت أن الصدمة الكهربائية لم توقع على

أى واحدة من أفراد المجموعتين . وكانت المسألة كلها أن يتبين الباحث إن كانت المفحوصات سيؤثرن البقاء مجتمعات أم منفردات بعد أن يتعرضن للخوف .

وأظهرت النتائج أن معظم الإناث في مجموعة القلق المرتفع أردن البقاء مع الأخريات ، على حين أن معظم أولئك اللاتي كن بمجموعة القلق المنخفض لم يأبهن كثيراً أيقين وحدهن أم مع الأخريات . بعبارة أخرى ، يمكن القول إن القلق يزيد من الانتماء ، وأن بقاء المفحوصات معاً يؤدي فيما يبدو إلى خفض القلق بالنسبة لبعض الناس . وقد انصبت بعض الدراسات على معرفة السبب الدقيق في ذلك . وبينت بعض البحوث أن الأفراد القلقين يريدون أن يقارنوا أنفسهم بالآخرين حتى يتمكنوا من تقدير انفعالاتهم وتقرير مدى الخوف الذي ينبغي أن يكونوا عليه . لكن هذه المقارنة يبدو أنها تتم بصورة غير لفظية ، فقد تبين أن الأفراد القلقين يفضلون أن يظلوا معاً ولو لم يسمح لهم بأن يتحدث بعضهم إلى بعض . ويرى بعض الباحثين الآخرين أن بقاء الناس معاً يتيح الفرصة للتنفيس الانفعالي أو تحويل الانتباه . وأخيراً قد يكون تفسير هذه الظاهرة أن بعض الناس قد تعلموا أن يسعوا إلى غيرهم أو أن يبحثوا عنهم عندما يشتد بهم القلق - شأنهم في ذلك شأن قردة هارلو عند تشبثها بالأمهات .

ومما يتصل بهذا أن شاختر وقع على اكتشاف طريف آخر . فقد تبين له أن الطالبات اللاتي رغبن في الانتماء عند التعرض للقلق كن في الأغلب من نوع الطفل الوحيد في الأسرة أو الطفل الأول الذي يولد بها . وأن الأطفال الذين يتأخر مولدهم في الأسرة كن أقل ميلاً إلى ذلك . بل إن حقيقة الأمر أنه تبين أن الطالبات من نوع الطفل الثالث في الأسرة كن أقل ميلاً إلى ذلك من الطالبات من نوع الطفل الثاني ، وأن الطالبات من نوع الطفل الرابع في الأسرة كن أقل ميلاً إلى ذلك من الطالبات من نوع الطفل الثالث . وهذه النتيجة التي توصل إليها شاختر توحى بأن الأطفال الذين يولدون أولاً للأسرة تكون لهم فرصة أكبر متاحة لتعلم الاتكالية على الوالدين .

ومن الطبيعى أن الموقف ليس بمثل هذه البساطة . وأول الأسباب أن الرجال يختلفون عن النساء فى الاتكالية ، وذلك كما تبين من بعض الدراسات . وفى الحضارة الأمريكية لا يتقبل كثيراً من الذكر أن يكون اتكالياً أو أن يلتمس التسرية عند الآخرين . ثم إن نوع القلق يبدو ذا أهمية أيضاً . ففى دراسة أجريت على الذكور تبين أن الخوف من الصدمة الكهربائية يزيد الانتماء ، على حين أن القلق من أن يضطر الواحد منهم إلى امتصاص زجاجة الرضاعة كان يجعل المفحوصين يؤثرون فيما يبدو البقاء بمفردهم . وقد يكون أن هذه التجربة الأخيرة أثارت قدراً مفرطاً من القلق المتصل بالاتكالية . على أى حال ، نحن نجد أن هناك عدة عوامل ذات صلة . وأن كل هذه الأبحاث تنطوى على فكرة أن الدافع إلى الانتماء يتضمن التدريب على الاتكالية أثناء الطفولة ، على حين أن الدافع إلى الإنجاز يتضمن التدريب على الاستقلال .

الدوافع الاجتماعية والمجتمع

للدوافع الاجتماعية ، من قبيل الإنجاز والانتماء ، كما رأينا ، تأثيرات هامة على الأداء فى الظروف المختلفة . وكذلك رأينا أن هذه الدوافع الاجتماعية تتأثر كثيراً جداً بطرق تنشئة الأطفال ، وقيم الوالدين ، وتكوين الأسرة . والسؤال الآن هو : ما الصلة بين هذه الدوافع الاجتماعية عند الفرد وبين المجتمع بأسره ؟ من الواضح أن هناك علاقة بين الدوافع التى تكون لدى أفراد المجتمع وبين القيم السائدة فى هذا المجتمع . كذلك من الممكن جداً أن تكون هناك علاقة فيما بين هذه الدوافع الفردية والقيم الاجتماعية من ناحية ، والنفو الاقتصادية ، والتكوين السياسى ، والمستوى الحضارى للمجتمع من ناحية أخرى .

إن معظم المؤرخين ، ورجال الاقتصاد ، وعلماء الاجتماع يفسرون الدوافع الفردية فى ضوء الظروف والأحوال الاجتماعية التى يعيش فيها الفرد . وهكذا نجد مثلاً أن دافيد ريسمان David Riesman يذهب إلى أنه عندما بدأت المدنية الأوروبية فى العصور الوسطى تفضى إلى قيام الرأسمالية ، بدأ

المجتمع يحتاج إلى أصحاب المشاريع الذين ينشئون الصناعات ويسايرون الازدياد في عدد السكان . كما يشير أناس آخرون إلى اكتشاف الموارد الطبيعية ، ووجود المناخ الملائم الأمثل ، أو إلى افتتاح مناطق تسويق جديدة . وأما المؤرخ العظيم آرنولد توينبي Arnold J. Toynbee فيقول ببساطة إنه إذا توفرت الثمرات البيئية والاجتماعية المناسبة - فلا تكون مفرطة في السهولة أو مفرطة في الصعوبة - أمكن للمجتمع أن يقدم استجابته الإبداعية .

لكن دافيد ماكليلاند يرى القصور في كل وجهات النظر السابقة . وهو لا ينكر أن هذه العوامل هامة . مثال ذلك أن الأجواء الإدارية قد تزود الناس بمدد وفير من الطعام حتى لا يتبقى إلا الدافع الضئيل إلى التغيير ، على حين أن الأجواء قاسية البرودة قد تجعل الإنسان ينفق كل جهده في أن يحفظ على نفسه الحياة . كما أن ازدياد السكان يؤدي في بعض الأحوال إلى تنشيط الاقتصاد . ومن الصحيح أيضاً أن اكتشاف الزيت في أرض صحراوية فقيرة له تأثير عميق على الاقتصاد . وقد أجرى ماكليلاند دراسات منهجية على مجموعة كبيرة من البلاد التي تقع في المنطقة المعتدلة حيث ينبغي أن تقلل كثيراً من العوامل المناخية . وتبين أن ازدياد السكان لا يكون مرتبطاً على الدوام بالرخاء والرفاهية ، بل إنه كثيراً ما يؤدي إلى انخفاض في النمو الاقتصادي . كما وجد أيضاً أن البلاد المتكافئة من حيث الموارد الاقتصادية تتفاوت تفاوتاً هائلاً في مدى استغلالها لهذه الموارد . ولذلك ، فلا بد أن في الأمر شيئاً آخر .

ويذهب ماكليلاند إلى أن هذا الشيء الآخر أمر سينكولوجي - وهو الدافع الاجتماعي عند الشعب في البلد . ويرى على التحديد أن تلك البلاد التي نمت في أطفالها دافعاً قوياً إلى الإنجاز ، أفادت من وراء ذلك مكاسب اقتصادية في السنوات التالية بعد أن شب الأطفال وصاروا من أصحاب المشاريع . وبالإضافة إلى ذلك ، وضع ماكليلاند اختباراً عبقرياً لتحخيص صحة هذا الفرض .

في أو الأمر كان على ماكليلاند أن يبحث عن مقياس للنمو الاقتصادي يكون

متاثلاً بالنسبة للدول الأربعين الواقعة في المنطقة المعتدلة التي قام بدراستها . وهذا ليس بالأمر السهل ، ولكنه استقر أخيراً على كمية القوة الكهربائية التي تنتجها الدولة مقارنة بعدد السكان فيها . ذلك أن كل الصناعة تتوقف على القوة الكهربائية . ولذلك فإنها تزودنا بمؤشر للنمو الاقتصادي . وكانت بيانات القوة الكهربائية ميسورة للسنوات ١٩٢٩ و ١٩٥٠ . وتبين أن هذه الدول المتعددة تفاوتت تفاوتاً كبيراً في الزيادة التي طرأت على إنتاج القوة الكهربائية خلال هذه الفترة .

وأما بالنسبة لمقياس الدافع إلى الإنجاز ، فقد كان ماكلياند يريد شيئاً يبين درجة الاهتمام بالإنجاز الذي يتعرض له الأطفال . وقد تمخبر كتب المطالعة أو كتب القراءة التي يستخدمها الأطفال في الصفوف الثاني والثالث والرابع من سنوات ١٩٢٥ و ١٩٥٠ . واختيرت من هذه الكتب بعض القصص بصورة عشوائية ، وتم تقدير الدرجات لها من حيث الدافع إلى الإنجاز بطريقة شبيهة بالطريقة المستخدمة في القصص التي نحصل عليها باستخدام اختبار تفهم الموضوع . وبذلك أصبح لدى ماكلياند مقياس للدرجة الاهتمام بالإنجاز من قبل بداية فترة النمو الاقتصادي أو التدهور الاقتصادي ، ومقياس آخر عند نهاية هذه الفترة .

وقد أظهرت النتائج أن هناك علاقة إيجابية بين درجة الدافع إلى الإنجاز في كتب القراء للأطفال حول سنة ١٩٢٥ والنمو الاقتصادي مقدراً بالتغيرات في إنتاج القوة الكهربائية فيما بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٥٠ . ومعنى هذا أن البلاد التي تحققت بالنسبة لها أكبر زيادة في الإنتاج الكهربائي (مثل بريطانيا العظمى) كانت في كتب القراءة للأطفال في سنة ١٩٢٥ بها أكبر درجة من الاهتمام بالإنجاز ، بينما كانت البلاد ذات الزيادة الصغيرة أو الانخفاض (مثل بلجيكا) ذات اهتمام قليل بالإنجاز . وأما من الناحية الأخرى ، فلم تكن هناك علاقة بين الإنجاز الذي يبدو في كتب القراءة لسنة ١٩٥٠ والزيادة في إنتاج القوة الكهربائية . على أن لهذه النقطة الأخيرة أهميتها . فإنها تعني أن أفكار الإنجاز في كتب المطالعة للأطفال ليست نتيجة للتوسع أو النمو الاقتصادي . كما تعني أن هناك عاملاً هاماً في النمو الاقتصادي هو درجة الاهتمام

الذى أظهرناه للأطفال فى الأجيال السابقة بالإنجاز وضرورته . فالمغزى هو أننا إذا حفزنا الأطفال إلى الإنجاز ، وجدناهم يقومون بالأشياء المطلوبة لتنمية الاقتصاد عند ما يكبرون . أى أن الدافعية تسبق النمو الاقتصادى ! .

والآن هل من الممكن أن يكون قيام المدينيات العظمى وانحلالها قد اعتمد على الدافع إلى الإنجاز ؟ قام ماكيلاند بتمحيص هذه الفكرة أيضاً . خذ على سبيل المثال ، تلك المدنية الإغريقية الكلاسيكية المتركة فى أثينا . كانت الإغريق القديمة قد بدأت تنمو اقتصادياً خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، ولكنه لم يحدث إلا فى القرن السادس قبل الميلاد أن بدأت أثينا تظهر معالم المدنية التى ستتحول إليها . وخلال القرن الخامس قبل الميلاد وصلت إلى ذروتها فى العصر الذهبى عصر بيريكليس . وكانت هذه هى الفترة التى عاشت فيها الشخصيات الشهيرة من أمثال إيشيلوس ، ويوريبيدس ، وأرستوفانيس ، وسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطوطاليس ، والتى قدموا فيها إسهاماتهم الرائعة الهائلة إلى المدنية الغربية ، كذلك كانت هذه الفترة فترة قوة اقتصادية هائلة . وبعد ذلك بزمان قصير ، انهزمت أثينا فى حرب البيلوبونيز (Peloponnesian war) على يد أسبرطة وبدأ اضمحلالها .

هنا نجد رأى التقليدى يتلخص فى أن قيام هذه المدنية الرائعة كان نتيجة للازدهار الاقتصادى . وهذا الازدهار بدوره أنتج الأفراد المتوجهين نحو الإنجاز المرتبطين بالمدنية المزدهرة النامية . بينما ينسب اضمحلال عادة إلى الحرب البيلوبونيزية غير الموفقة ، تلك الحرب التى كان يقدر أنها سوف تستنزف طاقات أهل أثينا وتؤدى إلى فقدان الدوافع . ولكن ماكيلاند ، مع ذلك ، يذهب إلى أن الدافع إلى الإنجاز يسبق فترة أقصى النمو ، وأن اضمحلال المدنية يسبقه انحدار فى الدافع إلى الإنجاز .

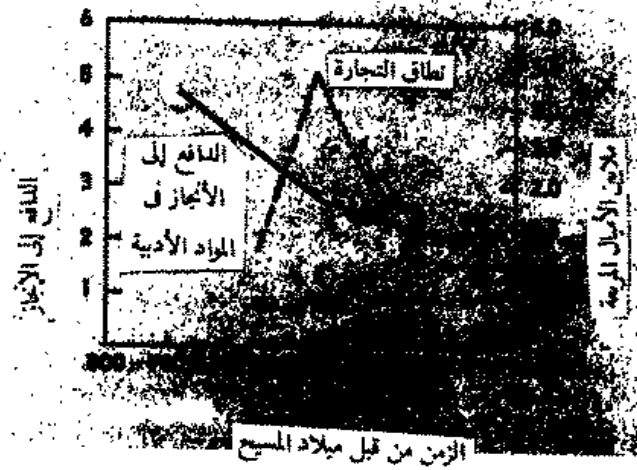
فكيف نقيس النمو الاقتصادى والدافع إلى الإنجاز فى مثل هذه المدنية القديمة ؟ عزم ماكيلاند وأعوانه على أن يستخدموا مجال التجارة بوصفه مؤشراً على النمو الاقتصادى ، بسبب أن كثيراً من الرفاهية والرخاء فى أثينا كان يرتكز على التجارة

الخارجية التي امتدت من الأطلسى حتى البحر الأسود . ومن الممكن تقدير مدى انتشار مجال التجارة هذا في الأوقات المختلفة عن طريق الأماكن التي تم فيها الكشف عن الجرار الأثينية . وكانت هذه الجرار تحمل النبيذ وزيت الزيتون وهما أكبر عناصر التجارة . على أن الجرار التي تنتمي إلى القرون السادس والخامس والرابع يمكن التعرف عليها من أشكالها وتصميمها ، كما كان قد تم تسجيل الأماكن التي عثر فيها على هذه الجرار . وبذلك يصبح من الممكن أن نرسم خريطة تقريبية لنطاق التجارة في القرون الثلاثة التي تقابل فترات النمو ، والذروة . والاضمحلال في المدينة الأثينية .

أما الدافع إلى الإنجاز في المدينة الأثينية فقد تم قياسه من عينات من الأدب - الدراما ، والخطب الجنائزية ، والأشعار ، وخطب الحرب ، وما إلى ذلك . وقد تم اختيار عدد متشابه من كل نوع من هذه الأنواع من فترة النمو المبكرة (من القرن التاسع حتى سنة 475 ق . م) ، والذروة (من سنة 475 إلى 362 ق . م) . والاضمحلال (362 - 100 ق . م) . ومن الأمثلة على فترة النمو المبكرة الشاعر هوميروس ، وبيزيكليس من فترة الذروة ، وديموسثينيس من فترة الاضمحلال .

وتتضح النتائج في الشكل رقم (١٢) . ومنه يتبين أن نطاق تجارة أثينا ارتفع من حوالي ١,٢ مليون ميل مربع في القرن السادس قبل الميلاد إلى ٣,٤ مليون ميل مربع في القرن الرابع . ويوضح هذا التغير الأزدهار الاقتصادي والتدهور الاقتصادي ، كما أنه يقابل الأزدهار الحضارى والاضمحلال الحضارى . وأما مقياس الدافع إلى الإنجاز فإنه يكشف عن شيء طريف . فقد كان الإنجاز - أو السعى إلى النجاح - على أشده في الفترة المبكرة للنمو ، تلك الفترة التي سبقت الذروة الاقتصادية والحضارية . كما أنه هبط بالفعل في وقت الذروة ، واستمر ينخفض خلال الاضمحلال . مثل هذه النتيجة تلقي ضوءاً جديداً تماماً على الحرب البيلوبونيسية . ذلك أن هذه الحرب لم تدمر الروح الأثينية ، وإنما كانت الروح الأثينية قد دب بالفعل فيها الانحلال . وقد كتب الكثير عن التحلل الشخصي للأثينيين خلال

عصرهم الذهبي . وإنه لمن المحتمل أن فقدان الدافعية هذا هو ما أدى إلى الهزيمة الحربية والخسارة .



شكل ١٢ - الدافع إلى الإنجاز ونشأة المدينة الأثينية واضمحلالها . وتظهر الثروات الخاصة بالمدينة الأثينية بمدى اتساع نطاق التجارة . وأما الدافع إلى الإنجاز - كما يتضح في المواد الأدبية - فقد كان مرتفعاً من قبل أن تبلغ المدينة ذروتها ثم بدأ ينخفض من قبل الاضمحلال (مأخوذ عن D.C. Mc Clelland. The achieving society. Princeton: Van Nostrand, 1961.)

ولكن السؤال مع ذلك يظل قائماً : ما هي العوامل التي تؤدي إلى ازدياد الدافع إلى الإنجاز في المجتمع ؟ لقد رأينا أن الدافع إلى الإنجاز تنميه في الطفل أمور مثل دفع الوالدين ، والأب غير المسيطر ، ومعايير الإنجاز المرتفعة . ومع ذلك فإننا نستطيع أن نمضي في التساؤل : ما الذي يجعل الوالدين يسلكان بهذه الطريقة ؟ إن من المحتمل أن يكون الوالدان على غير وعي بالآثار بعيدة المدى للطرق التي يتبعونها في تنشئة الأطفال . بعبارة أخرى ، من المحتمل أن الآباء يريدون الاستقلال في أطفالهم فيرتب على ذلك بصورة عرضية أن يصبح الأبناء من أصحاب الدافع القوي إلى الإنجاز . ومن ناحية أخرى ، قد نجد أن الآباء الذين يدفعون أبنائهم إلى حد مفرط إلى الإنجاز يجدون في آخر الأمر أن أبنائهم قد نفروا من الإنجاز تماماً ومن

كل ما يتعلق به . فهذا التفسير ، كما نرى ، ينسب الإنجاز إلى ظروف عارضة أو مصادفة .

كما أن العقائد الدينية والأخلاقية في الحضارة أو المجتمع قد تؤثر في الدافعية الاجتماعية . فقد نسب عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر Max Weber قيام الرأسمالية في شمال أوروبا وشمال أمريكا إلى ما أسماه « بالخلق البروتستانتي » . ذلك أن الخلق البروتستانتي ، على خلاف ما يشيع في العقيدة الكاثوليكية الكلاسيكية من نفور من الدنيويات ، ومن التواد بين الإخوة ، ومن تحريم للربا . يعلم أتباعه أن النجاح الشخصي وجمع رأس المال أمور طيبة عند الله . بل إن العمل الشاق الجاد هو خير ما يدفع به المرء عن نفسه شكوكه الدينية ، ومشاعر النقص والقصور ، أو الرغبات الجنسية . وقد مضى ماكيلاند يمحس صحة هذا الفرض . وتبين له أن معدلات إنتاج القوة الكهربائية ، مقارنة بالموارد الطبيعية كانت أعلى في البلاد البروتستانتية منها في البلاد الكاثوليكية . وبذلك يبدو أن سلوك أصحاب المشاريع ينمو بدرجة أكبر على الأفكار الدينية في البروتستانتية منه في الكاثوليكية .

على أن الأفكار الدينية الجوهرية المرتبطة بالإنجاز والنمو الاقتصادي ليست هي الفروق العقائدية المعتادة فيما بين البروتستانتية والكاثوليكية . وإنما هناك عدة « قيم محورية » يمكن أن نجدها شائعة في كثير من أديان العالم ، وهذه القيم هي ذات أهمية هنا . ففي الهند ، على سبيل المثال ، نجد أن أعضاء طوائف اليانية Jain والبارسية Parsee من الزاهدين هم الذين يحرزون النجاح البارز في مجال الأعمال والتجارة لا أعضاء طائفة البرهمنين الهندوسيين Hindu Brahmans . وأما في اليابان فإننا نجد البوذية به Zen Buddhism هي المرتبطة بالنجاح الاقتصادي ، كما يفسر التقدم اليهودي في التجارة على أنه مرتبط بقيام الحركة المعادية للأحبار اليهود . antirabbinical Hassidic . ويقول ماكيلاند إن القيم المحورية في هذه المذاهب المنجزة تتضمن تأكيد الخبرة الدينية الفردية لا الخبرة الدينية المرتبطة بالطقوس ، وكذلك تأكيد الاعتماد على الذات بدلاً من

الاعتماد على خبراء الدين ، وتتضمن أيضاً في كثير من الأحيان نوعاً ما من الزهد أو إنكار الذات . باختصار ، هم المتطهرون (puritans) في العالم .

والآن لتتوقف لحظة وتندبر مضامين هذه النظريات والحقائق . الواقع إنه لمن المدهش أن يكون متغير سيكولوجي مثل الدوافع إلى الإنجاز ذا أهمية كبيرة في الأمور الاقتصادية ، إننا لانقصد طبقاً أن نغمت دور العوامل الاقتصادية التقليدية ، ولكننا نستطيع ، كما يقول ماكلياند ، أن نتعرف على النمو الاقتصادي من واقع كتب المطالعة التي يستخدمها الأطفال بدرجة أكبر مما نستطيع القيام بذلك على أساس من البيانات الخاصة بالسكان : بل إنه لمن المدهش بدرجة أكبر أن تكون الأفكار الإنسانية كل هذه الأهمية . صحيح أن أستاذ الجامعة تهره كثيراً أهمية للأفكار ، ولكن كم واحد منا فاته أن يدرك أن الإنسان ليس دائماً تلك الضحية السلبية لتاريخه وبيئته ، وأنه قادر على أن يتصور الخطط العظيمة وأن يصوغ العالم وبيئته وفق هذه الخطط .

خاتمة

نحن قطعنا شوطاً طويلاً من اكتساب الخلايا اللاسعة عند الميكروستوما إلى قيام الحضارة الأثينية وسقوطها . إن موضوع الدافعية والانفعالات يغطي مجالاً شديداً التنوع والتعقيد . وقد رأينا من المد والجزر في المحاولات التي بذلت لفهم هذه الطائفة الصعبة من الظواهر - الغرائز ، الدوافع ، الدوافع الداخلية ، النظريات ذات الدافع الواحد ، وذات الدوافع الثلاثة ، وذات الدوافع المتعددة ، والهوميوستازيا ، ووظائف الدماغ ، والكفاءة البيولوجية ، والدوافع المتعلمة ، والدوافع غير المتعلمة ، والدوافع ذات الأوجه الكثيرة ، والمحددات الفسيولوجية والاجتماعية . ولدينا الاكتشافات الجديدة المثيرة - مراكز اللذة والألم في الدماغ ، دوافع الفضول ، والاستكشاف ، واللعب ، وأولوية الحب ، والمودة ، ومتعة الالتصاق . فما هي مضامين كل هذا ؟ وإلى أين ستمضي بنا سيكولوجية الدافعية ؟ .

في رأيي أن مجال الدافعية والانفعال هو الآن في فترة من السهولة الإبداعية التي ستؤدي بنا تدريجياً إلى صورة جديدة عن طبيعة الإنسان . أما في الماضي ، فقد كان مجال الدافعية والانفعال تحكمه نظريتان - نظرية فرويد الكلاسيكية والنظرية السلوكية الكلاسيكية . وكانت صورة الإنسان في نظرية فرويد أنه مخلوق تدفعه غرائز جنسية وتدميرية متوارثة غير شعورية تسعى دائماً إلى التعبير عن نفسها في بيئة اجتماعية محبطة . وكانت نظرة السلوكية أن الإنسان مخلوق يستلحق في الظل وعمليات الأيض أو التمثيل الغذائي ماضية في طريقها عنده ، يتجه أحياناً إلى النشاط بفعل الشمس المحرقة ويأغراء كوب الشراب البارد . واليوم لانظن أن هناك واحداً من علماء النفس

الأحياء يمكنه أن يقبل أى واحدة من وجهتى النظريتين : فما هى الصورة الجديدة الآن ؟ .

نقول أولاً إن المعركة القديمة فيما بين الوراثة والبيئة قد ماتت إلى حد كبير . فالإنسان لم يقذف به إلى العالم وهو مزود بغرائز جاهزة غير مرنة ، كما أنه ليس قطعة سلبية من الصلصال يقوم المجتمع بتشكيلها فى أنظمة للقيم محددة . وإنما الإنسان يولد مزوداً بعدد كبير من الإمكانيات التى تتفاعل مع عالم مادى واجتماعى معقد لتتكون من ذلك طائفة متنوعة من الأنظمة الدافعية . ولعنا لا نستطيع أن نجد دافعاً واحداً يكون فطرياً تماماً أو يكون مكتسباً تماماً . وإنما الإمكانيات البيولوجية تنصرف فى قوات أو تتعرض للكف ، تتسع أو تنقبض . ونحن لا نزال حتى الآن نجهل الإمكانيات الكاملة عند الإنسان .

على أن هناك اتفاقاً متزايداً على أن إمكانيات الإنسان تتوقف إلى حد كبير على تركيب دماغه ، ذلك التركيب المعقد إلى حد لا يكاد يصدق . والدافعية ليست مجرد توترات حشوية أو حاجات أنسجة . وإنما هى تتوقف على دماغ مزود بميكانيزمات للذة والألم ، وسيطر بنفسه على مستوى الاستثارة فيه ، كما أنه شديد الحساسية للوقائع الخارجية والداخلية على السواء . والظاهر أن لكل الدوافع جوانب داخلية وجوانب خارجية .

ثم إن الإنسان لا يقتصر دوره على أن يدفع عن نفسه المثيرات المؤذية ليسعى إلى طمأنينة الموت أو النيرفانا . وإنما هو يتفاعل تفاعلاً إيجابياً مع البيئة . فهو فضولى ، يحب اللعب ، مبدع خلاق . وهو يتصور الأفكار العظيمة ، ويلتمس المعانى ، ويتخذ الأهداف الاجتماعية الجديدة - وهذه الأشياء التى تنتج عن خياله هو تراها تؤثر من بعد ذلك فى سعيه ، وفى نمط الدافعية عنده ، وفى مجرى المدنية .

وأخيراً ، نجد أن الدلف والاندما عند الإنسان ليسا عبارة عن ظاهرتين مصاحبتين طعمتا فيه كما تطعم الأعضاء الغريبة فى الجسم بحيث يظهران فى إيقاع دورى . بل إن تقديم الحب وتلقيه جزء من الطبيعة البيولوجية للإنسان شأنها شأن

الحاجة إلى التبول . فإننا نشعر بالرغبة الجنسية فعلاً ، ولكننا نلتبس كذلك المحبة والمودة . ونحن نكرة ، ولكننا نلتبس كذلك التقارب والتوقير . بل إننا نحاول أن نحب ذواتنا ونوقرها .

وصورة الإنسان هذه صورة منبثقة في دور الاكتمال ، ولكن قد يكون الإنسان ذاته لا يزال بعد في دور الانبثاق والاكتمال . إننا جميعاً ندرك أن كثيراً من الناس لا تنطبق عليهم هذه الصورة . فإن السيكيوياتي الوحشي الذي يلقي بقنبلة في مدرسة للأطفال الصغار يبدو أن الكراهية تنهش قلبه - أو لعله الخوف . كذلك قد لا تكثر الأقوام الجائعة في العالم قليلاً ولا كثيراً بالإبداع ، بل ولا بحب أقرانهم في بعض الأحيان . فإن بعض الدوافع لا بد من أن تشبع حتى تنبثق الدوافع الأخرى . ولعله من الصحيح أن هناك نوعاً من الترتيب الهرمي للدوافع .

ويقدر ذهب ابراهام ماسلو Abraham Maslow إلى أن للإنسان عدداً من الدوافع الأولية الغريزية تتراوح فيما بين الدوافع الدنيا والدوافع العليا . وهذه تنظم في ترتيب هرمي يقابل المستوى التطوري المفترض للدافع . وأول المستويات هو الدوافع الفسيولوجية مثل الجوع ، ثم دوافع الأمن مثل الخوف ، ثم دوافع الحب ، ودوافع التقدير ، وأخيراً ، الدافع إلى تحقيق الذات . وكلما انخفض مستوى الدافع ، ازدادت أهميته لبقاء الكائن الحي ، وكان ظهوره في مرحلة مبكرة من عملية التطور . كذلك يشير الترتيب الهرمي إلى ترتيب ظهور الدوافع في نشأة الفرد - فالدوافع الفسيولوجية تظهر مبكراً ، ودوافع التقدير متأخرة ، ودوافع تحقيق الذات بعد ذلك بكثير ، أو قد لا تظهر أبداً .

ثم نصل إلى أهم نقطة عند ماسلو - فالدافع الأعلى لا يظهر عادة إلا إذا تم إشباع الدوافع التي تكون من دونه . فالكوربيون الجياع تراهم يخاطرون بحياتهم وهم يلتقطون النفايات والبقايا بالقرب من معسكرات الجيش الأمريكي وقريباً من مرمى أسلحتهم ، والناس الذين حسنت تغذيتهم وحدهم الذين يملكون أن يفكروا في الأمن والطمأنينة . ودوافع الحب ، على قوتها ، لا تملك أن تجعل الخائف يقبل على

الناس . ثم إذا انخفض الخوف ، بدأت تظهر دوافع الحب . فإذا تم إشباع دوافع الحب ، بدأت تظهر دوافع التقدير . والشخص الذى يكون بحاجة ماسة إلى الحب قد يضحى باحترامه لذاته ، بل وقد يزحف عائداً إلى محبوبه الذى عذبه . ومن الواضح أن هناك كثيراً من حالات الاستثناء لهذا الترتيب الهرمى - كالأم التى تندفع وسط البيت المحترق لتنفذ صغارها ، والرجل الوطنى الأسير الذى يمنعه كبرياؤه من أن يأكل طعام المحتل الذى يراه طعاماً حراماً ، وهكذا - ولكن الذى لاشك فيه أن فكرة ماسلو لها قيمتها وقدرتها على الإيحاء .

وأخيراً ، وبعد أن تشبع كل الدوافع الدنيا ، يقول ماسلو إنه يظهر دافع معين إلى تحقيق الذات . والواقع أن هذا الدافع من الصعب وصفه لأنه لم يعرف عنه إلا القليل . وإنما يقصد ماسلو بهذا الرغبة فى اكتمال الذات ، أى أن يقوم المرء بما هو أهل له ، أو أن يحقق المرء مآلديه من إمكانيات . قد يكون معنى ذلك بالنسبة لإنسان ما أن تصبح أمّاً مثالية ، وقد تعنى بالنسبة لآخر أن يصبح رياضياً من الدرجة الأولى ، أو فناناً مبدعاً . وقد أجرى ماسلو دراسات إكلينيكية لعدد من الناس الذين قدر أنهم يحققون ذواتهم - بعض طلاب الجامعة ممن يؤدون أعمالهم كاملة ، وبعض الشخصيات التاريخية مثل أبراهام لنكولن ، وآلبرت اينشتاين ، وإليانور روزفلت ، وجين آدمز . وتبين ماسلو أن هؤلاء الناس يتصفون بأنهم واقعيون ، يتقبلون أنفسهم والآخرين ، تلقائيون ، مبدعون ، وأنهم قادرون على أن يدخلوا فى علاقات حب ناضجة .

ومع ذلك ، فلازلنا لا نعلم إلا القليل عن دافع تحقيق الذات مما يفرض علينا أن نعهده لا يزال فى مرحلة الفروض . ولكنه مع ذلك يبين لنا أن دراسة الدوافع عند الإنسان لم تكتمل بعد . ومن يدرى فلعل المستقبل أن يمكننا من بحث نزعة الإنسان إلى تحقيق ذاته ، ومن بحث الدوافع التى تجعل الإنسان ينشط أنشطة فلسفية ودينية وأخلاقية ، ومن بحث جهود الإنسان التى يبذلها لفهم معنى وجوده على الأرض . هذه هى الآماد البعيدة لميدان تخصيص آخذ فى الاتساع بسرعة ، فإننا لا نملك اليوم الأجوبة ومن يدرى فلعلك أنت أيها القارئ تكفل بالتوصل إلى بعض الأجوبة فى المستقبل .

قراءات مختارة

الفصلان الأول والثاني :

- Carroll, J. B. Language and thought, Englewood Cliffs, N. J. : Prentice-Hall, 1964.
Hochberg, J. E. Perception, Englewood Cliffs, N. J. : Prentice-Hall, 1964.
Hyman, R. The nature of psychological inquiry, Englewood Cliffs, N. J. : Prentice-Hall, 1964.
Lazarus, R. S. Personality and adjustment, Englewood Cliffs, N. J. : Prentice-Hall, 1963.
Mednick, S. A. Learning, Englewood Cliffs, N. J. : Prentice-Hall, 1964.

الفصل الثالث :

- Bindra, D. Motivation — a systematic reinterpretation, New York : Ronald, 1959.
Brown, J. S. The motivation of behavior, New York : McGraw-Hill, 1961.
Hall, J. F. The psychology of motivation, Philadelphia : Lippincott, 1961.
Murray, E. J. Sleep, dreams, and arousal, New York: Appleton-Century-Crofts, 1965.
Titelbaum, P. Physiological psychology, Englewood Cliffs, N. J. : Prentice-Hall, 1965.
Young, P. T. Motivation and emotion, New York: Wiley, 1961.

الفصل الرابع :

- Ford, C. S., and F. H. Beach, Patterns of sexual behavior, New York : Hoeber, 1952.
Kinsey, A. C., W. B. Pomeroy, and C. E. Martin. Sexual behavior in the human male. Philadelphia: Saunders, 1948.
Kinsey, A. C., W. B. Pomeroy, C. E. Martin, and P. H. Gebhard. Sexual behavior in the human female, Philadelphia : Saunders, 1953.
Lazarus, R. S. Adjustment and personality, New York : McGraw-Hill, 1961.
Monroe, R. L. Schools of psychoanalytic thought, New York: Holt, Rinehart and Winston (Dryden), 1955.

الفصل الخامس :

- Arnold, M. Emotion and personality. Vol. I. Psychological aspects. Vol. II. Neurological and psychological aspects. New York: Columbia University Press, 1960.
- Rethlingshafer, D. Motivation as related to personality. New York: McGraw-Hill, 1963.
- Rotter, J. B. Clinical psychology. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1964.
- Young, P. T. Motivation and emotion. New York: Wiley, 1961.

الفصل السادس :

- Berlyne, D. E. Conflict, arousal, and curiosity. New York: McGraw-Hill, 1960.
- Berlyne, D. E. Conflict, arousal, and curiosity. New York: McGraw-Hill, 1960.
- Fiske, D. W., and S. R. Maddi (eds.). Functions of varied experience. Homewood, Ill.: Dorsey, 1961.
- Woodworth, R. S. Dynamics of behavior. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1958.

الفصلان السابع والثامن :

- Atkinson, J. W. (ed.). Motives in fantasy, action, and society. Princeton, N. J.: Van Nostrand, 1958.
- Lambert, W. W., and W. E. Lambert. Social psychology, Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1964.
- McClelland, D. C., J. W. Atkinson, R. A. Clark, and E. L. Lowell. The achievement motive. New York: Appleton-Century-Crofts, 1953.
- McClelland, D. C. (ed.). Studies in motivation. New York: Appleton-Century-Crofts, 1955.
- McClelland, D. C. The achieving society. Princeton, N. J.: Van Nostrand, 1961.
- Mussen, P. H. The psychological development of the child. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1963.
- Schachter, S. The psychology of affiliation. Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1959.
- Schein, E. H. Organizational psychology, Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1965.
- Stacey, C. L., and M. F. DeMartino. Understanding human motivation. Cleveland: Allen, 1958.

خاتمة :

- Maslow, A. H. Motivation and personality. New York: Harper, 1954.

المصطلحات الواردة
بالكتاب حسب ترتيب ورودها^(١)

المصطلح	الفصل الأول	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
تصور ، مفهوم	١	١	Conception
دافعية	١	١	Motivation
ذكاء	١	١	Intelligence
استعداد	١	١	Aptitude
أداء	١	١	Performance
إنجاز	٢	٢	Achievement
قلق	٢	٢	Anxiety
إدراك حسي ، إدراك	٣	٣	Perception
ذاكرة	٣	٣	Memory
تفكير	٣	٣	Thinking
دوافع	٣	٣	Motives
انفعالات	٣	٣	Emotions
الحاجة إلى المكانة	٣	٣	Status need
مفهوم	٣	٣	Concept
غريزة	٣	٣	Instinct
فرض	٥	٥	Hypothesis
النظريات المعرفية	٥	٥	Cognitive theories
إرادة	٦	٦	Will
ملكات العقل	٦	٦	Faculties of the mind

(١) يذكر المصطلح فقط عند أول ورودها بالكتاب .

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
العمليات المعرفية	٦	Cognitive processes
قيم	٧	Values
اتجاهات	٧	Attitudes
تكوينات	٧	Constructs
تقدير الذات	٧	Self-esteem
أمن	٧	Security
متعلق باللذة	٧	Hedonistic, Hedonic
مذهب اللذة	٧	Hedonism
نظرية اللذة	٧	Hedonistic theory
نموذج الإثارة الوجدانية	٩	Affective-arousal model
تطور	١٠	Evolution
منعكس ، فعل منعكس	١٠	Reflex
الاختيار الطبيعي	١٠	Natural selection
مفهوم	١٠	Concept
ميل	١١	Tendency
استعداد	١١	Disposition
الغريزة الجنسية	١١	Sex instinct
غريزة العدوان	١١	Aggressive instinct
حب الاستطلاع	١١	Curiosity
المقاتلة	١١	Pugnacity
تحقير الذات	١١	Self-abasement
تأكيد الذات	١١	Self-assertion
التجمع	١١	Gregariousness
الامتلاك	١١	Acquisitiveness
البناء	١١	Constructiveness
المدرسة السلوكية	١٢	Behaviorist school
الأنثروبولوجيا الحضارية	١٢	Cultural anthropology
علم النفس المقارن	١٢	Comparative psychology
انطباع	١٢	Imprinting
باعث (دافع)	١٣	Drive

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
كائن عضوي . كائن حي	١٣	Organism
تعريف إجرائي	١٤	Operational definition
الاتزان الحيوي	١٤	Homeostasis
مكافأة . إثابة	١٥	Reward
مكافأة ثانوية	١٥	Secondary reward
الاستحسان الاجتماعي	١٥	Social approval
حافز	١٦	Incentive
حاجة	١٦	Need
هدف	١٧	Goal
إشباع	١٧	Satiation
رغبة شعورية	١٧	Conscious desire
مطلب	١٧	Want

الفصل الثاني

مثيرات . منبهات	١٩	Stimuli
تدمير	١٩	Destructiveness
عدوان	٢٠	Aggression
إنجاز	٢٠	Achievement
حب	٢٠	Affection
الانتماء	٢٢	Affiliation
أداء	٢٣	Performance
استجابة هدفية (أى متجهة نحو هدف)	٢٤	Goal response
عادة القيام بالاستجابة	٢٧	Response-habit
القيمة الحافزة للإثابة (المكافأة)	٢٨	Incentive value of a reward
انتباه	٢٩	Attention
توقعات	٢٩	Expectations
تعبئة	٢٩	Set
نصوع	٣٠	Brightness
الدفاع الإدراكي	٣١	Perceptual defense

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
هلوسة	٣٢	Hallucination
تذكر	٣٣	Remembering
نسيان	٣٣	Forgetting
كبت	٣٤	Repression
الثقة بالذات (النفس)	٣٤	Self-confidence
احتفاظ	٣٤	Retention
خيال	٣٥	Fantasy
عمليات رمزية	٣٥	Symbolic processes
حل المشكلات	٣٥	Problem-solving
التفكير الإبداعي	٣٥	Creative thinking
استبطان	٣٦	Introspection
التحليل النفسي	٣٦	Psychoanalysis
قلبات اللسان	٣٦	Slips of the tongue
التداعي الحر	٣٦	Free association
العلاج النفسي	٣٦	Psychotherapy
استبصار	٣٨	Insight
كف	٣٩	Inhibition
اكتئاب	٤١	Depression
تبلد الشعور	٤١	Apathy
استبدادي ، ديكتاتوري	٤١	Totalitarian
صراع	٤٢	Conflict
إقدام . إقبال	٤٢	Approach
إحجام . تجنب	٤٢	Avoidance
مشاعر الإثم	٤٣	Feelings of guilt
لاشعوري	٤٤	Unconscious
التنويم المغناطيسي	٤٤	Hypnosis

الفصل الثالث

علم الأحياء ، البيولوجيا	٤٧	Biology
كائن عضوي وحيد الخلية	٤٧	Unicellular organism

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
اختلال الاتزان الحيوى (الهوميوستازى)	٤٧	Homeostatic disequilibrium
تكيف	٤٩	Adaptation
مجهرى . بالغ الصغر	٤٩	Microscopic
حامض اللبنيك	٥١	Lactic acid
آلية (ميكانيزم)	٥٢	Mechanism
سلوك البحث عن الهدف	٥٣	Goal-seeking behavior
الدماغ	٥٣	Brain
الهيوثالاموس	٥٤	Hypothalamus
الغدة النخامية	٥٤	Pituitary gland
المخ	٥٥	Cerebrum
الأبيض	٥٥	Metabolism
غدة صماء (باطنية الإفراز)	٥٨	Endocrine
توقع ، استباق	٦٠	Anticipation
توافق	٦٠	Adjustment
تنشيط	٦٣	Energization
المثيرات الدافعة	٦٣	Drive stimuli
إشارة	٦٥	Cue
إشباع	٦٦	Satiation
خفض الحاجة	٦٦	need-reduction
مستقبل	٦٨	Receptor
كيميائى حيوى (كيميحيوى)	٦٨	Biochemical
تدعيم	٧٢	Reinforcement
الجهاز الطرفى	٧٢	Limbic system
إنطفاء	٧٣	Extinction
مختص فى علم الوراثة	٧٦	Geneticist
إشعاع ذرى	٧٦	Atomic Radiation

الفصل الرابع

Neurotic symptoms	٧٨	الأعراض العصبية
Puberty	٧٩	البلوغ
Secondary sex characteristics	٧٩	الخصائص الجنسية الثانوية
Evolution	٧٩	تطور
Species	٨٠	النوع
Impotence, Impotency	٨٠	القوة ، المعجز الجنسي
Potence, potency	٨١	فعالية ، مقدرة
Estrual Cycle	٨١	الدورة التزوية
Fertility	٨١	خصوبة
Ovulation	٨١	تبويض ، إياضة (خروج البويضة من المبيض)
Uterus	٨١	رحم
Mammary glands	٨٢	الغدد اللبنية
Questionnaire	٨٢	استخبار ، استبيان
Menstruation	٨٣	حيض
Menopause	٨٣	سن اليأس ، سن انقطاع الطمث
Estrual peak	٨٣	ذروة الدورة التزوية
The nervous system	٨٤	الجهاز العصبي
Sensory receptors	٨٤	المستقبلات الحسية
Reflex	٨٤	منعكس ، انعكاس
Spinal	٨٤	شوكي أو فقري
Cortex	٨٤	لحاء ، قشرة
Erotic	٨٤	شبق
Glans penis	٨٤	حشفة القضيب
Clitoris	٨٤	البظر
Spinal cord	٨٤	الحبل الشوكي
Cerebral cortex	٨٥	لحاء المخ ، قشرة المخ
Courtship	٨٧	مغازلة ، تودد

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
استدخال	٨٨	Internalization
رمزى	٨٨	Symbolic
مراهق	٨٨	Adolescent
نمطى	٨٩	Stereotyped
إيلاج	٩١	Intromission
قلق	٩١	Ejaculation
إحباط	٩١	Frustration
هزة الجماع	٩٢	Orgasm
استثارة جنسية عامة	٩٥	General sexual arousal
استثارة تناسلية محددة	٩٥	Specific genital arousal
نمو	٩٦	Development
نضج	٩٦	Maturation
استمناء	٩٧	Masturbation
الجنسية المثلية	٩٨	Homosexuality
الجنسية الغيرية	٩٩	Heterosexuality
المراحل الجنسية النفسية	١٠٠	Psychosexual stages
الطاقة اللبديدية	١٠٠	Libidinal energy
المرحلة الفموية	١٠٠	The oral stage
المرحلة الشرجية	١٠٠	The anal stage
المرحلة القضيبية	١٠٠	The phallic stage
مرحلة الكون	١٠١	The latency stage
مرحلة الجنسية المثلية	١٠١	The homosexual stage
المرحلة التناسلية	١٠١	The genital stage
خلق	١٠١	Character
خلق فمى	١٠١	Oral character
خلق شرجى	١٠١	Anal character
خلق قضيبى	١٠١	Phallic character
إعلاء	١٠١	Sublimation
غشيان المحارم ، زنى المحارم	١٠٢	Incest

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
غيرة	١٠٣	Jealousy
عقدة أوديب	١٠٣	Oedipus complex
قلق الخصاء	١٠٣	Castration anxiety
توحد	١٠٣	Identification
حسد القضيب	١٠٤	Penis envy
التطبيع الاجتماعي	١٠٦	Socialization
الضبط الاجتماعي	١٠٦	Social control
المشاعر نحو المحارم	١٠٧	Incestual feelings
تناقض وجداني	١٠٩	Ambivalence
الطمأنينة الانفعالية	١٠٩	Emotional security
سيطره	١٠٩	Dominance
خضوع	١٠٩	Submission
انكابة	١٠٩	Dependence
استقلالية	١٠٩	Independence

الفصل الخامس

ردود أفعال . أرجاع	١١٠	Reactions
النظرية الثلاموسية	١١٣	Thalamic theory
الحيوانات وحيدة الخلية	١١٦	Protozoa
نوبات الغضب (أو الغيظ)	١١٨	Temper tantrums
السادية	١١٨	Sadism
تفريغ	١٢٠	Discharge
العملية الشرطية	١٢٠	Conditioning process
تعميم	١٢١	Generalization
انطفاء	١٢١	Extinction
تقليد	١٢٢	Imitation
إشارات	١٢٣	Cues
تقدير الذات	١٢٣	Self-esteem

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
تعقل	١٢٥	Intellectualization
إنكار	١٢٥	Denial
تكوين رد الفعل	١٢٥	Reaction formation
صلمة	١٢٥	Trauma
عصابي (مريض نفسي)	١٢٦	Neurotic
ذهاني (مريض عقلي)	١٢٦	Psychotic
إحباط	١٢٦	Frustration
الإشراط	١٢٨	Conditioning
استبطان	١٢٩	Introspection
تمايز	١٣٠	Differentiation
أبعاد	١٣٢	Dimensions
الشدة	١٣٢	Intensity
سار - غير سار	١٣٢	Pleasantness-unpleasantness
الاقتراب - التجنب	١٣٢	Approach-avoidance
استثارة	١٣٢	Arousal
تنشيط	١٣٢	Activation
تضاد . تناقض	١٣٤	Antithesis
استجابة طوارئ	١٣٧	Emergency reaction
الجهاز العصبي المستقل	١٣٧	Autonomic nervous system
نظير التعاطف (الباراسمبتاوي)	١٣٧	Parasympathetic
التعاطف (السمبتاوي)	١٣٧	Sympathetic
معديةوى	١٣٧	Gastrointestinal
جهاز الغدد الصماء	١٣٨	Glandular endocrine system
الغدة النخامية	١٣٨	Pituitary gland
الغدتان الكظريتان (الأدريناليتان)	١٣٨	Adrenal glands
مرحلة الاستنفار	١٣٨	Stage of alarm
مرحلة المقاومة	١٣٨	Stage of resistance
مرحلة الإنهاك	١٣٩	Stage of exhaustion
استجابة الاكتئاب	١٤٠	Depressive reaction

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
نفسجسى (سيكوسوماتى)	١٤٠	Psychosomatic
الجهاز الطرفى	١٤١	The limbic system
اللحاء العتيق	١٤١	Paleocortex
اللحاء الحديث	١٤١	Neocortex
الجهاز المشط الشبكى	١٤٣	Reticular activating system
الشعور	١٤٣	Consciousness
منمّط	١٤٧	Stereotyped
شدة ، عناء	١٤٨	Stress
باعث (أو دافع) مكتسب	١٤٩	Acquired drive
ميكانيزمات الدفاع	١٥١	Defense mechanisms
الكبت	١٥١	Repression
نكوص	١٥٢	Regression
انسحاب	١٥٢	Withdrawal
استهجان اجتماعى	١٥٥	Social disapproval
التقل	١٥٥	

الفصل السادس

ذاتى - داخل	١٥٧	Intrinsic
إعلاء	١٥٩	Sublimation
استقلال وظيفى	١٥٩	Functional autonomy
إبدال	١٦١	Substitution
سادى	١٦١	Sadistic
التنظر الجنسى	١٦١	Voyeurism
سيكولوجية الأنا	١٦١	Ego psychology
وظائف الأنا	١٦١	Ego functions
خارجى	١٦٩	Extrinsic
ملازم - فطرى	١٦٩	Inherent
دوافع ذاتية	١٧٠	Intrinsic motives

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
النرفانا	١٧١	Nirvana
الحرمان الحسى	١٧١	Sensory deprivation
القابلية للتنبج (أو الإثارة)	١٧٣	Irritability
هلاوس بصرية	١٧٣	Visual hallucinations
فضول (حب الاستطلاع)	١٧٣	Curiosity
تعود	١٧٥	Halituation
اهتمام	١٧٦	Interest
تشبع	١٧٨	Satiation
الدوافع المعرفية	١٨١	Cognitive motives
التنافر المعرفى	١٨٢	Cognitive dissonance
تبرير	١٨٣	Rationalization
أولوية الحاجة	١٨٤	Need-primacy
أولوية السلوك	١٨٥	Behavior-primacy
مستقبلات خارجية	١٨٧	Exteroceptors

الفصل السابع

بالبدئية - بالحدس	١٩١	Intuitively
الدافعية الاجتماعية المشتقة	١٩٣	Derived social motivation
توحد	١٩٤	Identification
ترابط	١٩٥	Relatedness
أمن ، طمأنينة	١٩٥	Security
الميل إلى التجمع	١٩٥	Gregariousness
حب الاجتماع بالناس	١٩٦	Sociability
غريزة الوالدية	١٩٦	Parental instinct
مسايرة	١٩٧	Conformity
تصريف الدوافع فى قنوات	١٩٨	Drive channeling
راحة الالتصاق	١٩٩	Contact comfort
اجترارى	٢٠٢	Autistic

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
ميال إلى الخلفة ، مخالف	٢٠٣	Negativistic
ضوى ، هزال	٢٠٣	Marasmus
اجترارية	٢٠٤	Autism
جانح	٢٠٥	Delinquent
معادٍ للمجتمع ، مضاد للمجتمع	٢٠٥	Antisocial
القلق الأول	٢٠٥	Primary anxiety
شحنة نفسية	٢٠٩	Cathexis
الليبدو الجنسي	٢٠٩	Sexual libido
تقنية	٢١٠	Canalization
متعلق بالذات (بالأنا)	٢١٣	Ego-involved
الأنا	٢١٣	Ego
الذات	٢١٣	Self
مفهوم الذات	٢١٤	Self-Concept
توقير الذات	٢١٥	Self-esteem
مستوى التطلع	٢١٥	Level of aspiration
تعويض	٢١٦	Compensation

الفصل الثامن

نفسى المنشأ	٢١٨	Psychogenic
اختبار تفهم الموضوع	٢١٨	Thematic Apperception Test (TAT)
ترميز	٢٢٥	Coding
استخبار سوسيومتري	٢٣٠	Sociometric questionnaire
تغذية مرتدة	٢٣١	Feedback
تغذية مرتدة متصلة بالعمل	٢٣٢	Task feedback
تغذية مرتدة متصلة بالمشاعر	٢٣٢	Feeling feedback
تنفيس انفعالى	٢٣٤	Catharsis
قيم محورية	٢٤٣	Core values

المصطلح	الصفحة	الأصل باللغة الإنجليزية
ظاهرة مصاحبة (أو مضافة)	٢٤٧	Epiphenomenon
سيكوباتي	٢٤٧	Psychopath
ترتيب هرمي	٢٤٨	Hierarchy
تطوري	٢٤٨	Evolutionary
دوافع الأمن	٢٤٨	Security motives
دوافع التقدير	٢٤٨	Esteem motives
دوافع تحقيق الذات	٢٤٨	Self-actualization motives

مكتبة أصول علم النفس الحديث
يشرف على ترجمتها
الدكتور محمد عثمان نجاتي

صدر منها :

- علم النفس الإكلينيكي : تأليف جوليان ب . روتر
ترجمة الدكتور عطية محمود هنا .
أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس
وجامعة الكويت
الطبعة الثانية ، ١٩٨٣
- علم نفس الشواذ : تأليف شيلدون كاشدان
ترجمة الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة .
أستاذ علم النفس بجامعة الأزهر وجامعة الرياض .
الطبعة الثالثة ، ١٩٨٨
- الشخصية : تأليف ريتشارد س . لازاروس
ترجمة الدكتور سيد محمد غنيم .
أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس
وجامعة الإمارات العربية .
الطبعة الثانية ١٩٨٤ .
- التعلم : ترجمة الدكتور محمد عماد الدين إسماعيل .
أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس وجامعة
الكويت .
الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ .

- الاختبارات والمقاييس : تأليف ليونا ا. تايلر
ترجمة الدكتور سعد عبد الرحمن .
أستاذ علم النفس بجامعة الكويت
الطبعة الثانية ، ١٩٨٨ .
- علم النفس الاجتماعي : تأليف وليام و. لامبرت وولاس ا. لامبرت
ترجمة الدكتورة سلوى الملا .
أستاذ علم النفس المساعد بجامعة القاهرة وجامعة
الكويت
الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ .
- الدافعية والانفعال : تأليف إدوارد ج. موراى
ترجمة الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة
أستاذ علم النفس بجامعة الأزهر وجامعة الملك سعود
وجامعة الكويت
الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ .
دار الشروق

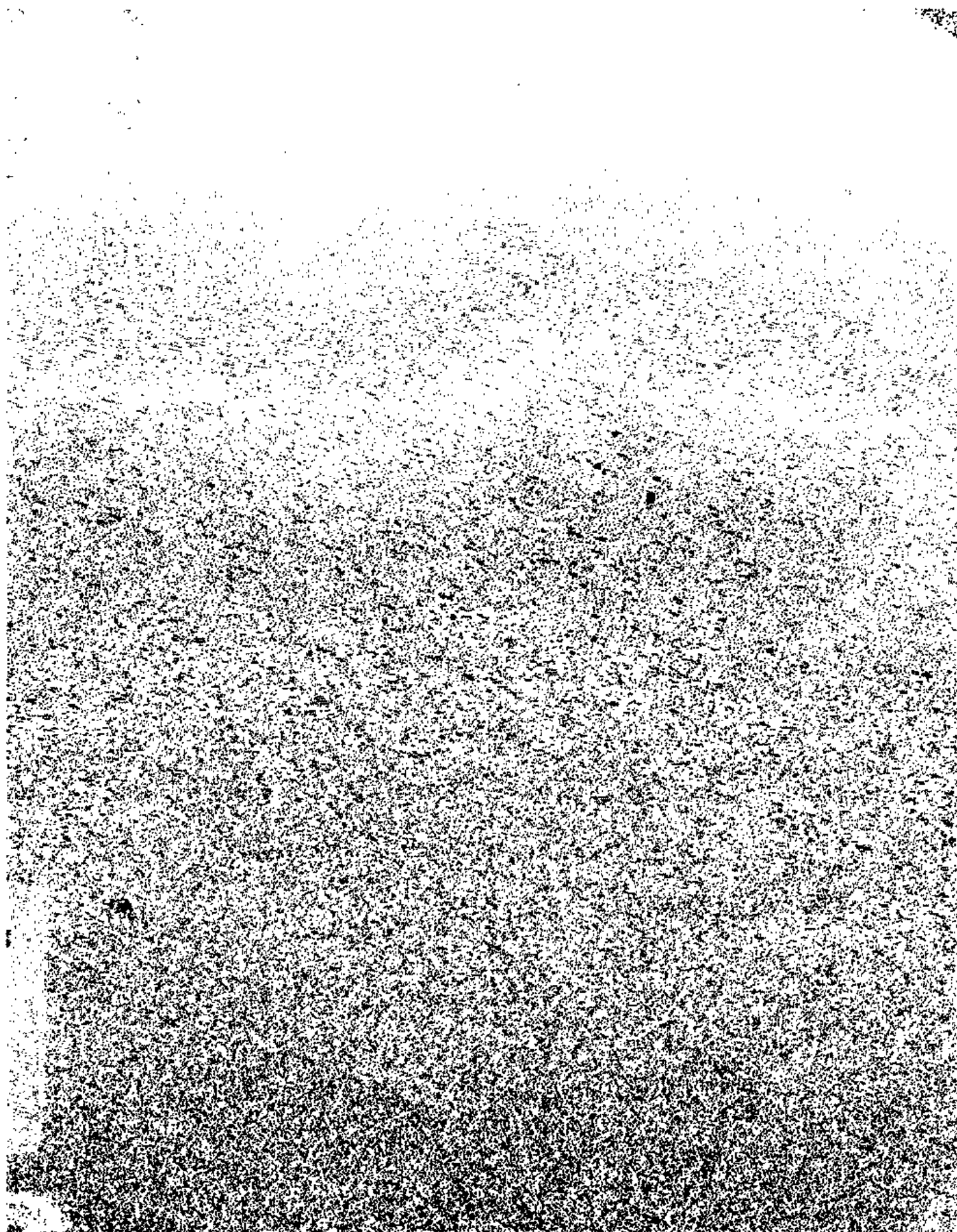
مكتبة التحليل النفسي والعلاج النفسي

بإشراف الدكتور محمد عثمان نجاتي

- معالم التحليل النفسي ١: تأليف سيجمند فرويد
ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتي
الطبعة السادسة . ١٩٨٦
- الكف والعرض والقلق : تأليف سيجمند فرويد
ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتي ،
الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣ .
- الأنا والهو : تأليف ببيجميند فرويد
ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتي
الطبعة الخامسة ، ١٩٨٨ .
- ثلاث رسائل في نظرية الجنس : تأليف سيجمند فرويد
ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتي ،
الطبعة الثانية ، ١٩٨٥
دار الشروق

للدكتور محمد عثمان نجافى

- الإدراك الحسى عند ابن سينا ، بحث فى علم النفس عند العرب .
الطبعة الثالثة (مزيدة ومنقحة) . دار الشروق ببيروت ، ١٩٨٠
- علم النفس فى حياتنا اليومية .
الطبعة الثانية عشرة (مزيدة ومنقحة) . دار القلم بالكويت ، ١٩٨٥
- علم النفس الصناعى .
الطبعة الثالثة (مزيدة ومنقحة) مؤسسة الصباح بالكويت ، ١٩٨٠
- المدنية الحديثة وتسامح الوالدين .
الطبعة الثانية (منقحة) . دار النهضة العربية بالقاهرة ، ١٩٧٤
- علم النفس الحربى .
الطبعة الثالثة (منقحة) (نقد)
- ملامح جريمة القتل .
بالاشتراك مع آخرين ، من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية
والجنائية ، القاهرة ١٩٧١
- القرآن وعلم النفس .
الطبعة الثالثة ، دار الشروق ببيروت ، ١٩٨٧



To: www.al-mostafa.com